

تامر عطوة

شقة وسط البلد

رواية

السراج
SERAJ

الحلقة الثانية لشقة الهرم



شقة وسط البلد





18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـmail: seraj.books@gmail.com

شقة وسط البلد

تامر عطوة

رقم الإيداع : 2017/1929
الترقيم الدولي : 4 ـ 10 ـ 6578 ـ 977 ـ 978

الطبعة الأولى : 2017 م - 1438 هـ

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف: عبير محمد

شقة وسط البلد

رواية

تامر عطوة



السراج للنشر والتوزيع

المقدمة

تامر عطوة..

اسم غامض لمع مؤخرًا فى عالم الرعب، لا توجد عنه معلومات شخصية محددة سوى أنه خبير فى الماورائيات وباحث فلكى يحوز بعض الشهرة فى أوساط الروحانيين والمهتمين بهذه العلوم الظنية، عرفنا أنه يعمل مخرجًا لمهرجانات الموضة وعروض الأزياء، وقام بإخراج عروض قمة فى الإبهار والتجديد بشهادة الخبراء والعاملين فى مجال التجميل، له ثلاث روايات مثيرة للجدل، وهذه هى الرابعة. حققت روايته الأولى (شقة الهرم) نجاحًا منقطع النظير، وصُنفت كواحدة من كلاسيكيات قصص الرعب فى العالم العربى، ثم جاءت روايته الثانية (عمل أسود) لتثير عاصفة من الجدل بسبب أحداثها الغارقة فى مستنقع النفس البشرية والعلاقات المعقدة والنوازع الدفينة لها، ثم ظهرت روايته الكابوسية (المسكون) كتجربة حقيقية للتلامس مع عالم الشياطين، كما أن له كتابًا شديد الغموض عن الأبراج باسم (التقشير فى الأبراج) يقوم فيه بتقشير الغلاف الخارجى للشخصيات عن طريق الأبراج القمرية والذى يعتبر سلاحًا روحيًا فى يد كل من قرأه، كما أن مفردات الكتاب غاية فى الغرابة. أما رواية (شقة وسط البلد) التى بين يديك الآن، هى الجزء التالى من قصته الأشهر (شقة الهرم)، وهى مذكرات عن حياته فى وسط القاهرة قبل عام ٢٠٠٥، لقد حاز إنتاج (تامر عطوة) اهتمام آلاف القرّاء بأسلوبه السهل الممتنع وجُمله المليئة بالألغاز والطلاسم والتشبيهات المعقدة، وهو يجعلك ترى القصة لا أن تقرأها فقط..



الإهداء

إهداء مشمول بالنفاذ لكل صديق وقارئ فض غلاف هذا العمل واستند إلى حائط الوحدة لينفرد مع خياله فى محبتى، لكل هارب من حماقة الواقع ومرارة الرتابة وملل الأيام، لكل شجاع يحب أن يركب قطار العزلة متوجهًا إلى حيث لا يعلم، إهداء لحظات التمرد وقرارات الانفراد مع الذات، لكل من قرأ (شقة الهرم) وأراد أن يعرف المزيد من التفاصيل فيما بعد، وتحية إلى الناشرين محمد الطيب وإسلام أبو الفتوح، اللذين أصرا على إكمال ما بدأه الآخرون، فلهما منى تحية وقبلة وابتسامة منهكة من أثر السهر والاعتصار.



تامر عطوة..

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾

(سورة البقرة: الآية ٢٧٥)



اليوم الثلاثاء الأول من يناير عام ٢٠٠٢

أستيقظ من نومى المخمور فى شقة صديقى عمر، الكائنة بشارع نوال بحى العجوزة الراقى.

طبعًا لا يخفى عليكم أن الليلة المنصرمة كانت ليلة رأس السنة.

وأصر صديقى ـ وكيل النيابة ـ أن نقضيها فى شقة العائلة، إذ إنه أصلًا من المنيا، ولكنه يعشق القاهرة بكل ملذاتها وتفاصيلها، وهذه الشقة ملك للأب المستشار (عبد الهادى شنن) رجل القضاء العتيد، والمعروف بجبروته وقسوته فى الأحكام، ولابد أن تلك القسوة امتدت لابنه الأكبر، والذى كان لا يطيق القضاء ولا يطيق زوجته ذات الحسب والنسب، والتى هى ابنة لأحد أعمدة القضاء الكبار فى القاهرة ايضا

يالك من لعوب معقدة مثيرة للعجز يا (دينا) بشعرك القصير وزينتك الصبيانية، وملمس جسدك الشبيه بالقطيفة، وانفاسك الحارة اللافحة، والتى تشعر أى رجل بأنه مجرد عاجز ينتظر منك الحنان والاحتواء، فثمة نساء بعينها تشعرك بأنها هى المدينة، وهى الأرض التى تنتمى إليها، أو التى تتمنى الانتماء إليها، أن تصحو من نومك على جاذبية الأشجار والمطر والبحر وقطرات الندى، أن تكون جميلًا لمجرد اقترانك بهذا الكوكب الغامض الملىء بتفاصيل الثراء والسرية والتكتم، فالتحرر فى مجتمعنا له مافيا لا ترحم،

فيحرمون من أجله الخمر، ويحللون لأجله البول! منذ قابلتها لأول مرة بمقهى ساهر بالحسين، نسيت أصالة المكان وعبقه، وبت منجذبًا تمامًا لتلك القطعة الأثرية النادرة والتى يشتعل من أجلها طمعك وجشعك فى الامتلاك، كل هذا يجتمع فى دينا، ذات المظهر الغلامى، والأنوثة الذكورية الصامتة، أنتِ جائزة ومكافأة حصلت عليها من (عمر) بعدما عرَّضت نفسى للخطر من أجل قبلة، ولكن الذى قدمته كان هو الكرم بعينه، وهو الجود الخليق بالمحسنين أمثالك.

كان وكيلًا للنيابة، يعمل بمحمكة الجنايات فى محافظة بنى سويف القريبة.

تعرفت عليه منذ ثلاث سنوات فى أحد كلوبات شارع الهرم، وصرنا أصدقاء بكل مافى الصداقة من تناقض وصراع ومجاملة.

فهو فنان حقيقى، يعشق الرسم والديكور والموسيقى، ويكره النيابة والمحاكم ورائحة النشادر المنبعثة من المتهمين، ويعتبر وظيفته قيدًا جديدًا يضاف إلى مجموعة قيوده الصارمة والتى فُرضت عليه من زوجة لا يرغبها، وأسرة تحتفظ بتقاليد الصعيد الممزوجة بشموخ القضاء وهيبته وانفراده، له أخت واحدة متزوجة من ابن عمها، ويعمل ضابطًا فى محافظة المنيا أيضًا، أما الأم، فهى ذات حسب ونسب وهيمنة فاقعة الألوان، بجبروتها الممتد لفروع العائلة، ونسبها الذى ينتهى لسعد زغلول وأحمد عرابى، وكل تلك التماثيل ذات الهيبة، تنظر إليك من تحت نظارتها لتحكم عليك بالإعدام أو بالقبول المشمول بالشروط الصعبة، أما زوجته، فتعمل فى مجال البنوك، ذات شخصية يقظة، كانت كما ترى زميلتك المتفوقة فى الصف، تعمل بجد أكثر من اللازم، وتطمح بأكثر من اللازم، وتخطط لاطول من اللازم، لدرجة أنها نسيت زوجها تمامًا فى غمرة طموحها الطاغى. كانت تفوقه



ثقلًا ورسوخًا، بينما هو جامح فى أحلام يقظته الاستقلالية وفى تلك الحرية البعيدة المنال واللذيذة المذاق.

كان لصديقى اهتمام فائر بعلوم الروح والماورائيات، تفوقنى أنا شخصيًّا بكثير.

فأنا أحبها ـ علوم الروح ـ لأنها غامضة، مكتظة بالأسرار والمفارقات التى تجعلنى أتوقف طويلًا أمام طلاسمها، أما صديقى عمر، فكان يعشقها، لأنه يريد سلطة روحانية تمكنه من استشفاف درجة الإجرام فى المتهمين الماثلين أمامه فى المحكمة. هدف غريب لرجل لا يحب مهنته ولا يفضلها من الأساس، ولكنه وجد نبعًا صافيًا من الإثارة ينهل منه بنفس مستوى تشبعه من علاقاته النسائية العديدة. هو يحب الروحانيات، ويقبل عليها لأسباب منطقية بنظره، قد يطمع فى امتياز ليدعم به أحكامه فى عمله القضائى الرتيب الخالى من الكوليسترول المحبب لنا جميعا فمن منا لا يحب البطاطس المقلية والدجاج المقلى والكبد المقلى والطعمية المقلية؟ من ها؟ وكانت علوم الروح هى المائده العامرة بكل صنوف الطعام الغنى بالدهون المشبعة بالاثارة.

أما أنا، فأعمل مُصممًا للإعلانات والمطبوعات فى ذلك الوقت، ولى اهتمامات موسيقية وسينمائية كبيرة، أرى الحياة من منظور ضيق إلى حد ما، وأقبع فى عرينى أمارس عملى، وأجنى أرباحى، وأمارس هوايتى التى فاقت توقعاتى بأن أصبحت خليلًا للروحانيين والمهتمين بذات نفس الاهتمام. كنت أحب السينما والأفلام، وكان مشوار السينما فى ذلك الوقت يتكرر أسبوعيًّا على أقل تقدير.

كنت زبونًا مستديمًا فى سينما (أوديون) المغروسة بوسط البلد.



وجعلت من شقتى فى وسط البلد مكتبًا ومأوى وملجأً مستديمًا لا أستطيع الاستغناء عنه نهائيًا.

كان عمر صديقى يهوى النساء بطريقة مزعجة أيما إزعاج.

والإزعاج هنا لا يكمن فى رغبته، ولكن يكمن فى اختياره لنوعية النساء نفسها وطريقته فى التقاطهن من على حافة الجرف.

يهوى المطلقات والهاربات، وصاحبات الحكايات السينمائية الموجعة، هل كان يتلقطهن من على أبواب المحاكم؟ هل كان يمشى بسيارته ليمارس (الشقط) من على الأرصفة؟ متى عرف عن حكايتهن؟ أكيد وهن يعتصرنه فى أحضانهم الغارقة فى العرق، كان يقوم بتعريفهن إلىَّ بطريقة تخصه وحده.

(دى صباح، من ضحايا العنف الأسرى وزنا المحارم).

و(دى مُهجة، أبوها هو اللى باعتها هنا عشان أكل العيش)

و(دى يا معلم تبقى رانيا، موظفه ومطلقه، وجوزها ابن الحرام رماها هى وبنتها فى أوضه عند أمها).

و(دى هدي، طالبة فى إعلام وعايشه حياتها لتجربة كل شىء ييجى على بالها).

كان عمر وسيمًا كالكريستال، هشا كالبقلاوة، تحسبه لم يجرب ولم يخرج لما خلف سور مدرسته الداخلية، وجهه طويلًا مسحوبًا كإجاصة فضية فى الفاترينه، بشعره الباكستاني وبشرته الخمرية الضاربة للسمار الرائق، وجسده الرياضى النحيل، والمقوسة ساقيه قليلًا، شديد الاهتمام بهندامه، يصر دومًا على الظهور بمظهر ابن الذوات المدلل، بسيارته الألمانية، وعطره الخليجى، وأناقته المشدودة أطرافها كالجورب الجديد.



وكان يقدم نفسه لتلك النسوة بأنه مهندسا للديكور والتشطيبات المعمارية. كانت روحه لا تهدأ ولا تلبث أن تدخله فى مشاكل ومغامرات لا حصر لها، نشيطًا كذبابة تنتقل من كومة إلى أخرى ليتذوق العطن والقذارة والشذوذ أينما حلّ، بل كانت إثارته الشخصية تعتمد على عمق المأساة التى تعيشها أى امرأة يعرفها، تحميه سلطته الخفية من كل ما قد يزعج افتتانه الدائم بصاحبات الحكايات

وكان يصر أن يأخذنى معه أو يفاجئنى بتشريف إحداهن فى «القعدة».

كنت أمضى الوقت متأملًا لتلك العلاقة غير المتناغمة اجتماعيًّا.

فهو ابن أصول فعلًا، وتمتد جذور عائلته لأسماء تاريخية، إذ إن بعضًا من أفراد عائلته تُسمى بها أسماء شوارع مهمة فى القاهرة. إنهم فعلًا يملكون عزبة باسمهم فى محافظة المنيا، عروس الصعيد.

وكانت صديقاته لا تتعدى الواحدة فيهم الطبقة المتوسطة، عدا هدير التى كانت مثله، تنحدر من عائلة جنوبية شهيرة، بل وتماثله فى شذوذ الاختيار.

أمضينا سهرتنا بين صفائح البيرة وأحجار الحشيش، وقد شرفنا بالزيارة بعض نسائه صاحبات الحكايات.

وكانت ليلة رأس السنة، بكل بروتوكولاتها من ماء وهواء ونساء، وكل الأشياء التى تخطر على بالكم الموقر.



نسكافيه بالصراصير

يالها من ليلة!

ترنحت رافعًا رأسى الثقيلة عن وضع غير مريح للنوم.

الصداع يضرب رأسى بسادية.

توجهت للحمام مفرغًا مثانة متورمة من شرب ليترات من البيرة والفودكا الآي دى، إذ كانت اختراعًا جديدًا ممزوجًا بطعم الفواكه، بلا ذلك المرار الطافح به طعم البيرة البولي المذاق.

عرجت لغرفة النوم الوحيدة لأجدنها خالية بلا رواد، الكل ذهب وتركونى أغط فى نعاسى المتصدع.

دلفت إلى المطبخ، لأجد ورقة على رخام الطاولة.

(معلش يا تموره، كان لازم أطلع على بنى سويف الصبح،

مرضيتش أصحيك يا معلم.

البيت بيتك، قوم براحتك وابقى إقفل الباب وراك،

هكلمك على السهره النهارده.

الباشا عمر).

نظرت لسخان الماء الكهربى ومددت يدى لأهزه.

من الواضح أنه فارغ.

أريد حالًا كوبًا من القهوة سريعة التحضير (النسكافيه) إذ إن القهوة



العادية ثقيلة على معدتى فى الصباح. أووووف. أشعر بميوعة تتمطى داخل جدران معدتى، وبأن نبضات قلبى توشك على الخفوت من تأثير الكحول!

خلعته من قاعدته الموصلة بالكهرباء.

قربته من صنبور الماء. أوووف المياه مقطوعة. تساءلت: كيف تُقطع المياه عن حي راقٍ كالعجوزة؟! ربما بعض الإصلاحات.. ممم! وجدت زجاجة ماء بلاستيكية شكلها قديم نوعًا ما ومملوءة لنصفها فقط.. مم! لا بأس، حتى لو كانت ملوثة قليلًا فليطهرها الغليان. إننى أحتاج بشدة للقهوة، لن أستطيع نزول الشارع وأنا على هذه الحال من الغثيان والترنح.

ملأت منها السخان بعين زائغة ومزاج متعكر بالصداع.

أرجعته لقاعدته الكهربية.

ضغطت رز التسخين، وتوجهت لدولاب المطبخ باحثًا عن السكر وبرطمان النسكافيه. بين كل تلك النفايات المتراكمة فى كل ركن، احجار الشيشة الجافة وبقايا من ورق الالومنيوم وكميات من صناديق البيتزا الخالية علاوة عن زجاجات البيرة والفودكا التى قد تجدها تتدرحج من تلقاء نفسها.

حال المطبخ لا يسر، الفوضى هى السيد، وأنا جاهل تمامًا بمخابئه، من الواضح أن صديقى يعتمد على إحداهن فى التنظيف، ولكن طبعًا مادامت امرأة؛ فقد انشغلت بفراش عمر عن مطبخه وتركته كالخرابة. ها هما، منتظران فى رف مباشر لى، السكر والنسكافيه.

وجدت كوبًا شبه نظيف، أفرغت فيه ملعقتين من النسكافيه، ثم وضعت ملعقتين من السكر.

سمعت صوت فصل الكهرباء، إذ إن الماء وصل لدرجة الغليان.

أمسكت السخان (الكاتيل) من مقبضه، وصوبت بوزَه على الكوب.

وصببت الماء المغلى..

وأمام عينى أرى اندفاع الصراصير (المسلوقة الآن) تختلط بالسكر والنسكافيه الراسخين فى قاعدة الكوب لقد تفككت اجنحتها واطرافها بعيدا عن جسدها المدرع. ييييع فعلًا يييييييع!

تصلبت يداي وأنا أنظر بذهول لأشلائها وهى تدور مع سكب الماء الساخن، شعرت بعصارة حارقة تندفع صاعدة لأعلى من جراء تصور أننى قد لا ألمح المصيبة وأشرب من ذلك الكوب رشفاتى. واو.. يالها من فكرة إعلان جذابة!

أدرت جذعى للحوض الطافح بالأكواب والصحون المتسخة، والتى قد مر عليها قرنان على الأقل تنتظر يد المنظفة، تملكتني العصبية فطوحت يدى الممسكة بالسخان لأرش الحوض بالماء المغلى وجثث الصراصير المفككة. كنت مغتاظًا جداااااااااااا، شاعرًا بالقرف والغثيان!......

ثم سمعت الصرخة..

صرخة عاتية متألمة اهتزت لها جدران الشقة، وقد تهاوت بعض الصحون وأطقم المطبخ محدثة صوتًا فوضويًا عارمًا وهى ترتطم أرضًا من هول تلك الصرخة العارمة!



آع عاااا أأآه ه ه ه

انتفضت شراييني منتبهة بتعصب الأفاعى، لابد أن هذه الصرخة اخترقت إدراكى الخامل وطعنته فى مؤخرته بحربة ملتهبة، وأنا أرى تجسيدًا لكائن يصرخ وهو ممسك بـ... ما بين فخذيه بكلتا يديه.

لقد لمحته بعقلي فعلًا فى جزء من الثانية قبل ان اطوّح بالسخان، لقد كان جالسًا القرفصاء فوق حوض الصحون فى المطبخ، معالمه هزيلة بائسة، إنه أقرب ما يكون للعُريان من اللباس، وبدا لى أيضا كأنه أعمى، يموج طيفه بالألم والغضب المسعور، لقد رأيته يتقافز مطيحًا بكل ما يقابله فى طريقه.

خرج الكيان من المطبخ صارخًا كأنما النار تشتعل فى رأسه.

ثم اختفى، لكني أسمع صوته يبكى فى حرقة من يتحسس جراحه القاتلة، تاركًا إياى كتمثال شمع فى حرارة القيظ، إننى أذوب من الصدمة، أننى لا أستطيع الحركة من مكانى، بل إننى مسمر إلى الأرض بفعل التجمد والهلع.

ثم دوى صوت الأذان يعلن عن العصر.

اختفى الصوت، ولكن لالا، لقد بقى أثر خافت من النهنهة الباكية من استمرار الألم ونبضاته.

آه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه.

ثم يعوى مع صوت الأذان ككلب داست سيارة على قوائمه، لابد أن نبضات الألم متسارعة وتكوى أعضاءه الحساسة بلا هوادة.

صوت الأذان مع صوت البكاء يختلطان فى أذنى بهيبة وجزع كبير،



ذكرنى بجو العزاء الحار فى ميت محبوب.

ثم عاد ليتجسد أمامى متموجًا بالنقمة، لقد تجسد بشكل غير كامل، فهو لا دخان ولا خيال، بل هو أقرب للصورة التى تنطبع فى مخك بعد التحديق فى الضوء لوقت طويل، مع تفاصيل سيئة جدًّا فى الشكل العام، إذ يبدو كوجه نبت له جسد، أو كزاوية رؤية من وراء مخاوفك نفسها، أو انعكاس لآلاف المرايا فى آن واحد. إننى أرى من خلاله تفاصيل المكان، ولكنها مشوهة تفور بغضبه هو.

لكم حذرتني جدتى ـ رحمها الله من سكب الماء الساخن فجأة أو إلقاء الثقيل من الأشياء فجأة، وعندما استوضحتها قالت: بأنه قد يكون هناك جن أو روح موجودة فى المكان وقد أذاها بهذا الفعل، لكم سمعت من حوادث المس بسبب ذلك أيضًا وفجأة بدأ يزوم وهو يقترب منى حيث باب المطبخ! هل قررت الانفصال عن آلامك لتذبحني أيها المسخ؟!

فجأة ذهب عنى الخوف وحل محله الانسحاق، وتراجعت بظهرى وعينى لا تبارح الحيّز الذى تجسد فيه. إن التبول اللا إرادى لهو نعمة فى تلك اللحظات، أنا فى موقف لا أحسد عليه، فى عز النهار يهاجمنى جن غاضب احترق جهازه الـ... التناسلى بسببى أنا!

وأنا....

.....



رأس سنة ١٩٨٥ بعمارة فى وسط البلد..

كانت السيدتان تتسامران وتستعدان للقاء العام الجديد ببعض الحلوى والمقرمشات، ثمة زينة ورقية ملونة معلقة بين النجفة العتيقة وبين بيت الستائر أعلى النافذة المطلة على الشارع الرئيسى، مجرد احتفال فقير متوارى عن أعين الرافضين فكرة الكريسماس من جيرانهم المتدينين، بينما يلعب الأبناء على مقربة منهما أمام باب الشقة احتفالا بقدوم العام الجديد وقد تلفحو بالملابس الصوفية الثقيلة اللائقة ببرد ديسمبر، التلفزيون وعد المشاهدين بمسرحية (الهمجى) لمحمد صبحى والتى استعد الناس بها للقاء عامهم الجديد. كانت السيدتان تتنازعان الشكوى فيما بينهما، وتتباريان أيهن أكثر تعاسة من الأخرى، الأولى هي (بهيجة)، فى نهاية العقد الثالث من العمر، هادئة الملامح، مكعبة الجمجمة، يتناثر على شعرها الخفيف المصبوغ بالذهبى شعيرات حمراء وبيضاء من جراء علميات الصبغة المتتالية بالطريقة المنزلية، بيضاء باهتة اللون صفراء التصرفات حتى تكاد تراها على وشك الجنون طوال الوقت، كانت عصبية نافدة الصبر، مهزوزة الشخصية، لا تجلس على وضع واحد لأكثر من دقيقتين، دائمًا ما تغير من وضع جلوسها، تترك لك انطباعًا بأنها على وشك الهروب إلى حيث لا تدرى، أرملة هى منذ ما يقرب من العامين، استقرت أخيرًا بشقة أبيها الراحل بعدما صفّت تركتها، وعادت هى وابنتها الوحيدة لتعيش فى وسط البلد فى شقة الأسرة التى أضحت مهجورة منذ رحيل الأب، ابنتها (سارة) فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، رائعة التفاصيل، تشبه الأب الراحل فى شعرها الأسود الطويل وحاجبيها المقوسين وجسدها المائل للبدانة بسبب إفراط (بهيجة) فى العناية الغذائية المركزة، أما السيدة الأخرى فهى (ثريا)، وهى مثال للمرأة «القارحة»،

التى لا يسكت لسانها أبدًا، وتتمتع بروح دعابة وبذاءة محببة لزوم مجالس النساء الخاليات من الالتزام الزواجى، مطلقة من بعلين متتاليين، أنجبت منها ابنها الأكبر (رشاد) وهو مراهق على أعتاب السادسة عشرة مفرط الطول يتدلى ساعداه الى جانبه حتى لتحسبه سيمشى على اربع، يهيم حبا فى (سارة)، يكتب فيها أشعارًا ورسائل لن تراها أبدًا، اما (مها) وهى فى مثل عمر (سارة) ابنة ثريا من طليقها الثانى. كانت المرأتان تثرثران فيما بينهما فى أمور الأنوثة الضائعة على اعتاب اليأس، وتسترجعان معًا ذكريات الرجال الراحلين عن حياتهن، لم تكن (سارة) ابنة بهيجة على قدر من الطفولة، بل كانت عاقلة مهذبة تسر الناظرين، وتتمتع بتفوق بارز، ولسيان طليق بالمفردات الدينية والأناشيد، يتيمة هى، ولكن الأم استحوذت على كل نوافذ الحرمان عندها بالالتصاق المناسب لقلقها المزمن، اعتبرتها (بهيجة) تعويضًا مناسبًا لسنوات العمر الباقية التى ستقضيها تحلم بزفافها على ابن الحلال، كانت هى الأخرى بكرية أبيها الراحل وآخر من تزوج من إخوتها بعدما أخذت دور الأم مبكرًا فى حياة أشقائها. كانت الشقة الواقعة فى الدور الخامس من العمارة فسيحة بما يليق بمبانى الخمسينيات، أربع غرف وصالة كبيرة، وتطل على شارعين كبيرين من شوارع وسط البلد، كانت شقتها تحمل ذكريات أسرتها بكل تفاصيل الغابر من الازمان، وخصوصًا أباها الراحل، والذى كان يعمل فى وزارة المعارف وكيلا ثان، كانت تهيم به حبًّا وتقديرًا. استقبل إخوتها على مضض مستتر لأنهم كانوا بصدد تصفيتها وبيعها بسعر مناسب لشقة كبيرة فى وسط العاصمة، لكنهم تقبلوا استقرارها فى شقة والدهم لأنها كانت الكبرى واعتبروها أمًّا لهم، خصوصًا وأن كل واحد فيهم مستقل بشقته فى أطراف المدينة الهائلة. نعود للأطفال الذين يلعبون أمام باب الشقة، أو كما نسميها «بسطة السلم» الفسيحة. كان باب



المصعد يحتل الجانب الأيسر من باب الشقة، وللأسف، فقد كُسر زجاجه أثناء عملية نقل المتاع لأحد الجيران، فبدا المستطيل عاريًا من الزجاج، فارغًا كفوهة سوداء ترى منه تردد المصعد صعودا وهبوطا، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلًا:

ـ رشاد رشاد.. ممكن تنزل تجيب كيسين (كاراتيه) ليا ولـ (سارة)؟

ارتبك رشاد بمجرد ما إن سمع اسم الأخيرة، ولكنه أبى بكل شمم، فهو يرى نفسه رجلًا ولا يريد أبدًا أن يكون مجرد صبى يستجيب لمطالب أخته الصغرى، فأجابها بشاربه الخفيف وجسده المنثنى على نفسه وحبوب الشباب توسم وجهه بغباء وتوحد

ـ وأنا مالى متنزلو انتو.

ـ إحنا بالليل يا رشاد، ماما قالت مافيش بنات تنزل بالليل و... وعشان خاطر سارة نِفسها تاكل البوزو.

نظر رشاد لسارة نظرة محب ولهان، ووافق على مضض، واستدعى المصعد لينزل للبقال أسفل العمارة ويأتى بأكياس المقرمشات الصفراء الغارقة فى الزيت ومكسبات الطعم.

لقد تأخر رشاد اكثر من المعتاد، سمعاه وهو يضحك مع صديقه فى الدور الأرضى، علت عقيرة أخته تناديه بإصرار أن يصعد لهما، لم يرد عليها، فطلبت (مها) من (سارة) أن تناديه لعله يستجيب ويصعد. اضطرت سارة إلى أن تدخل رأسها عبر نافذة المصعد المكسورة لتناديه مباشرة حتى يسمع.

ـرشاد يا رشاد... هات الكراتيه يا رشاد وابقى انزل تانى.. رشاااااد يا...



قبل أن ينزل المصعد من أعلى فى رحلة الهبوط قاضمًا رأسها الجميل، وفاصلًا إياه عن جسدها، تُرى هل شعرت بالألم يا سارة؟!

.....

نورت التخشيبة

الكائن يتموج بسخط وألم ويتقدم نحوى، جامعًا قبضتيه بين فخذيه، بينما يتصاعد ما يشبه الدخان من أسفل يديه.

يا إلهى.. ألهذا الحد يتعذب؟!

وأنا واقف على باب المطبخ شاعرًا بانحسار سلامتى وأمنى للأبد.

كان يزوم ويئن ويجمجم ويدمدم.

فجأة توقف، فجأة تلاشى!

استعدت من روعى شيئًا تافهًا وجريت للصالة كالملسوع.

ووجدتنى أخطف مفاتيح سيارتى (التويوتا) المنبسطة أسفل العمارة.

وأنزل الأربعة أدوار كما البرتقالة متدحرجًا على السلم لا أعلم كيف نزلت!

فتحت باب سيارتى وأنا أتلفت حولى كالمجانين، بينما تزحف عيون المارة نحو ذلك الشاب الذى يتحرك كما لو كانت شياطين الظهيرة تجرى وراءه.

فمظهرى متضارب بين رثاثة وإهمال النوم، وبين ذعرى العاتى مما رأيته يتوعدنى وهو يتألم حسرة على سلق الـ... خاصته.



أدرت الموتور وانتظرت ثوانى حتى تستعد، فسيارتى مثل الزورق.

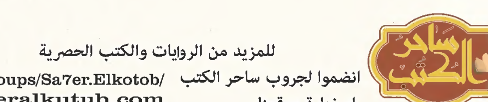
طويلة وعريضة، ينقصها صالون مذهب حتى يملأها من الداخل، فهى من الطراز الخليجى «المرحرح»، ودومًا أجد صعوبة فى ركنها لضخامتها، ولكننى أحبها جدًّا، فهى راسخة قوية، تزن طنين على الأقل، وتخبرنى دومًا بأنها حصن أمان لفقر خبرتى فى القيادة، فأنا أقود السيارات لكى تُقلنى من مكان لمكان، وليس لأقوم بكل ما يتركبه سائقو السيارات فى شوارع القاهرة المتلوية كالديدان فى وعاء الجبن القديم، احسب ان هذه الثقة مصدرها مصير اسود وان السرعة هى فعلا من الشيطان.

قفزت بى السيارة كعادتها، وكسرت لليمين كثيرًا ضاربًا سيارة أخرى، لدرجة أجبرتها لتقفز على الرصيف، كانت سيارة من فئة الفيات ١٢٨ والتى كانت تعج بها شوارعنا قبل موجة التقسيط والتجديد التى انهالت على جيوب ومدخرات المصريين بضرائب مضاعفة، وتشغيل لمنظومة المرور الواهنة فى مصر.

كان يقودها رجل ثلاثينى، أشعث نحيف، وبجانبه امرأة هائلة الحجم تفوقه مرتين أو ثلاثًا على الاقل، ربما تفوق فى ضخامتها ضخامة السيارة نفسها، أو هكذا بدا لى لكثافة وجودها إلى جوار السائق.

شهقت المرأة وضربت صدرها الهائل براحتيها، وأطلقت خوارًا جديرا بالمواشى، ثم جاهدت خارجة من سيارتها لتيمم شطرها نحوي، قاذفة السم اللزج الحارق من حلقها كتنين كومودو وهو يهاجم المصورين الفضوليين.

- إنت يابن الوس.. ه فاكر نفسك بتسوق فى أوضة النوم بتاعه... أمك؟!



نظرت لها بهلع، وقبل أن أخرج شارحًا لها وجهة نظرى وتأسفى لما حدث، كانت قد وصلت لباب سيارتى المغلق، ومدت ذراعيها اللحيمتين، جاذبة إياى من ياقة القميص بكل غضب وتمكن، يالها من عاتية! فالمرأة كانت تلبس عباءة سوداء مطرزة بعنف الحروب الأهلية، وتضع مكياجًا فاقعًا مقتحمًا ممزوجًا بملامحها الشرسة، ويقل طولها عن المترين بقليل.

مدت يديها وجذبتنى كما تجذب قطك الأليف من تحت الفراش.

ساعدتها فى الخروج كى لا تمزقني من نافذة باب السيارة.

وتمتمتُ معتذرًا بكل الطرق، وهى لا تسمع ولا تستجيب انا الذى اسمع هديرها الداخلى الفوار بالغضب والعدوانية، كأن موتورها الداخلى يهدر بأعلى طاقة له.

ـ والنبى لاحبسك، عاجبك كده؟ أجيب تمن التصليح منين يا مهتوك؟

حانت منى التفاتة للسائق رفيقها، فوجدته ساكنًا يراقب طحنها لكرامتى بصمت وملل، وكأن المرأة تؤدى «نمرة» فى سيرك كل ليلة أمامه.

التفت للمرأة الهائلة وأنا بين براثنها الرخوة الثقيلة قائلًا:

ـ يا مدام حضرتك مش كده.. اللى إنتى عايزاه هعملهولك، بس بلاش تمدى إيدك.

نظرت المرأة لى وقد تكورت مقلتاها، ولاحت منها لمعة حيوانية كأننى أخطف أولادها من كهفها المستور. كانت على قدر غير عادى من العدائية، ولا أعرف لها سببًا، خصوصًا وأننى عرضت عليها تعويضًا، وهى تواصل رجرجتى كما يفعل الطفل مع زجاجة الكولا، وكأنها تتوقع أن يخرج من فمى فقاقيع الصودا الفوارة.



هو مجرد تصادم بسيط فى شارع غير قابل لأى سرعة، كل ما فى الأمر أن سيارتى «التويوتا» تفوق سيارتها، ومن ثم كانت الدفعة قوية بعض الشيء لا أكثر ولا أقل، وأنا على اتم استعداد لدفع المصاريف، ولكنها وكأنها ترغب فى «بعزقة» كرامتى على أسفلت الشارع.

انطلقت تقفز فوقى وهى تقبض على قميصى وكأنى أغتصبتها عنوة فى ازدحام السوق، ولسانها لا يكف عن مساعدة يديها فى تحطيم كرامتى.

تكأكأ الناس كالدجاج حولنا تشاهد وتستمتع بهذا العرض المجانى.

والغريب أن أحدًا منهم أيضًا لم يتدخل، بل كانوا يزيدون العداوة بكلمات أقل ما يقال عنها أنها سلبية، أو لأن المعتدى عليه هو رجل وليس امرأة كما المعتاد. (يلعن أبو اللى ركبك عربيه ـ دى أكيد أمه اللى جايبهاله... جرجروه على القسم المهتوك ده شكله سكران... لا لا ده مبرشم بعيد عنك).

تعصبت وأمسكت بساعد المرأة لأبعدها عنى، لأجدها تتلاحم معى أكثر وترمى بنفسها أرضًا جاذبة إياى معها لأسفل حيث أسفلت الطريق.

الموقف يزداد سوءًا، والناس لا تفعل سوى إضرام النار فى القش أكثر وأكثر

قبل أن يصل شاويش قسم العجوزة لساحة المعركة منتفخًا بالغلّ والتنمر، ليجدنى تحت المرأة ممزق القميص وقد انزلق بنطالى الجينز لأسفل أكثر من اللازم.

مد يده لها فقامت من فوقى معتمدة على ساعد الشاويش، بدت كمصارع انتهى من خصمه فى الحلبة بضربة قاضية، ثم وياللعجب! اندفعت من عينيها دموع الزواحف قائلة فى تذلل ومسكنة:



ـ الواد ده خبط العربيه ولسه بكلمه لاقيته بيقوللى كلام قبيح ياخويا، وكان هيقلعلى البنطلون (المصرى لازم يحط التاتش بتاعه فى أى اتهام).

وجدت الشاويش وهو رجل خمسينى «قارح»، ينظر لى بذات النظرة العدائية:

ـ قوم معايا يابن العرص.. فاكر نفسك راجل ياض، عايز تقلعلها البنطلون؟! طب أنا هَرميك عند اللى هيقلعوك اللباس.

نظرت إليه برعب غير فاهم، وقبل أن أتكلم وجدته يسحبنى من قفاي، بينما الناس تشاهد تلك الزفة باستمتاع عجيب، ليدخلنى القسم، والذى هو لحسن الحظ أو سوئه، فى نفس الشارع.

دخلت قسم العجوزة الراقى بزفتى المكونة من المرأة والشاويش ورفيقها، وبعض الناس الذين يريدون أن يدلوا بدلوهم ضدى طبعًا، أعتقد أن كلمة «قسم» تجيء من المعنى الخاص بالاقتسام، فكل شىء هناك يقتسم معك شيئًا، هم شركاء مزعجون فى كل شىء يخصك، فى مستقبلك وكرامتك وراحتك واستقلالك وآدميتك ووقتك ومصالحك، نقف جميعًا أمام الضابط النوبتجي، وهو شاب برتبة نقيب، يظهر الملل الشديد على محياه المكفهر، لماذا نجد الضباط دومًا نافرى العروق حقيرى التعامل هنا فى مصر؟! فنجد الواحد منهم وقد انبعج بالكبرياء المقرون بالبلطجة، وتحول لتمساح يريد ابتلاعك لمجرد شعوره بالملل، الكبت يطل ظاهرًا من سحنته الغارقة فى تنفيذ الأوامر، لابد أنه دومًا على وشك الانفجار!

وقبل أن أفتح فمى لأشرح أى شىء، قاطعنى الشاويش بدفعة جانبية قاسية أخرستنى، وقال بلهجة تقريرية:



ـ حالة تحرش يا باشا من الواد ده للست المحترمه دى، وحاول يقلعلها البنطلون فى الشارع وشتمها، وكان مرمى (فوقها) فى الشارع عاوز...

نظر لى الضابط، ليجد بنطالى فعلًا نازلًا عن وسطى وقد برز لباسى الداخلى الأسود بالكامل، بينما تنتشر سحجات وأتربة عالقة بوجهى، وشعر مهوش، وعين قلقة بفعل جر وسحل تلك الجاموسة ذات العباءة.

ـ إرميه فى الحجز وخد أقوال الست.

كانت هذه كلمة الضابط، قالها بكل كراهية منهيًا الموضوع.

ـ يافندم أنا متعرضتلهاش صدقنى.

ـ إخررررررس ياااااد.

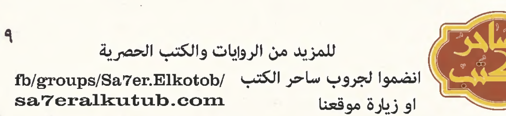
قالها الضابط وهو يقوم ويتقدم نحوى وقد لمعت عيناه بشراسة وعدوانية مقيتة هو الآخر، وكأننى زوج أمه الذى اغتصب حقوقه وأجبر أمه إلى رميه فى الملجأ.

ـ مسمعش حسك يا بن المره.

قالها فى فخر وتكمن لغوي يثير الحسد، أعرف أنهم يتلقون «كورسًا» مكثفًا فى التعامل مع المجرمين، بأن يتكلموا لغتهم، ويسبوا مثلهم، بل وأكثر منهم طبعًا لتحافظ الشرطة على (هَيبتها).

جرنى الشاويش لغرفة الحجز وأنا مذهول، محاولًا لمّ شتات نفسى وملابسى التى تبعثرت ككرامتى!

وقبل نزولى للحجز، جردونى من كل متعلقاتى، من نقود، ومفاتيح، ومحفظة، وهاتف محمول، لأجد نفسى كما يقولون ـ على الأسفلت ـ مع



مجموعة من المجرمين، والبلطجية وتجار المخدرات، وكل وارد المنطقة من مشغلى آلة الداخلية العملاقة والتى هى من دونهم بلا فائدة.

إنتحيت جانبًا أجمع شتات نفسى وهزيمتى الساحقة وإهانتى البليغة، صحيح أننى من معتادي الشغب، وأمتلك فى رصيدى الأمنى قضايا ومخالفات، وبعض المحاضر لزوم العمل فى مجالى، ولكن الأمر كان يخضع وقتها للإجراءات، أما الآن، فأنا تحت رحمتهم بالكامل، الساعة تقترب من الخامسة مساءً. رباه! إننى غير مصدق لما قد حدث فى النصف ساعة الفائتة فقط، بعد أن تعودت عيونى على ضوء التخشيبة الخافت الصامت، فحضور نزيل جديد يكون دومًا مشمولًا بالترقب من السابقين، ويكون محط أنظار من هم أقدم على الإطلاق، ويسمونهم (أصحاب المراية) والمراية هى الحائط المقابل لباب التخشيبة، والذى يقطن تحته طبقة البلطجية وأقدم النزلاء، أو «الكريمة» بمعنى أصح كريمة مجتمع التخشيبة، أما الباقون، ففيهم ما يزيد عن أربعين أو خمسين إنسانًا يفترشون أرض الغرفة بالكامل، وينامون باسترخاء كالقطط فى الخرائب، نظراتهم فيها لمعان الإثارة لمعرفة حكاية الوارد الجديد.

وجدت شابًّا بادى الشراسة والوقاحة، يترك مكانه فى المراية ويقترب منى، وينظر فى عينى بكل تسلط وبلطجة، وقد فاحت رائحة العرق من تحت إبطيه مسيلة لدموع الناس، نحيف كالبرص، موسوم بندبة تأخذ من عند أذنه إلى زاوية، مع فمه شبه الخالى من الأسنان، لاح لى فى الثلاثين أو أكثر من العمر، غائم النظرات، وحادثنى، بينما تتدلى نصف سيجارة مشتعلة من بين شفتيه تتحرك كمؤشر مع كلماته.

ـ آت عَشَه كنيه (يقصد هات عشره جنيه).



تبًا لمخارج ألفاظك يا وغد، وتبًا لرائحتك النشادرية!

- ....

- بكولك آت عشره كنيه عشان اللنده والفنينييك (يقصد بقولك هات عشره جنيه عشان إحنا بنلم تمن اللمبه اللى منوره دى وتمن إزازة الفينيك).

نظرت له، فوجدت جدية فى التعبير وحزمًا:

- الفلوس خدوها منى فوق يا صاحبى.

حاولت بكل قوة أن أتقمص اللهجة، ولكنى فشلت فشلًا ذريعًا، فأطلق الرجل «شَخرة» متحشرجة خرجت من أنفه بعدما تشنج للوراء صانعًا وجه كلب مسعور، ليكمل صورته الجميلة قائلًا:

- خخخخخخخخخخخ وحياة امك؟؟ طب إترمى هنا جنب الكنيف (دورة مياه التخشيبة).

لم يكتفِ طبعًا، بل هوى على صدغى بصفعة مؤلمة، طاعنًا المتبقى من كرامتى فى مقتل.

وجدتنى أنقض عليه عاصرًا رقبته بين يدى، وجررته ساحلًا إياه بعنف وعصبية متصلبة، لقد انعكس مزاجى فى صراعى معه، كان لينًا رشيقًا كالعرسة، فلم يتحمل وزنى المضاعف بالغضب، وتجمهر باقى نزلاء الحجز ليفرقوا بيننا، مندهشين من شراستى فى المقابل، بل تطوع أكثرهم بالصفع والركل الموجه لى شخصيًا، لم أعرف من أى اتجاه تأتينى الصفعات ولا الركلات كل ما ارعفه انها مركزة غادرة، فقد كنت مرتميًا أتمرغ فوق الرجل وأنا أعتصر رقبته بيدى. لقد تغير لونه للأصفر وبان عليه



الاحتضار خنقًا بسببى، إلى أن تمكن النزلاء منى ورفعونى عنه، دافعين إياى للحائط ليتمكنوا من تشنجى العاتى، فأنا فى الغضب أصير شيطانًا فعلًا، وتتقد عيناى بجمر لاسع، انا لست انا حين الغضب ابدا، لكن لماذا الكل عدوانى جدًّا معى ويكرهنى بلا سبب؟!

انفتح باب الحجز منفجرًا ليدخل أمين شرطة:

- جرى إيه يا ولاد المره؟ مالكم؟

- الواد الجديد ياباشا مسك فى (بيطه) وضربه وجرجره على الأرض وكان هيموته.

ينظر لى أمين الشرطة بذات نفس النظرة العدائية.

- إيه يا دكر.. محدش مالي عينك ولَّا إيه؟ تحب أقلعك هدومك وأخليهم ي....

نفس النظرة الشرسة الخبيثة فى عينه، بل تقدم منى وهو يخلع هراواته الثقيلة ذات النهاية المنتفخة، آثرت السلامة وأظهرت خنوعًا زائفًا، أريد تقليص أعدائى، فلم أعلق بل أشرت إليه برأسى أن «حاضر» وآسف على ما بدر منى.

وانحسرت فى الركن الملاصق لدورة المياه كممسحة قديمة، فانصرف الأمين متوعدًا إياى بالويل لو سمع أى جلبة تخصنى مرة أخرى.

الساعه السادسة والنصف.. مساء

الصداع يلعب «استغمايه» تحت جبينى، لست قادرًا على تركيز أفكارى نهائيًّا، أسمع كلام النزلاء بصدى صوت مؤلم، ولا أعرف أصلًا كيف جئت لهذا المكان!



يالكِ من نحس يا رأس السنة!

أم هو نحس الكحول والحشيش ودينا التى تركتها تفتك بي؟!

لابد أنه عقاب إلهى فورى على ارتكابى تلك التصرفات المستهترة والتى كانت بالفعل جديدة عليّ، فأنا مشهور بالاستقامة والتحفظ، ولكن فى الآونة الأخيرة بت مستهترًا، أسهر كل ليلة فى ماخور غير الآخر.

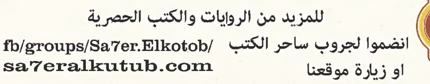
الوقت يمر، وكأن ترسًا صدئًا يعاند ترسًا صدئًا آخر فى قعر محركي، مصدرًا صريرًا مؤلمًا لجذور أعصابى، إننى أنهار تدريجيًّا ولا سبيل لأى تحسن.

والنار الداخلية تتأجج فى صدرى، وقناتى الهضمية كما اللظى على جرح مفتوح، أسمع من بعيد أذان العشاء، أستغفرك يارب على ما فعلت ان الخمر تورث لزوجة مرة فى بلعومى، إذن الساعة تعدت الثامنة، ولكنها فى اعتقادى متجمدة عند نقطة الألم لا تبرحها!

أشعر ببرد غير عادى ويبوسة تحتل مفاصلى، اقتربت الساعة من الحادية عشرة ليلًا وأنا فى أسوأ حال وأخفض نفسية.

الكل ملفوف فى بطانيته ويغط فى نوم عميق، وصوت شخيرهم يتناغم مع جدران الحبس الرمادية، العتمة أيضًا باهتة بعدما أطفأوا النور، زر النور من خارج التخشيبة يتحكم فيه الحراس، ورائحة العرق الممزوجة بدخان السجائر وأريج دورة المياه الملاصق ومع برودة يناير يصنعون لوحة من تعاسة محققة.

ان التصاقى بجداردورة المياه الرطب يشعرني بمبارد البرد تنخر فى عمودى الفقرى، لقد اكتشفت نفسى أرتعش رغمًا عنى، حاولت التماسك،



فصعقتنى رعدة طويلة التردد، لقد نسيت الجاكيت الجلدى عند عمر فى شقته، إننى إشعر بنقرات البرد الإبرية فوق أنفى وأطراف أصابعى.

فجأة ازدادت البرودة وتحولت لصقيع، أصبح أنفى مدخنة، ينفث البخار كما لو كنا فى سيبريا، بل إننى أشعر أن الجليد بدأ فى الزحف على جسدى.... ثم.. ثم.. ثم تكون تجسدًا مريعًا فى المكان، كان التجسد يشبه المخاض، إذ إننى أرى الكائن يخرج من حيز رخو غير مرئى إلى حيث الحيز المرئى نفسه، كما تخرج أنت من حافلة مزدحمة من باب النزول، كنت أراه يعانى ويجاهد فى التجسد، ثم استوى منحنى الظهر، دميمًا طاعنًا فى السن مهدما كحذاء فى فم كلب، كان جسده يوحى بأنه شبه ذائب فى الماء. بل كنت ارى ان ثمة ثغورا ونخاريب تنتشر على صفحة جلده المتهدل كأنها أعشاش النمل المنترة على حائط منزلك.

هو نفس الكائن، يمسك بين فخذيه ويصرخ بصمت، ونهنهته تصل فورًا إلى ثنايا إدراكى، ثم ينظر لأعلى ويحرك رأسه ويتكلم، بل إنه كان يشير إلي بطريقة عمياء، إذ يمد أصبعه إلى نقطة قريبة منى وليس حيث أنا بالضبط، ألم أقل لكم إنه بدا لى وكأنه أعمى؟ كان تجسيدًا لعجوز بشع الخلقة بلا أنف تقريبًا، وتمتد أذناه مفرودة بجانب وجهه كأنها مفرودة عند الكواء، قصيرًا كان بساقين وذراعين مقوستين، كادوا ان يصنعون دائرة، كيانًا هلاميا معوقًا على الأرحج بشع التفاصيل، غائر العينين بلا مقلة، وفمه بلا أسنان، نحيف الجسد متغضنًا يشع برودة، ربما هو مصدر تلك البرودة غير العادية!

لم أشعر بفزع، ربما لأننى كنت منهكًا تمامًا، وفى حالة إغماء صريحة مع تفصيل واحد، هو أننى مفتوح العينين فقط، عيونى نائمة بالفعل، ولكنها



أيضًا مفتوحة ترى الهول إذ يقف بالقرب منى، انزحت جانبًا لألتصق بأقرب النائمين إلىَّ، وكان رجلًا يلتف ببطانية كالحة تفوح بالعطن اللائق وكأنه مُكفَّن ينتظر المراسم، التصقت به وأنا أحاول دفن رأسى فى طيات غطائه، فانزعج الملتف، واعترت جسده هزة رفض، ولكنى بلا خيار، فازددت به التصاقًا، أزاح الغطاء عن رأسه، فاكتشفت أننى ألتصق به من الخلف، ثم.. ثم.. ثم دارت عنقه بزاوية مستقيمة مستحيلة لأجده يحملق فىَّ بعيون مغلقة نائمة، ووجه مجدور، وأنف أفطس، وشفاه غليظة سوداء، كان يمارس الغطيط والشخير بنفس الحماس، ثم وجدته يمد شفتيه ويقترب من وجهى، ارتعدت لفكرة أنه يريد قبلة مثلا، لكنى اكتشفت أنه يتشممنى، كما يفعل الكلب أو القط عندما يستكشف طعامًا غريبًا! تجمدت فى وضع الحاضن له من الخلف، وابتعدت بعنقى فقط عن مجال شفتيه، عادت عنقه تنظر للأمام مرة أخرى مستمرا فى غطيطه. أغمضت عينى أنا الآخر لأتقمص أننى مثل الباقين وأذوب بينهم، علَّ هذا الكيان الأعمى لا يتعرفنى! وأخيرًا غلبنى النعاس أو الإغماء أيهما أقرب.

.....

كان نومًا أسود شائكًا، باردًا بلا أحلام، فقط رعدات طويلة الموجة بطيئة، كأنها غيبوبة، رحمة جاءتنى أخيرًا لتريحنى من الرعب والتفتت.

وبين غفوة وغفوة، كنت أبصر من تحت جفنىَّ هذا الجن يعبث بالنائمين ويتحسسهم ويتشممهم.

وعلى الساعة الثالثة صباحًا فتحت عينىَّ على ارتعاشة تغزو جسدى من شدة البرد، صُعقت تمامًا وأنا أرى معظم أجساد النزلاء قد تكومت

فى وسط الغرفة، مكونة ما يشبه كومة الغسيل الوسخ، كان تلا طافحا من نزلاء التخشيبة، غارقون فى النعاس المتحشرج.

وهذا الكائن يمارس الفحص لباقى الأجساد، وكلما انتهى من واحد ألقاه إلى تلك الكومة البشرية، وكأن الجسد بلا وزن، الغريب أن الكل نيام، لا يشعرون بتلك المعاملة التى فاقت أعتى المعتقلات قسوة.

تكورت أكثر محاولًا الدخول لأسفل جسد زميلى النائم الذعر واليأس ملازمين لقلبى، أغمضت عينى بالإجبار كيلا اشعر باقترابه مني. الكل فوق بعضهم، كأنهم جثث تالفة فى مشرحة مهجورة، أو مقبرة جماعية، يمارسون الغطيط المؤلم والحشرجة والتأوهات الخافتة من ضغط اجسادهم على بعض، كأنه صوت أرواحهم تئن فى غياهب جهنم. لا لا لا.. إن الكائن يقترب منى، إنه الآن يتفحص جسد جارى الذى التقصت به، مازال يصدر أنينًا بين فينة وأخرى تؤصل ألمه من الاحتراق، يتحسس ما بين ساقيه المقوستين. هل أصرخ، هل أبتعد فجأة؟ سينتبه حتمًا ويقفز فوقى مباشرة، إنه بادى الشراسة والعدائية، ولن يتورع فى... لا أعرف، ولكنه سيكون عقابًا على الأقل من جنس العمل، هكذا تدافعت أفكارى السوداء لرأسى الموشكة على الانفجار، ثم... ثم... ثم رأيته بأم عينى يرفع جسد جارى ويلقيه فوق الكومة ويتحسس طريقه بقدميه وأطراف أصابعه ليصل إلى حيث..... جسدى المرتعد.

.....

قبل أن تصل أنامله لجسدى، سمعت جلبة صادرة من الخارج، لمحت الكيان يدير رأسه حيث الباب المعدنى يتشمم الوضع ككلب مسعور، ومن ثم اختفى، تلاشى، ذاب.. الحمد لله، الحمد لله.



وقبل أن يُفتح الباب تهاوت كومة الأجساد مبعثرة النزلاء على أرض التخشيبة، ومع صوت فتح باب التخشيبة المعدنى الصارخ قاموا مسرعين ليتراصوا لصق الجدران، وكل واحد فيهم يتحسس مفاصله وعنقه بألم وهم لا يعرفون مصدر ألمهم، إلى أن دخل رجلان برتبة أمين شرطة وشاويش، ويلقيان باثنين آخرين ويخرجان دون الالتفات لأحد من الأساس.

لا أفكر سوى بكل هذا النحس.

سيارتى مركونة فى وسط الشارع، وأنا محبوس فى التخشيبة، ويطاردنى جن حرقت جهازه التناسلى عن دون قصد.

فهل من جديد؟!

..

الساعة تقترب من الثالثة ظهرًا وقد رجع كل من عُرض على النيابة الصباحية، وازدحمت الغرفة، واختنق الهواء مشبعًا بأكسيد الكربون الناتج من تنفس كل هؤلاء، ناهيك عن السجائر ورائحة البول النشادرية.

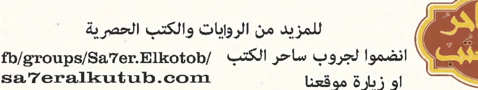
وأنا مازلت ملقى كالجوال بلا أى طعام أو شربة ماء تطفئ اللهيب، ومزاجى تعمق واندمج مع الحضيض، والكل يعاملنى كحيوان مسعور بكل كراهية وعداوة واضطهاد.

.....

أسمع باب الحجز يُفتح على الساعة الرابعة.

ـ فين تامر؟

أقوم واقفًا وأنا لا أصدق، لينظر الأمين بشراسة الجياع.



- إنت تبع (عُمر) باشا؟

انتظرت لبرهة لأجمع تركيزى من صندوق القمامة.

- أيوه أنا تبعه.

- طب تعالى معايا.

جريت خارجًا معه، أكاد ألثم قدميه، متصورًا أنه المنقذ الحقيقى لى.

لفحنى هواء الخارج البارد وأنا أشاهد صديقى عمر واقفًا مع الضابط النوبتجى بكل كبرياء، لطالما كنت أسمع أن وكيل النيابة أشد فتكًا من الضابط، وأن بينهما دومًا صراعًا طبقيًّا خفيًّا.

نظر إلىَّ عمر بصرامة ثم قال: أيوه هو ده (تامر).

ثم ساقنى لغرفة الأمانات لأسترد كل متعلقاتى وأخرج وراءه صامتًا.

....

- إيه يابنى، البواب بتاع العماره لقى العربيه مرميه فى وسط الشارع، ولما سأل قالوله إنك محبوس هنا راح متصل بيا.

- ....

- هو إيه اللى حصل؟

نظرت لصديقى صامتًا، ثم توجهت لسيارتى صامتًا وأدرتها صامتًا وهو ينظر إلىَّ بدهشة.

- أنا تعبان جدًّا ولازم أروح البيت.



ـ طب يابنى ما تيجى نطلع عندى أقرب.

لا.. قلتها صارخًا.

ـ لأ مش هطلع عندك.

نظر إلىَّ بدهشة أكبر وابتسم قائلًا:

ـ طيب متزقش، أنا هطلع أنام دلوقتى وهاجيلك بالليل نرغى، إنت شكلك واخد علقه، اوعى يكون حد اتحرش بيك فى التخشيبة.

ثم ضحك وحده، وراقبنى حتى خرجت من شارع نوال بالعجوزة.

.....

إلى وسط البلد:

استأجرت شقتى تلك بعد تجربتى الشنيعة فى (شقة الهرم).

فى عام ١٩٩٩ بالضبط.

لم أخرج من تجربة (شقة الهرم) سليمًا تمامًا، كنت كالعائد من عملية جراحية دقيقة، تمتد فترة نقاهتى لسنوات من الاندماج بين الناس مرة أخرى، وبالطبع كانت هذه النقاهة الطويلة بها فترات انتكاسة حتمية بسبب ما تورطت به مرة أخرى.

وعلى رأى (أنيس منصور) ـ رحمه الله أن شيئًا ما يبقى، شيئًا ما يعلق بذاتك ويبقى هناك للأبد، لا تستطيع تصنيفه، ولكنك تشمه أحيانًا هائجًا فى خياشيمك ليلهب ذكرى معينة، أو تسمعه كالهسيس بعقلك، يهمس







لك بأشياء قديمة حدثت، أو طافيا فى سائل ذاكرتك يستجدى شاطئًا لوعيك ليرسو عليه، نومى أبدًا أبدًا لم يخلُ من زيارات وأحداث وطلاسم وأصوات وظلام!

فأنا أعرف معنى (المَسّ) وتذوقته فى تجربة سابقة فى شقتى بالهرم، وأضفت لنفسى خبرة جبرية تجعلنى أشعر بتلك الرائحة أو هذا التذوق، وأكون متجنيًا إن قلت إن حادثة (الهرم) مرت مرور الكرام علىَّ، لقد تركت ندوبًا خشنة فى قاع إدراكى، أنت لا ترى شبحًا كل يوم، ولا تتلامس مع الروحانيات المفزعة فى يومك العادى، ولكنك فعلًا تتحول لسفير أو مترجم، تتلقى الإشارات وتترجمها حسب موقعك من الإعراب الروحانى.

نعم حرقت الجن، أو العفريت، أو المارد، أو الشيطان، أو الروح بالماء المغلي، ولربما ألحقت به ضررًا بالغًا عن دون قصد، ولكن..... لم؟! ما الذى جاء بذلك الكائن إلى شقة العجوزة؟! المفروض أننى كنت فى سهرة رأس السنة أحتفل، وو ولكن قبل أن يبدأ هذا الاحتفال بساعات، كنت أجلس مع صديقى عمر فى.... إحم إحم .... فى الحمام.

.....

وجاء عِتيًّا:

أخيرًا فى بيتى فى وسط البلد.

عظامى تؤلمنى بما لا يقاس، والصداع رفاهية لما أنا فيه من مراحل انشقاق الجمجمة.



كنت فى حالة من الإرهاق تجعلنى لا أقوى على استرجاع تلك الليلة السوداء على البورش، خلعت ملابسى المعجونة بالعرق والتوتر ومياه الكنيف، ودخلت على الحمام فورًا، وملأت الحوض بالماء الدافئ، وقمت بعمل فنجان قهوة تركى وشطيرة من الجبن الرومى، وأخذت كل هذا معى إلى الحمام، وألقيت بنفسى فى الحوض أستجدى دفء الماء وحنانه على جسدى المكدود، لابد وأن أرواح الصراصير التى سلقتها تهيم فى ثنايا جسدى، بل وإنها تتكاثر أيضًا هنا وهناك.

يالها من ليلة ثرية، تبعتها ليلة جهنمية لم أتوقعها أبدًا!

أقوم بفرك جسدى باللوفة والرغوة الكثيفة، وأتناول الشطيرة وأبتلعها بحسوة من قهوتى السوداء، إن الخدر يغزو مسام جسدى، تثاقل جفناي رغمًا عنى، بل إننى ألوك الشطيرة سارحًا فى نقطة بعينها دون أن أستطيع أن أحيد عنها، أنهيتها، ثم مددت جسدى طوليًّا متدثرًا بدفء الماء، وأغمضت عينى لأتلقى دفقة الدفء والليونة عبر مسام جسدى الغاطس فى البانيو، إننى إريد إن أنااااام. لا أعرف بالضبط كم بقيت فى غفوتى! ولكنى فتحت عينى إثر ارتعادة بااااااااااااردة. تضربنى بمئات الإبر الدقيقة. إن الحمام كما لو كان مثلجًا، إضافة للجو المثلج أصلًا، أبصرت الزرقة تتنامى على جلدى بفعل البرودة القارسة، سارعت للقيام من عمق البانيو بلا استجابة من جسدى الذى تيبس آخذًا طريقه للتجمد، ضربات قلبى تخفت وتكتفى بضربات عميقة بطيئة، وأشعر بضغطها فى شعيراتى الدموية، لابد أن بقائى لفترة أطول سيجعلنى معرضًا لقضمة صقيع، لابد أن أطرافى ستتكسر عائمة فى مياه البانيو، الرعب يجتاحنى من مصير لا أقدر على تغييره. يا إلهى! أشعر بالعجز، لا لا، إننى أشعر بالشلل يتكاثف على مفاصلى كلها،



آلام عاتية تغزو عمودى الفقرى المكدود، كأن شخصًا يضربنى بمطرقة بكل ما لديه من قوة!

وفى محاولة يائسة حركت ذراعى بعنف لأطيح بفنجان القهوة وبقايا الشطيرة الموضوعين على طرف البانيو، وانتفضت كما الغريق لأعتدل جالسًا بعنف... انفجر الفنجان إثر ارتطامه بالأرض محدثًا دويًا له صدى، ما هذا الصمت المطبق! كل حركة وكل آهة تخرج لها صدى، ألتقط أنفاسى بعدوانية وكأنى فى عراك مع الصقيع، تبًّا.. إن لك أطرافًا مدببة أيها الصقيع الحقير! إنك تستعين بدنائتك لتصرعنى أيها الـ.... ثم.. ثم.. ثم لالالا ليس من جديد... لقد تجسد ذات المخلوق الغاضب أمامى، يتشمم مكان الارتطام بالقرب من قدمى الغاطسة فى الماء، كخفاش يُصيخ السمع ليحدد اتجاه هجومه على شخصى المسكين، ازددت تجمدًا وصمتًا، رباه.. إنه أعمى بالفعل! بل يبدو أيضًا أنه شبه أصم، وجهه... وجهه. إن وجهه يبدو كما لو كان مسلوخ الجلد، أنفه جدعاء مندمجة مع فمه الغليظ، وجسده العجوز المتغضن، المترهل بشعرات بيضاء متناثرة مقززة على عموم جسده، ويتحرك جلده المترهل مع كل حركة عنيفة يقوم بها، بل إن هناك قرنًا وحيدًا يخرج ملتويًا أعلى أذنه اليسرى، أما عيناه، فكانتا مطموستين كأنما تم لحام جفنيه، أو كأنهما خِيطا إلى بعضهما البعض، أبصرت جفنيه يهتزان، بينما تنفتح ثغرات سوداء متتالية فى شق الالتحام، إننى فى حضرة شيطان أعمى شديد الشراسة والبشاعة، لم أعرف يا عزيزى أنك بهذا الكمال! غرابة ودمامة ورعب. «يا نهارى الأسود والمنيل بستين نيله!».

.....

تلوت فى سري (لاننى بالحمام) بحروف مرتعشة (آية الكرسى)، أعرف



أن لها فعلًا عظيمًا، ولكن رجفتى منعتنى من ترديد الآيات بشكل سليم. ولكن.. ولكن.. اختفى فعلًا، كأن تجسده يشبه الرعدة التى انتابتنى بالضبط، مجرد لمحة استمرت ثانيتين قبل أن يختفى، هل جاء فقط ليتأكد من مكان إقامتى الدائم أم ماذا؟! إنه لشيء مقيت أن تُطارد من جن كفيف يتشممك لينقض عليك، ما الذى ينوي فعله ذلك الشيطان الرجيم؟! لا أعرف، وأعجز تمامًا عن تحليل الموقف.

مددت يدى المرتعشة للمنشفة الكبيرة المعلقة ولففت نفسى بها، وخرجت لغرفة نومى، ودلفت للأغطية وأنا مصحوب بأنينى وارتعادتى واصطكاك أسنانى، ورعبى وبللي المثلج.

مر الوقت كالدهر قبل أن تستجيب الأغطية لجسدى وتبث بعضًا من الدفء.

ونمت فورًا مسحوقًا بالرعب والبرد العنيف ومقدمات الإنفلوانزا.

.....

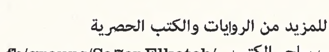
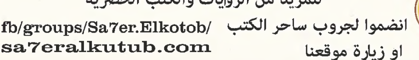
حضّرنى من فضلك:

الزمان: قبيل الاحتفال بليلة رأس السنة ٢٠٠٢ ببضع ساعات.

المكان: فى (حمام) شقة (عمر) بحى العجوزة.

- يابنى إسمع بس، دي تجربه عاديه جدًّا وأدينا بنتسلى.

- هي ايه اللى عاديه يا عمر؟ الله يخرب بيتك، إنت خلاص إتجننت رسمى!


هكذا صحت فى وجه (عمر) رافضًا ومعترضًا لعرضه العجيب، كان (عمر) لا يبدو على خير ما يرام فى تلك الأيام، بل إن عينيه بدتا أكثر لمعانًا وزجاجية. من الواضح أنه يجتهد فى الروحانيات، أو يمارس رياضات روحية بشكل كثيف. عندما تجد صديقك شاردًا ومقبلًا على الكحوليات، وتدخين الحشيش بتلك الطريقة النهمة، عندما تجده يزداد هزالًا وتلمح بريقًا مزعجًا فى عينيه، اعلم أن الموضوع لا يخص نشاطاته الجنسية أو أى شىء آخر، إنه يلاحق الروحانيات بكل الطرق.

- يابنى إسمع كلامى بس وماتخفش.

ندت منى آهة اعتراض حازمة، وحاولت أن أبدو منطقيًا.

- لا يا عمر، إنت متعرفش يعنى إيه مسّ، هيطلع ميتين أهلك والله.

- مسّ إيه اللى هخاف منه يابنى؟ أصلًا مافيش حاجه اسمها مسّ.

- أمال إسمه إيه يا مولانا؟

- إسمه.... إسمه استحضار أو استجلاب.

- تحضير سفلى يعنى؟

وضع يده على كتفى، أشعر بها تهتز حماسًا واضطرابا، ونظر فى عينى غامزًا بغواية شيطانية:

- وماله السفلى؟ إيه رأيك بقى إن السفلى هو المظبوط بجد، مش تقوللى علوى وسماوى وأبيض... السحر والاستحضار لازم يبقى سفلى من تحت لتحت.

صِحتُ فيه مقلدًا:



- وإنت عاوز تنزل تحت طبعًا.

اهتز حاجباه باستهانة، ولكن بإلحاح قائلًا:

- ممم.. حاجه على خفيف كده، ومتقلقش مش هيحصل حاجه.

- وإيه اللى مخليك متأكد أوى كده إنه مش هيحصل حاجه يابتاع النسوان؟

- أصلى... أصلى.. أصلى بصراحه جربت الموضوع فى المنيا ومحصلش حاجه خالص، يعنى مافيش مخاطره من أساسه.

- طيب لما إنت جربته ومحصلش حاجه، ليه مصر تعمله تانى؟

- بصراحه... عشان إنت موجود،إنت يا تامر إتلبست قبل كده، وأكيد القنوات الروحيه عندك مفتوحه ولّا نسيت (شقة الهرم)؟

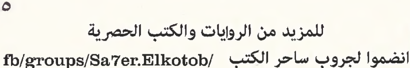
نعم، لقد حكيت له، بل إن موقفى فى شقة الهرم كان موضوع السهرة لأكثر الناس التى تعرفنى، فى البداية حكيته كموقف طريف أو مرعب، ولكن الناس من حولى بدأو يتداولون الموضوع من زوايا مختلفة، كل حسب شخصيته ومعتقداته وخياله.

نظر إلىَّ بتركيز وهو يحاول إقناعى:

- يابنى أنا صاحبك ومش ممكن أقبل أضرك، كل الحكايه إنك هتكون الوسيط؛ لإن سبق لك الموضوع، هتكون زى ماسوره مفتوحه لإتصالى بالـ... بالروحانيات.

أجبته بإستسلام:

- خلاص يبقى وقت تانى، النهارده هنحتفل براس السنه، خليها ليوم تانى.



- بالعكس يا عبيط، الموضوع مش هياخد ساعة زمن، ولسه بدرى متقلقش.

ثم غمز لى بعينه بطريقة غاوية قائلًا:

- وكمان لو سمعت كلامى هجيبلك (دينا).

حانت منى التفاتة اهتمام رغمًا عنى، إنها ودون كل نسائه جميعهن كانت استثناءً مبجلًا، لا يحيد عن الإعجاب النهائى، أنتم لا تعرفون (دينا) من سوء حظكم، تعرفت عليها باعتبارها إحدى صديقات (عمر)، هى الوحيدة التى لم يحكِ حكايتها لى، ولم يقم بتصنيفها. لقد قدمها لى كصديقة عزيزة وكفى، ولكنها تركت عندى انطباعًا ساحقًا بالإعجاب، يكاد يكون عشقًا من أول نظرة، بلونها البرونزى الفاتح، وشعرها الأسود المقصوص كالغلمان، وقوامها الذى يعقد أجمل العارضات، وأناقتها المعقدة، المطرزة بالجلد الأسود والحذاء ذى الكعب العالى المسنون، وحليّها المعدنية العجيبة. كانت نموذجًا صارخًا لشكل الفتيات التى أعشق، بقرطها الصغير على جانب أنفها، ومكياجها السوداوى العنيف، ووشم الأفعى الكبير الذى يأخذ حيزًا لا بأس به من صدرها. فى البداية اعتقدت أنها مجرد مدعية تجيد تمثيل العمق والسوداوية، إلى أن سمعتها وهى تتكلم، صوتها رخيم مترنم، وحروفها منغومة منسقة كأنها مكوية بالمكواه، فبدت كساحرة فاتنة اعتادت على خنق الرضع وقتل الحيوانات الصغيرة من باب التغيير وكسر الملل.

تلاعبت ابتسامة خبيثة على شفتى صديقى، ونالت الحقارة جزءًا من ملامحه وهو يتابع:

- ها قلت إيه؟ تسمع كلامى وأجيبلك (دينا) تدلعك الليله فى السهره.



لانت ملامحى المتقلصة بالرفض، وسرحت فى اجتماعى مع تلك الغادة السوداء، متصورًا كل شىء، كيف ستكون القبلة والحضن والـ...

ـ ها يا عطوه.. إتفقنا؟

تظاهرت بالصلابة قائلًا:

ـ ماشى، وعمومًا أنا هنفذ الطلب ده عشان خاطر عيونك.

ندت من بين شفتيه «شخرة» كما لو كان عربجيًّا يسوق الحمار قائلًا:

ـ وحياة امك؟! عشانى بردو؟!

.....

كان الحمام فسيحًا يسمح بجلسة أرضية، خلعت حذائى وافترشت قطعة موكيت وضعها عمر على أرضية الحمام، ثم غادرنى إلى غرفة نومه، وعاد لابسًا جلبابًا أسوداً فضفاضًا، فبدا ككاهن قديم فى معابد الشيطان. كان الحماس يجعله يهتز فى تحركاته كما لو كان هناك قطب كهربى موصول بمؤخرته النحيلة، أطفأنا إضاءة الشقة بالكامل، وأشعل عمر ثلاثًا من شموع حمراء غليظة، ووضعها بينى وبينه وبين المرآة، بعدما رسم مثلثًا متساوى الأضلاع على الأرض، فجلست فى زاوية، وجلس هو فى الزاوية الأخرى، بينما الشموع الثلاث تمثل مثلثًا آخر مقلوبًا داخل المثلث الأصلى، ثم وضع مرآة ذات حامل، وضعها فى الزاوية الثالثة، بحيث تكون ثالثتنا فى الجلسة، وبحيث أظهر أنا وهو على سطحها المصقول طول الوقت، مرآة بحجم الوسادة تقريبًا، محددة بإطار نحاسى مزخرف من الذى تجده فى البازارات، كنت متوترًا استشعر بعض الخطر واسعيد تجارب قديمة كن قد تناسيتها مع الزمن، فمسّ كتفى ليطمئننى بأن كل شىء على ما يرام،



ثم وضع قطعة من قماش أسود شفاف فوق رأسى لتنسدل على وجهى، لاحظت أن بها نقوشًا مطرزة وأرقامًا متداخلة، ولكنى لم أعر للأمر اهتمامًا كبيرًا، فأنا أفكر فى الجائزة وليس الطريق المؤدي لها ـ للأسف الشديد ـ ثم أطفأ كامل أضواء الشقة، كنا نجلس القرفصاء وقد ولى كل وجها للآخر، وبدأ طقوسه التى لم أكن أعلم أنه يتقنها جيدًا إلا عندما بدأ فى الصراخ بكل جدية وتركيز، وقد تحشرج صوته قليلًا وهو يجول ببصره فى أرجاء المكان، صائحًا فى غل وتركيز وقد ثبت نظره للأسفل:

بِرْهَتِيه بِرْهَتِيه، كَرِيْرِ كَرِيْرِ، تَتْلِيْهِ تَتْلِيْهِ، طُوْرَانِ طُوْرَانِ، مَزْجَلِ مَزْجَلِ، بَزْجَلِ بَزْجَلِ، تَرْقَبِ تَرْقَبِ، بَرْهَشِ بَرْهَشِ، غَلْمَشِ غَلْمَشِ، خُوطِيرِ خُوطِيرِ، قَلْنَهُوْدِ قَلْنَهُوْدِ، بَرْشَانِ بَرْشَانِ، كَظْهِيرِ كَظْهِيرِ، نَمُوشَلَخ نَمُوشَلَخ، بَرْهَيُولا بَرْهَيُولا، بَشْكَيْلَخ بَشْكَيْلَخ، قَزْمَزِ قَزْمَزِ، أَنْغَلَلِيْطِ أَنْغَلَلِيْطِ، قَبَرَاتِ قَبَرَاتِ، غَيَاهَا غَيَاهَا، كَيْدَهُوْلا كَيْدَهُوْلا، شَمْخَاهِرِ شَمْخَاهِرِ، شَمْخَاهِيْرِ شَمْخَاهِيْرِ، شَمْهَاهِيرِ شَمْهَاهِيرِ، بِكَهْطَهُوْنَيْةِ بِكَهْطَهُوْنَيْةِ، بَشَارِشِ بَشَارِشِ، طُوْنَشِ طُوْنَشِ، شَمْخَابَارُوْخ شَمْخَابَارُوْخ، عزازير عزازير بحق كهكهيجكهكهيجكهكهيج يغطشييغطشييغطشى بلطشغشويلبلطشغشويلبلطشغشويل أمويل جلد مهجما هلمج ورودية مهفياج بعز عز عزك وجبروت جبروت جبروتكوسلطان سلطان سلطانك أن تسخر لى قديما يطيعنى قديما قديما قديما ويجعل منى سيدًا عليه فى الوحا الوحا العجل العجل الحين الحين الساعة الساعة .. بِرْهَتِيه بِرْهَتِيه، كَرِيْرِ كَرِيْرِ، تَتْلِيْهِ تَتْلِيْهِ.......

هكذا وبلا كلل راح يردد صديقى عمر نداءه مكررًا اللفظ مرتين بضغط وتوءدة، بينما أنا أنظر إليه من تحت النسيج الأسود الشفاف، وعلى ضوء الشموع الثلاث أبصرعروق جبهته المنتفخة من أثر «الحزق» والرجاء،



ماهو ذلك القديم الذى يريده (عمر)؟! أعرف جيدًا أن الروحانيات مكللة بالأطماع العاتية، وأن كل من يلجأ يكون لديه طلب عسير بعيد عن التحقيق، ماذا تريد؟ خادمًا من الجن السفلى يا سى عمر؟!..... أشعر بحقل مغناطيسى آخذ فى التكوين، أيكون عصير الفودكا له دخل بالموضوع، أم أن هذا التنميل الذى يشمل أطرافى بسبب الـ.....؟! ربما هو ترديد تلك الألفاظ الموغلة فى القدم، أأسماء للشياطين هي؟،أم أنها ترددات صوتية تأخذ منحنى هابطًا لاسفل؟ دوما اشعر بانني منجذب لأسفل وهو يتأبط ذراعك نازلا معك ذلك الدرك لاسفل لاسفل، لن تشعر به فى حينه، ولكن بشكل تدريجى، ومع تلاوة عمر المركزة يبدو أن الأمر آخذاً منحني جدي فى التفعيل، بدأت فى التململ، ليس بسبب أنه لا يوجد شيء، ولكن تولدت داخلى رغبة حقيقية فى إفساد ما يؤسس له صديقى، فلتذهب (دينا) للجحيم، ولكنى أدركت فى قعر قعر الوعى عندى، أنه فات الوقت، وأن القطار غادر المحطة، وأنه فى طريقه لأن يغادر القضبان أيضًا، أو أن الصاروخ اخترق الغلاف الجوى ليشق أجواء الفضاء، غرقت فى أفكارى السوداء، وتصورت مدى التورط الذى غطى حذائي بالطين اللزج، استشعرت أيامًا سوداء بلا نجوم ولا قمر، وتمادى بى الإحساس بالندم على موافقته، وبأننى مستهتر لدرجة الضياع.....

ثم رأيت بأم عينى لهيب الشموع الثلاث ي.... يي.. يزداد طولًا وكأنه سوط من نار يتلوى فى يد الشيطان. توقف (عمر) عن التلاوة، وقد لاحظ ما لاحظته، ألمح بريق الجنون يلمع مختلطًا بنشوة الانتصار فى عينه. ساد الصمت تمامًا ونحن على وضعنا، وقد ازداد طول اللهب لثلاثة أضعاف تقريبًا .... ثم لمحت بطرف عينى أن ثمة انعكاس فى المرآة يقول:



إن ثالثًا قد.. قد.. قد حضر الآن، بل ويجلس معنا فى زاوية المثلث الثالثة عبر سطح المرآة.

.....

الثانى من يناير عام ٢٠٠٢

هاتفى المحمول يرن بغباء ولا مجيب.

ثم الطرَقات المضنية على باب منزلى بوسط المدينة.

تحاملت عليَّ نفسى، وقمت مترنحًا من شدة الإنهاك، وقد قابلنى البرد خارج الأغطية متربصًا بلحمى العارى.

أسرعت إلى مشجب الملابس لألقى على جسدى روبًا صوفيًّا ثقيلا ـ أنا أفضل لبس الروب فى المنزل، وأقتنى منه عدة أنواع ـ ثم خرجت متوجهًا للباب.

ساعة الحائط تغمزنى بوقت الثامنة والنصف مساءً.

لابد أنه اللعين (عُمر) وقد جاء ليتلقى منى تقريرًا عما حدث فى حجز قسم الشرطة

ثم سيبتسم فى تشفٍّ ويسخر منى طوال السهرة.

لن أضع تلك الفرصة أمامه أبدًا، وسأقاتله بنفس سيفه وأتهمه بالانحلال أو الشذوذ، وكفانى استجابتى له فى التحضير، المهم أننى لن أسمح له بالسخرية منى، يكفينى ما جرى لى.

فتحت الباب عن وجه صديقى عمر.

؟؟؟؟؟؟؟





ـ إيه مالك يا عمر حصل إيه؟

تقدم عمر للداخل وهو يتكئ على كتفى. كان يبدو متهالكًا ينضح العرق البارد على جبينه ويبدو مصفر اللون يترنح أمام الباب.

أجلسته بتوتر على أريكتى الواسعة، إن تنفسه متسارع كما لو كان يعانى من أزمة الربو، اعترتنى الحيرة الشديدة، بل الشفقة عليه، كررت عليه سؤالى بإلحاح: مالك يا صديقى؟ أخيرًا التقط أنفاسه بشكل طبيعى وهدأت وتيرة أزمته للنصف، ونظر إلىَّ فى ضعف شديد، وطلب منى كوبًا من الشاى لأنه يشعر بالدوار والغثيان.

ودخلت سريعًا للمطبخ لأرفع عليه براد الشاى الصاج.

فأنا أحب الشاى المغلى بالنعناع، أو الزعفران، أو الحبق، أغليه مع السكر ليصنع مزيجًا عالى الحضور فى مزاجى أنا.

ثم أرفع برادى الصاج الأزرق على صينية، ومعه كوبان صغيران وبعض السكر الإضافى.

أنا أحب الشاى بهذه الطريقة، وجميع أصدقائى يطلبونه منى بذات الطريقة.

خرجت من المطبخ حاملًا الصينية كالخدم، بينما القلق يغزو كل ملامحى عليه........ لأجد صديقى المحترم (عمر) بكامل صحته ونضارته ووقاحته يلف سيجارة حشيش من أدواته التى لا تفارقه وهو يصفر لحنًا لكاظم الساهر (زيدينى عشقًا زيدينى يا أحلى نوبات جنونى... زيدينى).

خرجت منى سبة رغمًا عنى وقد اهتز كيانى غيظًا.



ـ آه يا عرص!

ابتسم فى سخرية، ولمعت عينه بمكر الأطفال، وقال وهو يغالب ضحكة معربدة، لقد كان اللعين يمثل والحقيقة أنه أتقن الدور:

ـ بس يابنى وتعالى قوللى حصل إيه وعملت إيه، ومتخافش مش هتريق عليك.

ـ مش هسمحلك تتريق يا حشاش انت.

فرفع سبابته اليمنى أعلى حاجبه الأيمن «رادحًا» لى بالبلدى كما العوالم:

ـ اسم البنى حارسك وصاينك.

وناولنى السيجارة بطريقة مسرحية هزلية دون أن ينظر لى.

ـ هات... جتك البلى فى شكلك.

ـ حبيبى يا طوط.. بقولك خالد صاحبك فين؟ عايز بسكوته طريه كده عشان (أفركها) بعد ما (أسيحها).

كان عمر يتعمد طوال الوقت أن يتكلم ببذاءة مزدوجة المعنى، ويحمّل كلامه بالإيحاءات الجنسية كما طلاب مدارس الإعدادى، وكنت أندهش أيما اندهاش من شخصيته فهو «وكيل النيابة» الأنيق، عريق الأصل، وكنت أنهره بشدة على طريقته هذه، والحقيقة أنه كان يفوقنى فى «الإيفيهات» لدرجة تثير جنونى، بل ويتعمد أن يستفزنى بها وكأنها هوايته المحببة.

ـ بطل الإيحاءات دى يا حضرة القاضى.

ـ إنت أوسخ منى، ولسانك زى المنشار، إشمعنى إنت يا عرص؟



(لماذا يستخدم المصريون فيما بينهم كلمة «عرص»؟).

أرى أنها كلمة جامعة لكل الأوصاف، فلو كان صديقك يداعبك سيقول لك يا «عرص»، ولو تعارك معك سيقول لك يا «معرص» ولو وصف عدوه سيقول إنه «عرص» ولو أعجب بشدة بشخص سيقول من باب المجاملة (ده عرص كبير).

ثم لماذا يحب المصريون تلك السُّبة يتبادلونها فيما بينهم كما يتبادل النمل اللعاب أثناء اصطدام بعضهم ببعض؟ لعلها جزء لا يتجزأ من الشخصية المصرية، ويخص تسهيل شيء ما لحساب شخص ما بدون مقابل، لأنك لو أخذت مقابلًا سيقول الناس بأنك أيضًا... «عرص»، و«العرص» من فعل عَرَصَ، أى ألقى اللحم فى الرماد، و«العرّص» عند المصريين هو الشرطى المكلف باقتحام بيوت الدعارة فى أوائل القرن العشرين ليتحقق من نظافة البغايا، وتصريح البيت نفسه، ولذا كان (التعريص) هو إحدى وظائف السلطة المصرية، واندمجت وجدانيًّا فى نظر الشعب بالدياثة والوضاعة، مع أنها وظيفة حكومية فى الأساس، كما العشماوى فى الشنق، والسَّماوي فى قتل كلاب الشوارع الضالة. أيضًا فى بدايات القرن العشرين، كان المصريون لهم اللمسة الخاصة فى التسمية والوصف.

ـ أنا فنان، أتكلم براحتى، لكن إنت فى النيابه والقضاء، لازم تكوم وقور ومؤدب، ده إنت غلبت (صبى العالمة).

(صبى العالمة) هو مصطلح يُطلق على مساعد الراقصة الرجل، وهو الذى يجهزها للرقص، وهو من يشرف على لباسها وزينتها، بل ويوجهها لطرق إغواء الرجال، وهو من يتفق معهم على إحياء الليالى الخاصة لها، ومنهم من يتمادى ويمسك بالمبخرة ليرقص بها أثناء تأدية الراقصة لـ«نمرتها»،



ويبخرها خوفًا من حسد لحمها العارى وصدرها الرجراج. مهنة موغلة فى القدم ابتكرها الغجر قديمًا واقتبسها منهم الباقى، وصبى العالمة هو من يتحدث بغواية وعهر كما الراقصة، ولا يُؤمن طرفه من قِبل الرجال الآخرين؛ لأنه يتميز بشراسة وغدر العوالم أو الراقصات،....

عض (عمر) بعهر على شفته السفلى بأسنانه مصدرًا صوتًا مشفوطًا كالطرقعة، حركة بالغة البذاءة تصدر من رجل المفروض أنه قمة الوقار!

ـ يابنى أنا أكتر واحد بيشوف وساخة المجتمع بجد، وبعدين اعتبرها (بارانويا) يا كوكو... زى (سعاد حسنى) فى البئر العميق.

ـ لأ طبعا دى (شيزوفرينيا) يا جاهل، والفيلم إسمه «بئر الحرمان» يا أُمى.

ـ شيزو..؟... شيزو كبيرهأوى.

ضحكت رغمًا عنى، واندمجت سريعًا فى مرحه، فأنا أحبه وأميل لصحبته، بالرغم من تطلعاته الخطيرة وشخصيته المعقدة، وهو يبادلنى مودة بمودة، ويؤكد أن انفعالاته الشخصية تخصه وحده ولا تؤثر على اختلافنا، واستأذنته لأغسل وجهى وأنتعش وأغير ملابسى بشىء ثقيل فقال لى:

ـ أيوه الدنيا برد، وإنت لابسلى الروب على اللحم، فاكر نفسك عادل إمام؟

ـ إسكت يا عمر.... إنت متعرفش حاجه.

...

استقرارعتيا

دخلت حمامى مرة أخرى مسترجعًا تسلل ذلك الأعمى الشيطانى.

حوض الاستحمام مازال مملوءًا بمياه استحمامى التى تركتها، لكن.. لكن، كانت تبدو شديدة القذارة وكأن كلبًا شريدًا استلقى بها وليس أنا! فهل كنت على هذه القذارة فعلًا أم أنه استلقى بدلًا منى؟!

لملمت أجزاء الفنجان من الأرضية، ثم مددت يدى بقرف لأنزع السدادة (كانت سائبه غير مسلسلة)... بررررررر ـ الماء شبه مثلج، ويبدو أثقل من وزنه المعتاد، وقبل أن تنزع أصابعى السدادة فوجئت بـ..... بقفزة عارمة تستقر فوق كتفى، كما لو كان طفلًا رذيلًا يمتطى كتفيَّ رغمًا عنى، أبصرت انعقاد ساقين نحيلتين حول رقبتى، بل كأنها كلابات من حديد تطوقنى، ترنحت بعنف، ورأيت انعكاسى فى المرآة أعلى الحوض شيئًا مذهلًا! كان ذلك الشيطان الأعمى يطوقنى بساقيه يعقدهما بتنمر واضح وقد انحنى ظهره وأمسك بشعرى متشبثًا أكثر برأسى، حاولت خلعه عنى بكل ما أوتيت من قوة، ولكنه عقد ساقيه أكثر ليخنقنى ويمنعنى من المقاومة، استمر ضغط ساقيه المنعقدتين حول رقبتى لبرهة جعلت أنفاسى تتباطأ، ثم.. ثم ثم تنكتم تمامًا. رباه.. إننى غير قادر على أخذ شهيقا واحدا! أظلمت الدنيا فى عينيَّ وأدركت أن الموت محيق بى فعلًا، وفى حمى المقاومة، وقعت على «بوزى» داخل المياه القذرة لا ألوى على شىء، ولا أعرف إن كنت أشمئز أو أصرخ أو أختنق!

اندفع الماء القذرلحلقى عبر فمى الفاغر من هول الذهول، ثمة ثقل يضغط على كتفى لأبقى أسفل الماء المثلج القذر. إننى أموووووووت، باب الحمام مغلق، صوت موسيقى تنبعث من حاسوبى، لابد أنه (عمر) الذى يعشق كاظم، أداره وأنا فى الحمام، أسمع من خلال الماء كاظم الساهر يصرخ بلوعة: (إنى خيرتك فاختارى ما بين الموت على صدرى أو فوق دفاتر أشعارى...).



إننى أمووووووت، أنا على وشك الاحتضار يارب، مازال الوغد يضغط بساقيه النحيلتين على جذور عنقى حابسًا الهواء والدم.

وبكل قوتى أطلقت صرخة مغرغرة بالماء المثلج القذر وتتسرب عبر باب الحمام المغلق إلى حيث يجلس صديقى، الذى يتمايل مع صوت كاظم، لينتفض واقفًا يتحسس خطرًا مجهولًا ويجرى ليخرس كاظم، ثم يهرع تجاه الحمام ويدفع بابه بقوة، لينفتح الباب عنوة مفسحًا الطريق لمشاهدتى أنتفض بيدىَّ وساقىَّ، بينما رأسى منكسة أسفل الماء.

هرع (عمر) وجثم علىَّ، ثم وجدت نفسى أرتفع لقبالته أجاهد لألتقط أول نفس بعد طول بقاء تحت سطح الماء، أرى وجهه ممتقعًا تمامًا، وأسمع صوته مموجًا وممزوجًا بهلعى

ـ تامر... تامر... إنت ياد... فوق الله يخربيتك.

ومع مجاهدتى لأتنفس، بصقت وأنا أسعل فى وجهه كوبين من الماء الذى شربته رغمًا عنى، كانا يقفان فى قصبتى الهوائية قبل أن أتنهد بقوة آخذًا أول شهيق، ثم استقر زوغان عينى لأرى عمر مبتلًّا يسيل الماء من شعره ووجهه، وعلى بذلته الغالية، وملامح الذعر النهائى مرسومة على وجهه.

ـ أوففف الله يقرفك..... تامر تامر،إنت تمام؟ تااااامر....

كان يهزنى بعنف وأنا أترنح من هول الموقف، محاولًا أن أملك شتات نفسى. كانت هناك رعدة رعب استقرت تمامًا فى قفصى الصدرى.

مازلنا فى الحمام، نظرت للباب المكسور، وقلت له بحيرة شديدة وأنا أتحسس كتفى وعنقى وأبحث عن تلك الساق:

ـ فيه فيه... فيه حاجه ركبت على كتفى يا عمر ع..ع.. عشان يخنقنى فى البانيو يا عمر... لا الموضوع ده مش هسكت عليه.

نظر لى صديقى، وظهر على وجهه تساؤل ضخم، وقال وهو يفتح صنبور الماء فى الحوض:

ـ طيب طيب إغسل وشك بس.... ويالّا بينا نخرج من هنا.

ثم مد كفيه يغترف الماء ليلقيه على وجهى، فأوقفته، كفانى ماءً مثلجًا أرجوك.

سبقنى للخارج متوترًا وهو يجفف نفسه هو الآخر من بصقتى، مازلت أترنح. الدوار يعصف برأسى، والبرد والاشمئزاز يحاصرانى.

فتحت صنبور الماء الساخن وغسلت يدى ورأسى، وقبل أن أخرج لمحت شيئًا فى البانيو اختفى بعد لحظة من تحديقى فيه!

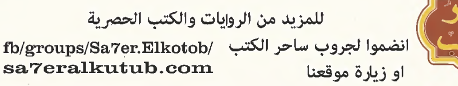
لمحت جثة، جثة لإنسان يلبس الروب، جثة زرقاء منتفخة، على وجهها صرخة متجمدة من الذعر، نظرت مليًّا للوجه:

لا.. مستحيل............. إنه أنا!

....

صوت الكومبيوتر البانتيوم ٣ يشدو بـ (أم كلثوم) بصوت الصدى فى شرفة شقتى الكائنة بأحد شوراع وسط البلد الرئيسية.

ومهما كان تعبيرى، لا أستطيع وصف سعادتى الغامرة، بل والمتجددة بشقتى تلك فى آخر أدوار عمارة من عشرة طوابق، والتى لو رميت على سلالمها إبرة لرنت بدوىِّ الفرقعة.

بالفعل كانت العمارة هادئة، لأن معظم سكانها من الوقورين كبار السن، والذين يفضلون الحياة الصحية والنوم من الساعة التاسعة مساءً.

نعم، التاسعة.. تخيلوا.. !

بدا الأمر أنهم يأخذون أمرًا بالنوم العميق كما فى الملاجئ، بالفعل العمارة كانت تتوقف تمامًا، بل إنها تتجمد بعد هذا الوقت، حتى البواب النوبى الشاب، يستقر فى عرينه ويغلق بابه عليه وباب العمارة، بينما الشارع الذى تطل عليه يعج تماما بالضجيج والحياه والمارة، وبالطبع كان يومى أنا يبدأ فى التاسعة مساءً، كنت أدخل وأخرج وأرتقى المصعد وحدى تمامًا، وكأننى أقطن وحدى فى هذه البناية التى ترتفع لعشرة طوابق كاملة.

هكذا كنت، لا ألتقى جيرانى إلا بالصدفة أمام المصعد، وكانوا كلهم بلا استثناء متحفظين صموتين، لا يصدرون صوتًا، ثمة شقق كثيرة مغلقة على الخواء بعد أن سافر أصحابها أو ماتوا، ولكن العمارة بها سكان وجيران على كل حال.

...

«ماخطرتش على بالك يوم تسأل عنى تارارا تارا..

وعنيا مجافيها النوم النوم يا مسهرنى تاراتاتا را».

هكذا أوفى الملحن (سيد مكاوى) وعدَه وجعل (أم كلثوم) تشدو بلحن راقص.

فحين تسمع رائعة أم كلثوم «يا مسهرنى» تشعر بأنك تريد الرقص بدلع وغواية، وكأنك ترسل إشارات ذات مغزى لحبيبك لن يفهمها إلا أنت وهو فقط.



«أنا قلبى بيسألنى تارتارا إيه غير أحواله..

ويقولى بقى يعنى.. يعنى ماخطرتش على باله على باله»

أقف فى مطبخى الذى يطل على شارع رئيسى آخر، وأحتسى جرعات من (البراندى) الحارق، وأقوم بطبخ وجبتى المكونة من الملوخية بالطشة، وبطة عملاقة اشتريتها بمبلغ ثلاثين جنيهًا كاملة من سوق باب اللوق القريب، قمت بسلقها وتحميرها بالزبد البلدى لترقد اخيرا فى طبق مفروش باعواد الجرجير والبقدونس، ومعها طبق الباذنجان المخلل بالثوم والليمون والفلفل الأحمر، وأرغفة عملاقة من المخبز العتيق، كان يجلبها لى البواب يوميًّا على قفص من الخوص. لا تستغربوا، إن هذا الرغيف العملاق بعشرين قرشًا كاملة، يقوم المخبز بتحميصه بعد خبزه ليزيده إغراء وسعراً، لقد تعلمت الطهى بمهارة اقتربت من درجة الكمال، وزاد وزنى بشكل ملحوظ أضاف لى نزعة وسامة دُهنية، أو هذا ما كنت أتصوره، ربما لأننى بالفعل انتقلت لدرجة أعلى فى حياتى الاجتماعية، فجيرانى يحملون رُقي الماضي وتحضره، بل اننى المح بعض الاجانب فيهم، ولا أسمع لهم صوتًا إلا بانغلاق الأبواب أو صوت صعود ونزول المصعد الخشبى المطرز بالحديد، وأبوابه المعدنية ذات النافذة الزجاجية المعتمة.

((يا ناسينى وانت على بالى وخيالك ما يفارق عينى

ريحنى واعطف على حالى وارحمنى من كتر ظنونى.....))

واصلت الطهي الى ان انتهيت بوضع طشة الثوم فوق قدر الملوخية مصدرة ذلك الصوت الفائر المحبب لنا جميعا ومطلقة دفقة روائح ذكية



تثير جنون كل من وجد فى الحيز نفسه، ونقلت كل هذا الطعام لانعم بوجبة اعشقها على مائدتى الصغيرة الموضوعة فى بلكونة العوامة بعدما ادرت جهاز الحاسوب على اغنية جديدة لوردة لتنعشنى وتفتح شهيتى على التهام كل هذا.

(اكدب عليك لو قلت بحب لسة اكدب عليك تارارارارا!!!)

.....

العوامة:

دعونى أصف لكم الشقة، أرجوكم، ولا تدخلونى فى تفاصيل سأقولها لاحقًا.

هى صغيرة كضحكة رائقة انفلتت من بين شفتيك وأنت تقوم بواجب العزاء، «محندقة» كما القفاز، تأخذ مقاسك وتنضغط عليه لتصبح حميمة كملبسك الداخلي، كانت عشيقة تعرف معنى الضم والاحتضان، تتكون من غرفة نوم واحدة فقط، وصالة كبيرة، وبها بلكونة رائعة، وتطل على منظر خلاب لجنوب القاهرة بأكمله، وقد أحاطها ذراعا جبل المقطم القويتان بها، وفى الليل أرمقها تتناثر بالأضواء لتزيين ذلك الثوب السماوي الأسود بملايين الماسات. «إحم إحم» أجد أن هذا التعبير مبتذل ومستهلك، ولكنى بالفعل كنت أرى جمالًا متجددًا كلما فتحت شرفة منزلى التى تمتد لتسعة أمتار طول، وبعمق مترين ونصف.

وضعت فى ركن الصالة جهاز الكمبيوتر الخاص بى على مكتبى الخشبى الكبير المسطح، واخترت أن يكون كبيرًا حتى أستطيع الرسم والكتابة



ووضع كل متعلقاتى عليه، إضافة لشاشة الكمبيوتر العملاقة ذات الظهر المحدب والتى يصل وزنها إلى ٧٠ كم بشاشاتها الـ٢١ بوصة.

هذا هو مكتبى المتواضع ومكان عملى الدائم، فأنا مدير نفسى، وفرَّاش نفسى، ومستخدم نفسى، ولكنى لست عميلًا لنفسى، فأنا بالفعل أملك عددًا معقولًا من العملاء الذين يستغلون ميولى للفن لأخرج لهم أعمالًا تجارية تعود بالنفع المتبادل لكلينا.

أما غرفة نومى، فهى مربعة، ذات بلكونة متناهية الصغر تكفي فردا واحدا فقط، تطل على خلفية العمارة والتى أرى منها (ميدان التحرير) مباشرة بكل تفاصيله، أرضيتها خشبية تطقطق مصدرة صوت تمطى الخشب القديم تحت وطء وزنى البالغ تسعين كيلوجرامًا، يتوسط الغرفة سريرى الأسود ذو الأعمدة، وخزانة ملابسى المشابهة للفراش فى سوداه وجمال تصميمه.

أما الحمام والمطبخ، فهما أيضًا يطلان على ذات الشارع الرئيسى، وطالما جلست على مرحاضى فاتحًا النافذة أرقب الشارع الغارق فى الحيوية، بينما أنا فى العالى، لا يستطيع أن ينظرنى أحد.

اسم شقتى هو (العوامة) تيمنًا بعوامة (نجيب محفوظ) فى رائعته «ثرثرة فوق النيل» وكذلك لإننى.. إحم إحم عندما أحتسى بعض الكؤوس أجد الشقة تتمايل كما لو كنت فى مركب أو عوامة، لذلك اعلموا جيدًا، عندما أقول العوامة، فهى شقتى التى أهيم بها حبًّا، ووجدت فيها أخيرًا ملاذًا من سخف العالم وزعيقه ونعيقه.

أجل، لقد كانت العوامة أخلص أخلص أصدقائى بلا أى مبالغة.

.....



يبدأ يومى فى الحادية عشرة حين أصحو من نومى نافضًا الكسل ومتوجهًا من فورى لحمامى لآخذ دشًا سريعًا أستعيد به نشاطى ويقظتى، ثم أدخل للمطبخ لأعد فطورًا قويًا من الفول والجبن والشاى والخبز الافرنجي، وأحمل كل هذا على صفحة كبيرة وأتوجه لمكتبى الحبيب بعدما أفتح باب البلكونة لأستقبل كل هذا الاتساع المتخم بتفاصيل القاهرة القديمة ؛ لأبدأ عملى الذى أحبه، وهو عمل تصميمات ومزج الألوان حسبما يروق لعملائى. كان عملى الجديد هو الدعاية والإعلان، كنت شخصًا منتجًا للغاية، وألعب بالمال بما لا يصدق، بل استطعت أن أقتنى سيارة جميلة موديل ٩١ «ميتسوبيشى لانسر». كان اسمها فى الأسواق (عيون صفية) نسبة لعيون الممثلة (صفية العمرى) فى مسلسل «ليالى الحلمية» حتى كنت أسميها نزاكه أو نزّوكا؛ إمعانًا فى تدليلها.... أمتلك حسابًا بنكيًّا يضاهى المائة والعشرين ألفًا من الجنيهات، وأمتلك بطاقة سحب من ماكينة البنك كما اولاد الذوات، نعم كانت حياتى فى مرحلة الراحة والمكسب والمال والاستهلاك والانفراد، علاوة على سكنى فى أهم الأماكن وأشدها تميزًا وكاريزما.. وسط البلد.

.....

عائلتى العزيزة

فقد تحولوا لصيادين مهرة، تقودهم أمى العزيزة، وأختى، وخالتى، وعمتى، وكل أنثى فى عائلتى والمحيطين بى؛ لأنهم بالإجماع قرروا فيما بينهم أن أتزوج.. ولعمرى لم أفهم إلى الآن سر كل تلك المطاردات والبنات المعروضات على شخصى الرافض بثبات أن يتزوج!..



كنت أنحدر من عائلة محافظة فعلًا، ولاترى أى منظور للمستقبل إلا بالزواج والستر الذى هو قمة الحياة والرسالة التى سوف يذهبون بها إلى الله بعد إكمالها وإجبار غيرهم على إكمالها حتى يرضى الله عنا جميعًا.

ربما كان المنغص الوحيد فى الموضوع، هو إصرار أهلى على تزويجى، أو إحداث فعل الزواج فى شخصى، حتى يتم انقسامى إلى اثنين وثلاثة وأربعة.

.. (يابنى الإنسان لو مات وفيه فى ضهره خلفه ومخلفهاش ربنا يغضب عليه).. كان هذا كلام أبى ـ رحمة الله عليه ـ.

... (إنت يا مغفل، لازم تفهم إن البنت لما تبور بيكون مش بإيدها، لكن بوار الراجل معناه إنه تالف ووسخ، ومينفعش يدخل بيوت)... كلام الماما رحمها الله رحمة واسعة.

ـ يعنى إيه يا ماما؟

ـ يعنى بوار البنت بسبب إن مافيش حد جالها، لكن بوار الراجل يعنى إنه دخل بيوت كتير واترفض ومحدش رضى بيه.

ـ طب وايه يعنى؟

ـ إفهم يا جاموسه.. إنت لازم تتجوز يعنى لازم تتجوز وخلاص.

ـ طب ليه لازم يعنى لازم وخلاص؟

ـ مش مهم تفهمنى، وأنا عارفه إنك بتستعبط، بس أنا وإنت والزمن طويل يا تامر.

هكذا كان الحوار بينى وبين أمى الغالية ـ رحمها الله.

بالطبع أحبها وأنسجم معها فى أشياء كثيرة، وكنا عشاقًا نتبادل الزيارات وآخذها للملاهى والمتنزهات، إلى أن جاءت تلك الفكرة الشيطانية فى رأسها وتحولت لغريم يريد أن يدق عنق حريتى بأى ثمن، المهم أنه لازم لازم ولابد أن أتزوج.

.....

اليوم الإثنين، أصحو على صياح الهاتف المحمول الصادح برنة أصالة «قد الحروف».

يوجد أكثر من عشر مكالمات فائتة.

من أمى، وأختى، ومن صديقى خالد، ومن بعض العملاء.

اتصلت بأمى أولًا وأنا أتثاءب:

ـ صباح الخير يا ماما.

ـ صباح الخير....

قالتها كمن يقضم خيارة.

ـ مالك يا حلوه بتقطمى الصباح كده؟

ـ هو امبارح كان إيه يا واد انت؟

تذكرت كل الأحداث التى مرت بى يوم الأحد، وسرحت قليلًا قبل أن تكرر أمى السؤال.

إمبارح كان يوم إيه يا واد؟

ـ كان الحد يا ماما. ليه فيه إيه؟



ـ يعنى مش عارف إننا كنا رايحين عند أهل (رضا) يوم الحد؟

ـ (رضا) مين؟

ـ رضا، اللى المفروض إنها خطيبتك وإنت سيادتك صايع وبتلف معرفش فين.

أطلقتُ صفيرًا طويلًا مصحوبًا بالأسف.

ـ ياااااه يا ماما ولا افتكرت، معلش متزعليش والله نسيت.

ـ نسيت؟ إنت أكيد إتجننت، فيه حد ينسى معاده مع أهل خطيبته؟

ـ اللى هما مين دول؟

ـ أبوها وأخوها وجوز أختها وعمها.

ـ ليه كل دول؟

ـ عشان تتكلموا فى كل حاجه.

أصررت على استفزاز أمى قائلًا:

ـ خلاص يا ماما، سُكى على المشاريب مش مهم.

ـ يعنى إيه أسك على المشاريب يا بهيم انت؟ إنت فاكر نفسك قاعد فى غرزه من اللى بتروحهم يا متعلم يا مثقف، يا خسارة تعبى فى تربيتك، وأنا اللى كنت فاكراك هتطلع عالم ولَّا أديب، ربنا يعوض عليا.

ـ يعنى مش مهم الجوازه دى، شوفى واحده تانيه وبراحتك خالص.

ـ بس البنت دى عاجبانى، أخلاقها كويسه وبنت ناس، وهتستحمل قرفك، وهما دلوقتى مش تحت أمرك.





ـ ولا أنا، وعشان كده بقولك سُكى على المشاريب.. باختصار مش عاوز.

ـ إنت فاكرها لعبه؟ إنت مش ناوى تبطل استهتار؟ إنت عاوز الناس تقول عليك مش محترم وبتدخل بيوت الناس وبعد كده تهرب؟

ـ شوفى بقى، أنا مدخلتش، إنتى اللى قعدتى تزنى على ودانى وأنا مش مقتنع وعملت كده بس عشان خاطرك.

ـ إنت فاكر نفسك صغير؟ ده إنت عندك ٢٨ سنه، واللى زيك بقى عندهم ولد وبنت وزى الفل، وإنت عِره، لا خطبت ولا اتجوزت ولا حاجة أبدًا.

ـ أنا عِره؟ اللـه يسامحك. ممكن تقفلى على الموضوع ده عشان منخسرش بعض؟

ـ بطل هزار يا واد انت، بلا مسخره وقلة أدب، أنا مش عارفه إنت جايب التسيب والاستهتار ده منين، اللى أصغر منك إتجوزوا وبقوا رجاله محترمين، وإنت بتكبر وشكلك هيخنشر، ومحدش هيرضى بيك يا عره.

شرعت فى تركيب الوجه الآخر لمحاولة إسكات أمى الحبيبة.

ـ بقولك إيه يا وليه انتى، ممكن تشيلينى من دماغك خالص؟ من الآخر أنا مش عايز أتجوز دلوقتى.

ـ ليه إن شاء اللـه؟ عاوز تعيش... حررررر.

هل تلاحظون أن أمى العزيزة ضغطت على حرف الراء مكررة إياه بغضب ورفض، وكأن كلمة (الحرية) عند أمى تعنى الانحلال وعدم الرجولة والعار، والفعل المشين، وكل شىء قبيح فى الدنيا؟

ـ آه عاوز أعيش (حرررر) وإنتى مالك انتى؟



طبعًا قلتها بدلع مقلدًا (الآنسة حنفى) وليس بقسوة، فأنا أكلم أحب مخلوقات الأرض إلى نفسى، إلى أمى العزيزة، ذات الشخصية الخطيرة، والتى أعرف جيدًا أنها تملك كل مفاتيح النكد والتنغيص وقت اللزوم.

ـ إنت فاكر عشان متنا عايش لوحدك فى وسط البلد هسيبك تعيش حر؟ والشقه اللى إنت دافع دم قلبك فى التوضيب فى بيت سِتَّك (جدتك) خلاص نسيتها؟

ـ مش عاوزها، شكرًا أنا كده مبسوط، إرحمينى يا ماما وقفلى بقى، أنا لسه صاحى ودماغى مش فيا.

ـ أنا قلت للناس إنك عملت حادثه بسيطه، وعشان كده مقدرتش تيجى، وكانوا هما اللى جايين يشوفوك.

ـ حادثه بسيطه؟ كمان بتفوِّلى عليا؟

ـ أهو ده اللى حصل، مكنتش عارفه أودى وشى فين منهم وأنا بتصل بيهم، ياللى يجليك شلل يا عِره يا صايع يا...

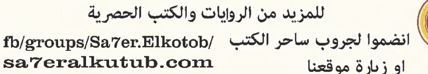
ـ عمومًا إنتى مكدبتيش، أنا فعلًا عملت حادثه امبارح، وإزاز البراربريز كله إتكسر.

ـ إيه؟!...

صوت أمى الملتاع المتخلى أخيرًا عن صرامته المعهودة وعداوته الظاهرية:

ـ وحصلك حاجه؟.... إنطق.

ـ لا أبدًا.. حاجه بسيطه والحمد لله.



ـ طيب.. عمومًا يوم الحد الجاى معادك مع الحاج (بيسونى إسماعيل).

ـ مين ده؟

ـ أبوها، إنت متعرفوش؟

ـ محصليش الشرف بمعرفة جنابه، يعنى العروسه إسمها (رضا بسيونى)؟

ـ آه إسمها كده، إسم الله على عطوه أبو مطوه، ده بتاع الطرشى فى آخر شارع ستك عنده معمل بحاله.

ـ نعم ياختى؟ جايبالى بنت الطرشجى؟ ده على أساس إيه؟ أخللها؟ وكمان إسم تامر (الفاقى) مينفعش مع بسيونى ورضا والحاجات دى.

ـ إسم الله على أبوك الوزير، مالها رضا؟ دى عليها ضحكه زى العسل، ومؤدبه، ومخلصه دبلوم صنايع وقاعده فى البيت.

ـ سلام يا ماما، مش فاضيلك، وياريت تلغى مشروع الجواز ده من أصله، بلا دبلوم بلا إعداديه، إنتى مش ملاحظه إنك بتنزلى بمستوايا بالمؤهلات المتوسطه دى؟ أنا معايا بكالوريوس زراعة.

ـ بلا نيله، قعدت فى الكلية ٥ سنين، وفى الآخر شغال بتاع طباعة.

ـ ممكن تسكتى بقى؟ كفايه كده.

فقالت كلمتها الخالدة:

ـ بوار البنت مقدور عليه لإنها مالهاش ذنب، لكن بوار الراجل معناه إنه مرفوض ومحدش عاوز يناسبه، يعنى سمعتك تبقى فى الطين.

ـ طين؟!





ـ آه زى الطين، والناس يخافوا يدخلوك بيوتهم، وهيقولوا عنك حاجات وِحشه ويطعنوا فى سمعتك.

ـ يطعنوا؟ إنتى يا وليه عاوزه تحرقى دمى ع الصبح؟

ـ آه طبعًا طول منتا مابتسمعش كلام أمك عمر ما ربنا هيرضى عنك، الراجل المحترم هو اللى يسمع كلام أمه.

ـ طب يالّا إتكلى على الله، روحى مارسى أمومتك دى على اخواتى.

ـ ماهم اخواتك؟ زى الفل.

ـ أختك فرحانه بخطيبها، وأخوك اللى لسه مطلعش من البيضة كل يوم يجيبلى واحده عايز يخطبها، وإنت الكبير قربت تخنشر ويبقى شكلك وحش، ومش عارفالك بر أرسى معاك عليه، جتك القرف عِرررره.

ـ ماما

.....

نهارك زى الفل يا ست الكل.

انتهت محادثة تكررت ملايين المرات بينى وبين أمى.

هى لا تيأس أبدًا، وتمارس علىَّ حقًّا أسطوريًّا يتمثل فى رغبتها فى زواجى ويتمثل فى عدم رغبتى فى الزواج.

لم يكن هناك ما يعيقنى فى نظرها، فأنا أعيش فى مستوى مادى ميسور، وأملك سيارتى، وحسابى البنكى، وشقتى، وشقة أخرى ورثتها هى عن أمها وتريدنى أن أتزوج فيها بين الأقارب والجيران.



وأنا رافض، وهذا حقى ولن أتنازل عنه.

مرة أخرى يرن الموبايل.

كان هذه المرة خالد صديقى.

ـ إيه يا طوط إنت فين؟

ـ أنا فى (العوامة) يا خالد، وفيه حاجه إسمها صباح الخير.

ـ صباح الخير ياسيدى، مالك متزرزر ليه؟

ـ ماما وشغلانة الجواز اللى مش عاوزه تنساها دى.

ـ معلش، هيا عندها حق برضو، عاوزه تفرح بيك.

ـ قصدك تفرح فيا، دى جايبالى لحد دلوقتى ٢٠٠ عروسة من مختلف الأشكال والأصناف.

ـ وحد طايل؟ عمومًا أنا منتظرك الليله، هنتعشى سوا.

ـ أوك.

وقبل أن أترك الهاتف، رن للمرة الثالثة من أختى المشاكسة، والتى تعتبر نفسها امتدادًا لأمى بطريقة التقمص.

ـ صباح الخير يا تمتم.. أسكت دى ماما زعلانه منك أوى.

هكذا هاجمتنى أختى المدللة بلا مقدمات.

ـ طيب يا (مايسة) إتلمى انتى زُخرى على الصبح، مش فايقلك إنتى وهيا، ومش عاوز أعرفكم أصلًا.



نطقتها حقيقية وعن رغبة دفينة فى الخلاص من كل هذا الصداع والمشاكسات التى تسببها لى نساء عائلتى بقيادة أمى.

سمعتها تضحك وهى تلون كلماتها بالسادية المتعارف عليها بين الإخوة.

- طيب ماشى.. أنا جايالك آخر النهار أنا وماما وهنبات عندك كمان عشان نازلين بكره المغربلين نشترى مفارش وستاير شقتى.

- كويس إنكم جايين عشان أسيبلكم البيت وأهرب فى أى حته تانية.

- بقى كده؟ طب والله لأقول لماما.

- قوليلها يمكن تتقمص وأرتاح منها شويه.

رحمك الله يا أمى، فأنا اليوم أتمنى لقاءك أو سماع صوتك ولو لثانية واحدة.

.....

لم تُسمع ولا صرخة واحدة تخرج من حلق (بهيجة) وهى ترمق جسد ابنتها (سارة) عالقًا فى نافذة باب المصعد، لم تدرك أصلًا أن البنت ماتت، كان جسدها يتحرك مصدرًا تشنجات، ساقاها تضربان الأرض، ويداها تلوحان وتتخبطان في الباب المعدنى للمصعد، فزعت إليها وقد حسبت أن المسكينة رأسها عالق بمستطيل النافذة الخالى من الزجاج، لم يخطر ببالها أنها الآن بصدد مقصلة فصلت رأس ابنتها عن جسدها اليافع، لم يدر بخلدها أن ما ستراه سيحولها لرماد بعد لحظات، ثمة دماء تأتى من أسفل باب المصعد، اما جارتها (ثريا) فقد هرعت إليها بعدما سمعت صرخة ابنتها (مها) الملتاعة على (سارة)، فى حين تقف (مها) أعلى السلم ناظرة



للموقف بذهول الأطفال وهى لا تدرك أصلًا حجم الكارثة. أين ذهب (رشاد) اللعين؟ لماذا لم يمد يد المساعدة؟ لم تحسبا أن الجسد بلا رأس، لقد اقتُلِعت الرأس من جذور الرقبة واندلقت لأسفل سابقَة المصعد إلى حيث بئر المصعد نفسه، اقتربت (بهيجة) تتحسس أكتاف البنت وهى تقول لجسد ابنتها المتشنج:

ـ متخافيش يا ساره، أنا اهو يا حبيبتى.

الجسد مازال ينتفض بعنف، فاقتربت منها جارتها (ثريا) لتساعدها نزع البنت من براثن النافذة لتكتشف الحقيقة المريعة. «يانهار اسود!». إن الجسد بلا رأس، وكيف لم تدرك (بهيجة) بعد؟! اهتز جسد (ثريا) البدين وابتعدت صارخة من الشناعة غير المعقولة، نظرت (بهيجة) لها باستهجان، لماذا تصرخ تلك الملتاعة بهذا الشكل؟! لماذا لا تمد لى يد المساعدة فى استخلاص رأس ابنتى المحشورة بين ضلعى النافذة، بدلًا من صراخها المبالغ فيه؟! لقد هرعت ثريا لابنتها وانطلقت صاعدة وتاركة لبهيجة مجال الصدمة لتاخذه كله، الجسد ينتفض، وبات مغطى بالدم، ظنت بهيجة أن البنت قد شجت رأسها أو جرحت نفسها بسبب غياب زجاج النافذة، هلمى يا حبيبتى، ساعدينى فى نزع نفسك، وكأن الجسد فعلًا استجاب لرغبة الأم، لتتلقى (بهيجة) جسد (سارة) فى حضنها أخيرًا، ولكن.... بلا رأس.

......

انتبه يا (عمر)، فقد ظهر شيئا فى المرآة، انتبه يا أحمق. كان عمر فى وادٍ آخر وقد أخذت شفتاه تردد التعويذة مرارًا وتكرارًا وبمستويات مختلفة من الصوت، فتارة يعلو كمن «يجعر» فى الخلاء، وتارة أخرى يهمس كالمتصنتين على الأسرار، وتارة يجمجم ويهمهم بها بداخله، كهذا وهو ناظراً لأعلى،



إننى لا أرى عيونه، ولكنى ألمح تشنجًا عامًّا يحتل جذور رقبته وينفخها بالعروق، كنت حائرًا بين هذا الغائب، وهذا الحاضر، فعمر غائباً تمامًا كما لو كان فى فورة الانغماس الكُلى فى المتعة، الوجه يتزايد كثافة وحضورًا فى المرآة التى تمثل ثالثا لنا، وجها غائرًا عجوزًا كجثة انبعثت لتشهد على جريمة، مددت اصبعى بتوتر عارم حيث يجلس عمر، فصوتى لا يجرؤ على الخروج من شفتىَّ المزمومتين بعنف، استعنت بالظلام النسبى وبضوء الشموع المتراقص والذى يتغير طوله مترددًا بين طول لافح وانبعاج مضىء، وصل اصبعى إلى ركبته، هززته بهدوء لينتبه للتطورات، لم يعر تنبيهى أى اهتمام، بل واصل يترنم، فعاودت هزّه بعنف أكبر لأجبره على العودة فلم يستجب، بل إن جسده آخذاً فى التشنج تدريجيًّا وكأنه يمهد لنوبة صرع عنيفة، نزعت القماش الأسود عن رأسى، لم أجرؤ على الالتفات ليسارى حيث المرآة، ولكنى تقمصت دور من يسعف صديقه، اقتربت منه، لقد تحول لتمثال صلب وهو على وضعه، إنه متخشب تمامًا، أهزه بغباء من كتفيه ليستفيق، رباه! إن لونه أزرق، هل يختنق الرجل؟ عمر عمر. انتاب الذعر جسدى، وفقدت السيطرة على دموعى، وبدأت أبكى رغمًا عنى من رهبة الموقف، ومن الذى لا أستطيع النظر إليه!

لنحسبها معًا أيها القارئ: ظلام + حمام + شموع + صرع + تجسد = ...؟

.....

يوجد من الأيام ما هو يمثل لك اليوم المفصلى، أو وكما يسمونه علماء الفلك بيوم (القطع)، وفيه تتجمد حركة الكواكب لتشهد على مصير حتمى سيظهر. إنه اليوم الذى ينزل فيه تتر النهاية على شىء ضخم فى حياتك، اليوم الذى تنقطع علاقتك بشخص وبشكل نهائى، مع أنه كان يمثل لك

بؤرة الاهتمام، اليوم الذى تتعرض فيه لحادث أو إصابة بالغة، أو أن تتعرض كليًّا للموت وتنجو بأعجوبة، اليوم الذى تُغتصب فيه أو تُختطف أو حتى تُقتل فيه، اليوم الذى تتغير فيه معتقداتك وتخرج فيه عن مألوفك، وتندفع فيه دموعك قاهرة أى تحفظ، اليوم الذى ينكشف فيه سرك وينفجر فيه كتمانك، اليوم الذى تجيئ فيه الصدمة وتمارس عنفوانها فيه، انتبه جيدًا من هذا اليوم، إنه لمفصلي فى حياتك، يغير اتجاه يقينك ويضمك لزمرة أخرى لم تكن تحسب لها حسابا، إنه يوم الإقصاء من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة، إنه يوم الانتقال من الوعي بالاشياء الى اللاوعي بنفسك أنت.

لقد استقبلت بهيجة جثة ابنتها بردة فعل عجيبة جدًّا، كانت تحرك كفيها أعلى كتف البنت، وحيث كانت الرأس موجودة تحرك يديها وكأنها تملِس على شعر ابنتها الطويل، ثم تضم الجسد وتقبله فى مكان الفم فى الرأس الغائبة، حتى مع هلع (مها) وصراخ (ثريا) الذى شق أجواز الفضاء وهم يرمقونها من أعلى الدرج حيث هربو من حيز بهيجة وجسد ابنتها، كانت المسكينة (بهيجة) تمارس الهدهدة والتربيت بكل حنان على جسد ابنتها مقطوع الرأس، كيف لم تلتفت لكل هذه الدماء؟ ومع الثوانى القادمة تجمهر الجيران على السلم، يبصرون العجب فى هدوء (بهيجة)، بل كانت تحتضن الجسد المتمخض فى الدماء بكل اطمئنان، بل إن الجيران سمعوها تهدهد جسد ابنتها....... وهى تغنى.

.....



اليوم ٢٢ يونيو ٢٠٠١

عائد أنا من سهرة فى بار (كاب دور) فى شارع جواد حسنى، أترنح قليلًا ونسائم الصيف تداعب وجهى بغواية، وتذكرنى بفراشى الخالى المنتظر، ولكنى اليوم بالذات حزين، وأشعر بانهزام داخلى عنيف، لقد فجعت بخبر مقتل، أو انتحار، أو موت (سعاد حسنى) مثلى مثل ملايين المصريين، أعترف أننى أعيش فى عصر من الخنوثة العامة الطاغية فى عز حكم مبارك المغلف باللزوجة، ثمة امتزاج عام بين مصالح الناس وأسس الحكم فى مصر، الكل يكسب قوت يومه والأسعار فى المتناول، والخدمات تلعب على أوتار الاستقرار الرخو بمنتهى الرسوخ، ولكن خبر مصرع هذه الفنانة ألهب مشاعر كثيرين، خصوصًا وأننا سمعنا أن وزير الإعلام المرعب (صفوت الشريف) متورط فى التخطيط للخلاص منها، من الواضح أنها تجرعت الذل والإهمال فى أوروبا، وصاحب ذلك مرضها وسمنتها التى أوشكت على تدمير ملامحها بالكامل، لقد كرهت المرأة النظر لوجهها فى المرآة، سالومى الجميلة باتت منبعجة تخجل من أن تراها عين تعرفها، الحل فى السفر لأوروبا، المصحات والعلاج المكثف، سأعود حتمًا، سأعود للأضواء، ولثقتى بنفسى، لابد أن المسكينة عانت وتذوقت مرارة الواقع المهين، لم تتحمل، قررت هدم المعبد، قررت نبش القبور، قررت أن تكتب مذكراتها، كيف تم استغلالها، من هم أصحاب الأقنعة، هى آتية من زمن عفن جدير بالتسجيل، بل شهدت أفلامها جزءًا لصيقًا بحياتها الشخصية. كان كل رواد البار يشعرون بالأسى والشجن لرحيل تلك الرائعة بهذه الطريقة، بل تولد للجميع شعور عام بعقدة الذنب تجاهها، حتى أمى، وأختى وكل من أعرفهن من نسوة العائلة بكيّن بحرقة لمصرعها الدرامى الغامض، كانت هذه الأفكار تدور برأسى حين تولدت لدىَّ فكرة، لماذا

لا نقوم بتحضير روح سعاد حسنى، نستدعيها، نستجلبها، نسألها، نواسيها، نقدم لها العزاء مباشرة؟! إن رأسى يترنح من أثر البراندى الدوار، وطعم الفول النابت مع الخيار المملح والترمس يمثلون عوائق ضد انهيارى التام، تقمصت الإفاقة وتركت البار متوجهًا لبيتى القريب، أعرف تعاريج وسط البلد الآن، وأمشى فى الطرق التى لا يقابلنى فيها رجل الشرطة اللزج المستغل، إنهم يعرفون جيدًا أماكن السهر وبؤر الخمور فى ثنايا وسط البلد، ويتربصون بالخارج منها لكى يقايضوه على ليلة فى التخشيبة أو لتبرز ما فى جيوبك من أموال، لقد وصلت الأتاوة لعشرين جنيهًا كاملة، علاوة على نظرة الاحتقار والتلفظ بإهانات كثيرة وكأن رجل المباحث يمثل دور ابيك، أدرت سيارتى الراقدة منذ ما يقرب من أربع ساعات قضيتها فى الثرثرة مع جيرانى المخمورين فى تلك الحانة الكلاسيكية، خرجت لميدان التحرير، وعرَّجت فى طريق وزارة الداخلية نفسها لأتخلص من عملائها اللزجين المنتشرين فى الشوارع الأخرى، قبل مشوار العودة لبيتى أريد بعضًا من البقالة، عرَّجت سالكا طريق العتبة، وبالقرب من عمق شارع محمد على الشهير، واتجهت من فورى للمخبز الإفرنجى، ابتعت أرغفة من الخبز الفرنسى المقرمش، إنه غالى الثمن، إن الرغيف الواحد بجنيه كامل، يصل طوله لمتر تقريبًا ويُخبز بطريقة أعشقها، بين لدونة مقرمشة، ولب ناعم رائع الطعم، عرجت على البقال العتيق على ناصية الشارع، أذكر أن اسمه كان الحاج (طريان). كان وارثًا للمحل من معلمه الخواجة اليونانى، يبيع مذاقًا وليس بضاعة، تتراص صنوف الخمر عنده على رفوف خشبية عتيقة إلى جوار معلبات التونة والبلوبيف الإفرنجى وزيت الزيتون، لا يفتح حانوته إلا بعد منتصف الليل لزبائن محددين، عبوس الوجه، صارم وأمين فى نفس الوقت، إنه عم (طريان) بقالى المفضل دائمًا وأبدًا،



إنه يعرفنى ويعرف ذوقى فى الطعام، جاءنى بقطعة جبن معتق لها رائحة السمك المملح، أشار لى بسكينه الطويل وعلى طرفها ندفة من الجبن كى أتذوقه. ممم... إنه رائع مالح، يجعل حلمات لسانى تنتفض منتبهة فى إثارة وانتصاب، زدنى منه نصف كيلو يا عم (طريان)، وأكرمنى بشرائح الجبن الرومى العبق الرائحة والمسمى بالبطارخ، أحبه مع الجبن العادب والخبز الفرنسى، ضع لى منه ربع كيلو، هل جلبت الزيتون الكالاماتا؟ أعطنى ربع كيلو ولا تنسَ الحلاوة الطحينية التى أفضلها سائبة غير معلبة. كان مشوارى للبقال من المشاوير التى أحرص عليها، أحب أن أزين ثلاجتى بمختلف الأنواع من الجبن والمعلبات. خف تأثير الخمر كثيرًا الآن، وراح عنى ذلك الدوار اللعين، لكننى أشعر أننى أسير على سطح مركب فى النيل، ثمة اهتزاز جميل يجعل وزنى أخف بالثلث تقريبًا، نقدته المبلغ وزادنى بسمكة (رينجا) كهدية، ونفحنى زجاجة ويسكى مستوردة بنصف ثمنها.

ـ دى عشان خاطر المعلم عطوه المهذب بـ ٥٠ جنيه بس، تمنها الأصلى بـ ١٧٠

ـ كام فى الميه دى يا عم طريان؟

قلبها بين يديه وأشار لرقم صغير

ـ ٦٠٪ يعنى كاسين وبس يا عطوة.

نقدته المبلغ شاعرًا بالسُّكر يدب مجددًا فى أوداجى، نعم لقد تعلمت الشرب من صديقى (عمر) الذى قال لى يومًا وهو يلف سيجارة الحشيش وهو يقود السيارة بلا اى خوف ولا توجس من رجال الشرطة.

ـ واحد عايش لوحده فى وسط البلد، ومعاه عربية وفلوس يعمل إيه؟

يشرب طبعًا ويسهر، ده إنت فى وكر الملذات اللى إسمه وسط البلد يابنى.

.....

وصلت لعمارتى الكائنة بشارع عمومى كبير لن أذكر اسمه، ركنت سيارتى بصعوبة، وحملت كل متعلقاتى وسرت أترنح بحملى إلى أن وصلت لباب العمارة المغلق بالمفتاح، عالجت الرتاج العتيق بصعوبة ودلفت للداخل، حيث مدخل عمارتى المطعوم بالرخام القديم، وبلوحة الرسائل الخشبية العتيقة غير المستخدمة إلا فيما ندر، واجهتنى برودة بالداخل، ثمة شيء يجعل مداخل العمارات القديمة باردًا، حتى فى أعتى لحظات الصيف، لن يعرف هذا الشعور إلا من مر من أمام مداخل العمارات بوسط المدينة وهو يتسوق فى هجير الصيف، إنها هبّة باردة نقية تأتيك متخللة عرقك وشعور بالقيظ، يقولون إن المنشئين تعاملوا هندسيًّا مع المداخل بحيث تصبح كمداخن الحاتى، تأخذ الهواء الساخن الخفيف لأعلى وتخزن البارد الثقيل لأسفل، كما أنهم كانوا يراعون اتجاه الريح وتعامد الشمس على البنايات.. تصوروا! وصلت لباب المصعد الخشبى، لالالالا، لافته من الورق المقوى مكتوب عليها بخط طفولي (الاسانسير عطلان)، ماذا؟! هل أصعد العشرة أدوار على قدمىَّ المهتزتين بالكحول والبقالة؟! الصمت يلف المكان تمامًا وأنا قلت لكم قبلا، إن عمارتى تنام من التاسعة مساء، يتحولون لدببة قطبية فى بيات شتوى مؤقت، ماذا دهى هؤلاء الجيران؟ لماذا لا يدركون ثراء المنطقة ويستفيدون من إستراتيجيتها كما أفعل أنا؟! من أين تأتى لهم الرغبة جميعًا فى النوم مبكرًا وإغلاق باب العمارة عليهم وكأنهم مرضى فى عنابر؟! انتظرت قليلًا كى أتخذ قرارًا محتومًا بالصعود على الدرج، صدى الصوت المنبعث من خطواتى الصاعدة من تنفسى



المضطرب، وصوت أكياس الطعام تسليني فى رحلتى الصاعدة للدور العاشر حيث (العوامة)، أقاوم الترنح بتسلية نفسى وتنظيم تنفسى فى رحلة الصعود، سمعت أنه عندما تمارس مجهودًا عضليًا تنفس فقط من أنفك، لا تفتح فمك أبدًا، سأطبق هذه الطريقة الآن فى رحلة الصعود المريرة، أبواب الشقق توضح مدى خوائها من عدمه منها الكالح المهجور ومنها النضيد المستخدم، يشمل الدور شقتين، يفصل بينهما باب المصعد الثقيل، زفيرى يسابق شهيقى، ويخبرنى أننى على المستوى صفر فى الرياضة واللياقة البدنية، نعم لقد زاد وزنى بشكل كبير، ولكننى أكابر ولا أتعمد إظهار هذا التراجع لنفسى أبدًا، لعلها حيلة دفاعية أرجئ بها رجوعى للرياضة. وصلت للدور الثالث، توقفت قليلًا لأرتاح هوففففف انفاسى تقطعت اوصالها من الحمل والوزن والسكر، ثم واصلت الصعود المحمل بأغراض البقالة، إلى أن وصلت للدور الخامس، تعبت وتسارعت أنفاسى. تبًّا للشيشة التى أنهكت رئتىَّ على هذا النحو! جلست على الدرج الرخامى العريض، وضعت كل الأكياس جانبى ريثما ألتقط زفيرًا منتظمًا، لا أعرف جيرانى بالتحديد، أقابلهم صدفة لا أكثر، أهز رأسى لهم فيبتسمون هازين رؤوسهم أيضًا فأبتسم وكفى، يسعدنى بشدة وجودى فى هذا الوسط المتحفظ، إنه يعطينى مساحة إضافية من الخصوصية. هبة باردة أخرى تجتاح عرقى الجديد بسبب الصعود الاجبارى، لكنها هبة لها رائحة معدنية، لا أعرف أين شممتها من قبل! على باب الشقة الاخرى ثمة أطباقا فارغة، ثلاثة أطباق، الاسم مطبوع على لافتة سوداء صغيرة، الأستاذ (رأفت الخولى - وزارة المعارف) المعارف؟! لابد أن صاحب الشقة يبلغ التسعين الآن، الهواء يأتى محملًا بتلك الرائحة مرة أخرى، رفعت رأسى لأنظر لأنبوب المصعد المفرغ أعلى ابوابه المعدنية، لكن لا حركة، الإضاءة منتظمة قاسية، ومنتشرة على السلم



بكثافة غير عادية، لماذا يتكلف الجيران عناء كل تلك الإنارة وهم الذين ينامون عشاءًا؟! بالفعل كانت الإضاءة ساطعة، لدرجة تشعرك بالسخونة الإضافية، الدرج عامر بالنوافذ الكبيرة التى تسرب شيئًا كبيرًا من أضواء الشارع، ولكن العمارة سابحة فى الإضاءة أيضًا كأنها معروضة للبيع، ثم فجأة شعرت بهبة تالية من تلك الهبات الباردة، وتزامن معها انقطاع كامل للتيار الكهربى وظلام يعم أرجاء الدرج كله.

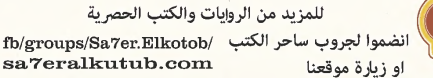
.....

تجمدت فى مكانى، أنا لا أخاف الظلام، ولكن أشيائى مبعثرة حولى وقد أنسى شيئًا منها الآن، كما إننى لست سليمًا تمامًا وآثار الخمر عالقة بعقلى، فتحت شاشة الموبايل ليرسل ضوءًا خافتًا أتحسس به أغراضى، لمتُها وقمت مترنحًا ومتحسسًا خطواتى الصاعدة، لابد من إكمال رحلة الصعود، أعرف يقينًا أننى فى الدور الخامس، أوسمه بتلك الأطباق الفارغة الموجودة على باب تلك الشقة بالذات، واصلت الصعود إلى أن وصلت للدور السادس، صعودى بطىء نوعًا ما تحت تأثير الظلام، واصلت الصعود إننى الآن حتمًا فى الدور الثامن، أليس كذلك؟ ولكنى صُعقت تمامًا وأنا أنظر للافتة الموضوعة على الباب إضاءة الشارع ترسل ضوءًا يكفى لأبصر وأقرأ، الأستاذ رأفت الخولى ـ وزارة المعارف، ألم أمر قبل دقائق من هنا بل وجلست لأرتاح قليلًا! لم أهتم كثيرًا، وظننت أنها من ظواهر (الديجافو) التى قرأت عنها، لم أقرر هذه المرة الراحة، بل واصلت الصعود، ومع أنفاسى المبهورة صعدت دورًا، اثنين، ثلاثة، أربعة. آه تقطعت أنفاسى، إن شقتى فى الدور التالى حتمًا، بضع درجات قليلة وأصل لباب العوامة، إن تنفسى يكاد يخلع صدرى من مكانه، هه. ما.. ما.. ما ههذا؟ لا لا،

لقد أبصرت لافتة تشير إلى شقة الأستاذ (رأفت) مرة أخرى.... رأفت الخولى-وزارة المعارف.... اقشعر بدنى للحظات، وانتبهت حواسى بشدة، هل تكرر (الديجافو) مرة أخرى؟،أم أننى حلمت بأننى وصلت لهذا الدور؟! القشعريرة تزحف إلى أطرافى كعناكب مشعرة الأطراف، جريت صاعدًا مرة أخرى لأرتقى الدور السادس، ولكننى وجدت نفسى أصعد مرة أخرى من الرابع للخامس، لا، نظرت يمينى لأتفحص لافتة الباب، لالالالا إنه (رأفت الخولى، وزارة المعارف)...... هل وصلكم المعنى؟ إننى أدور فى حلقة رأسية مفرغة تنتهى دومًا أمام تلك الشقة وأمام تلك اللافتة وحيث تلك الأطباق المعدنية الفارغة، جربت مرة أخرى الصعود، ولكن فى كل مرة أصل لذات الدور، ماذا أفعل؟ أنفاسى انقطع عنها الوقود الرئوى، وبت «أشحر» كالموتور الصدئ، إننى فى ورطة، قررت النزول والخروج تمامًا من تلك الدائرة، غيرت اتجاهى لأسفل، وشرعت فى النزول من ذلك الدور الخامس الخالد.

ولأجد نفسى أنزل لذات نفس الدور مرة أخرى وحيث اللافتة إياها، فواصلت النزول لأجد نفسى فى كل مرة أقف عند ذات الموضع، لابد أن فى الأمر سحرًا ما، توقفت تمامًا عن المحاولات، وجلست للمرة الثانية على الدرج، إلى أن رأيت شيئًا مفزعًا لم أتوقعه أبدًا....

هل تسمعون معى ذلك الصرير؟ صوت باب يُفتح ببطء وهدوء، نعم هو كما توقعتم، إنه باب شقة الأستاذ رأفت نفسه. كان صرير الباب خافتًا، ولكنه مؤلم لأذنىَّ جدًّا كما لو كان موصلًا بمكبر صوت، زييييء طكطكطكطك، بالطبع أرسلت بصرى رغمًا عنى نحو الباب والذى يبعد عنى أمتارا قليلة، الضوء لا يسمح بالرؤية الجلية، ولكن يكفى لإثارة هلعى،

فمن خلال شق الباب رأيت سيدة قاسية الملامح، بيضاء بلا حاجبين، وتلمع عينها الجرداء على صفحة وجه شاحب متغضن مشدود بالغضب والقسوة والجنون، تلبس سوادًا فى سواد، فبرز شحوبها كطرف سيجارة مشتعل فى الظلام الحالك، انتابتنى مشاعر الخوف تنشب إبرها السامة فى جلدى، ونزلت درجتين لأتوارى عن ناظريها ـ لأسفل لأسفل لأسفل، نزلت بمؤخرتى درجات، ومع أننى أرى المشهد بوضوح، وسعت هى شق الباب أكثر لأسمع الزيبيىء طكطكطك مرة أخرى، وخرجت قليلًا وهى ممسكة صفحة كبيرة عليها أطباق، وجدتها تضعها على الأرض وتستبدل الأطباق الثلاثة الفارغة بأطباق مليئة بالـ.... بالـ... ما هذا؟ رائحة ما تصل لخياشيمى، إن الأطباق مكتظة بطعام منزلى جدًّا ساخن ينبعث منه البخار، ومن الواضح أنه معد باهتمام كبير، هل يدور ببالكم نفس السؤال؟ لماذا نضع طعامًا ساخنًا على باب شقتنا؟ طبق به أرز ساخن، تنبعث الأبخرة من قمة الكومة الموضوعة بالطبق، ثم طبقًا من الخضار المطبوخ لم أتبينه جيدًا، أحسب أنها فاصوليا مثلًا او بازلاء، أو أننى أعرف تلك الرائحة، كان طبقًا من السبانخ، إنها سبانخ باللحم، أعرف أنها الأقل شعبية بين الأكلات، وطبقًا من السلاطة الخضراء، وجبة من الممكن أن تجدها على مائدتك وقت العصر وقد رجعت من عملك أو مدرستك ووضعته امك أمامك بكل حنان أمرتك بأن تأكل السبانخ لأنها مفيدة وترمم العظام وتزدخر بالحديد، لكن لماذا تضعين طعامك على الدرج يا سيدتى؟ ها....

.....

فجأة انفتحت عيون عمر على خواء، لقد سال اللعاب من زاوية فمه وبدى وكانه مصروع بنوبة عنيفة متخشبة بل انه انكفأ على وجهه فجاة وبدون



سابقة انذار، ياللوغد وياللمصيبة وياللتورط، عمر عمر افق بالله عليك لا تتركنى مع مرآتك وحمامك وطقوسك، هل قررت ان تموت الان؟ اكفات انا الاخر عليه وكانه طوق نجاه، لا اجد اى سبيل لافاقته، همممممم ينبعث منه ذلك الصوت المتشنج بالصرع والغياب عن الواقع، ضممته وانا ابكى من الهلع، دموعى لا تبرز عبر مقلتى الجافة من اثر الرعب، لقد سال المخاط من انفى جزعا وتفككا، عمر عمر عمر، ثم شهقة عاتية خرجت من فمه وكانه خارج لتوه من غطس اجبارى، الحمد لله الحمد لله، هذا يعنى انه على مازال على قيد الحياة، نظر إلىّ غير فاهم، فعاونته على النهوض بسرعة وانا استرق النظر للمرآة، هل رحل الوجه المتغضن؟! لا أبصر شيئًا محددًا تقريبًا، مددت يدى لأضيء الحمام، عمر مازال ذاهلًا عن الوجود، جررته للخارج وساعدته فى الجلوس على الفراش، وجدت لحسن الحظ زجاجة مياه بجانب الفراش، رششت منها على وجهه لينتفض مستفيقًا. كان الإعياء من نصيبى انا اكثر منه بكثير، لدرجة أننى لم أستطع التعليق، كنت أتلفت بين حين وآخر ورائى، لعل صاحب الوجه يظهر ممزقًا آخر انضباط لأعصابى، ولكنى لم يحدث لحسن الحظ، نظر إلىّ صديقى بعد أن استفاق وكلل الصمت الموقف، فتجهمت فى وجهه إمعانًا فى رفض ما قد يتأتى منه من أفكار شاذة أخرى، لن أستجيب لك أيها الأحمق مرة أخرى أبدًا. قام من مجلسه صامتا وتركنى متوجها للحمام ليجمع آثار تلك الجلسة وقد تسلط علينا ثقل من الصمت، فتحت علبة من البيرة المتراصة على المائدة فى صالة الشقة، وأشعلت سيجارة من سجائره، وخرجت للشرفة المطلة على النيل أستجدى تفريغًا أو غيابًا سريعًا، لا أريد إفساد حفل رأس السنة المترقب والذى أتعشم أن تشرفه غادتى الحسناء التى وعدنى إياها عمر، قبل أن يحدث أى تفاعل أو محادثة بيننا عما فعلناه سويًا فى الحمام،





رنّ جرس الباب معلنًا عن وصول أولى المدعوات لرأس سنة ٢٠٠٢.

.....

أصرت بهيجة على إتمام مراسم الغسل والتكفين لابنتها بنفسها، لم ينسَ الجيران وقت أن فتحوا باب المصعد فى الدور الأرضى لينتشلوا الرأس من بئر المصعد، لقد التقطوها ولفوها بمفرش وارتقوا الدرجات ليصعدوا حاملين إياها للأم الذاهلة. الشرطة والنيابة تمارسان عملهما فى استجواب الجيران، بينما (بهيجة) فى عالم آخرى، كانت تقوم بتجهيز الحمام لابنتها وهى تعتقد أنها وجب عليها الاستحمام بعد تراب اللعب على السلم، الجارات أدركن أن بهيجة تعانى من صدمة عاتية، وأنها على شفا الجنون المطبق، لكنهن التزمن الصمت حيال تلك الرهبة المصاحبة للحادث، جاءت المُغَسِّلة (وهى المرأة الموكلة بتغسيل الجسد وإعداده للدفن)، ولكن بهيجة طردتها، وقالت إنه لن يقوم بتنظيف ابنتى إلا أنا، وأمام إصرارها الجنونى اضطر إخوتها أخيرًا للرضوخ، وفى الأخير قبلت المرأة المغسلة معها، بعد أن أدخلا الرأس المقطوعة لتوضع على مائدة الغسل بجوار الجثة، دخلت بهيجة والمرأة وأغلقتا الباب بالمفتاح، وبعد ساعة فتحت المرأة الباب ليجدوا الجثة مكفنة فى طيات الكفن وجاهزة للدفن، لاحظ المشيعون أيضًا أن الرأس فى مكانها، فأخبرتهم المرأة أن الأم ربطت الرأس بالجسد وثبتتها جيدًا بشال من حرير، فقام الرجال بحمل النعش توطئة لدفنه، وذهبوا فى سياراتهم إلى حيث مقابر الأسرة فى باب الوزير، الغريب أن (بهيجة) لم تذهب معهم، بل آثرت الجلوس فى بيتها، بل وقامت بطرد المعزين بأدب وحزم، وعندما عاد إخوتها من الدفن رفضت أن تفتح لهم باب الشقة،

وأعلنت أن العزاء قد تم، حاولوا معها، ولكنها كانت صلبة لدرجة أنهم اضطروا لأخذ العزاء فى مدخل العمارة وهم لا يعرفون طريقًا للوصول لأختهم التى أغلقت هى نفسها الباب... للأبد.

.....

لم أستطع هضم ذلك المشهد أبدًا.

ما الذى يجعل هذه السيدة العجيبة أن تفتح باب بيتها فى سواد الليل وتضع طعامًا طازجًا ساخنًا على بابها؟! الأمر يبدو مثل قصص الساحرات فى القرون الوسطى، هل تضع نوعًا ما من القرابين مثلًا؟ ثارت حماستى لأبعد الحدود فى معرفة السبب، فى الأمر شىء يمت للسحر أو للنذر لا أعرف، تناهى لأنفى تلك الرائحة المعدنية العجيبة مرة أخرى، غابت السيدة فى الداخل وإن لم تغلق الباب، ثمة ضوء خافت ينبعث من الداخل، سمعت صوت خطوات صاعدة على الدرج من أسفل، لابد أنه أحد جيرانى عائد لشقته مثلى، نظرت عبر سور الدرج المطعم بالحديد، ثمة فتاة تصعد السلم، على الضوء القادم من الشارع أرى رداءها وأسمع صوت حذائها، طق طق طق، لماذا أشعر بكل ذلك التنميل فى أطرافى؟! ها.. لماذا تنتابنى قشعريرة صارمة وأشعر بدبيب الثلج يزحف إلى طول عمودى الفقرى؟! لماذا أتجمد هكذا فى مكانى؟! ستُصرع الفتاة لو فوجئت بى مستقرًّا على الدرج كأكياس القمامة، حتمًا ستفزع وتنهار وتصرخ، أليس كذلك؟ لكن التجمد هو السيد الآن وهو من يفرض علىَّ أوامره الصارمة، طق طق طق، إنها تصعد بتوءدة ويمكن أن يشى بسنوات الزهور من عمرها، وصلت للطابق الرابع، ومع دوران الدرج تمكنت من رؤيتها

بوضوح، فتاة بدينة نوعًا ما ترتدى..... ترتدى... ترتدى بيجاما منزلية قطنية، عليها الكثير والكثير من القلوب، لونها... لونها أحمر أو مشوب بالأحمر، إلى أن وصلت للدرج الذى أجلس عليه، هى فى الأسفل وأنا فى الثلث الأخير منه، ارتبكت من الإحراج، وتنحنحت بصوت واضح حتى لا تفزع من وجودى، الظلام يجعلنى لا أراها جيدًا، هى تواصل الصعود فتنحيت جانبًا حتى تجتازنى، لالالالالالالا. ممااههذا،إنها إنها.. إنها بلا رأس! لقد خدعتنى عيناى فلم أتبين ذلك النقص المريع، جسداً بلا رأس يرتقى درجًا أجلس أنا عليه فى الظلام! طق طق طق، إنها ترتدى صندلًا ذا كعب عالٍ، بدا أنه ليس لها، مقاسه كبير على قدميها الدقيقتين، طق طق طق، شعرى تحول لدبابيس صلبة وهى تقترب من مكانى، ثم اجتازتنى صاعدة دون أن تلتفت إلىَّ، أين رأسك يا فتاة؟! هل نسيتها على الوسادة؟! ذهب الجسد إلى حيث أطباق الطعام وجلس متربعًا على الأرض، هل ستأكلين الآن، كيف؟! كيف؟! كيف؟!

.....

قبيل الاحتفال برأس السنة ٢٠٠٢ فى مكان آخر..

المكان عمارة أدرياتيكا فى شارع شريف، وبالتحديد على سطح تلك العمارة المنتشر بها غرف مزدوجة أو فردية لسكان سطح تلك البناية الموغلة فى القدم، توقف سيارة مرسيدس سوداء ماركة (البودرة)، وسر تسميتها بذلك الاسم أنها فادحة الثمن ولا يقدر عليه سوى من يتاجر فى الهيروين، والذى يسميه المصريون بالبودرة، الزجاج المعتم مرتفع ليحجب البصر عن عيون المارة تجاه من فى تلك السيارة الفارهة، يجلس على عجلة القيادة رجل أربعينى أكرش، وبجواره امرأة طاعنة فى السن متماسكة، سامة النظرات،



ترتدى الجلباب الأسود والطرحة السوداء أعلى رأسها المقموطة بطرحة أصغر سوداء أيضًا، ويتدلى من الطرحة أعلى رأسها حلية فضية على شكل عين محلاة بشراشيب بيدين معروقتين، وأصابع حازمة وجسد متصلب، وتجلس الفنانة الشهيرة صاحبة شباك الإيرادات المليونى فى حقبة الثمانينات والتسعينيات، الآن هى تجاوزت الستين بأربع أو خمس سنوات، ولكن طبيعتها الرياضية جعلتها تبدو أصغر عمرًا وتلك الهيستريا النابعة من مراقبة التجاعيد جعلتها دومًا تحت عمليات الشد والتدعيم، لا شىء أقسى من انحسار نجمك وأفول سطوعك بعد بريق وشهرة طاغية! آخر فيلمين فشلا فشلًا ذريعًا جعلها أضحوكة الوسط ومادة خام للبرامج الساخرة، كما تخلى زوجها الثانى عنها وزحف لواحدة أصغر واكثر هرمونات، كما تخلت هى عن أولهم بنفس السيناريو، لكم طاردتها الكوابيس بنهاية مغموسة فى الإهانة والذل كما فعلت مع الزوج الأول والذى اوردته بيدها لموادر الفقر والذل والتهلكة! تعبت أعصابها وأعلنت أنها لا تستطيع تحمل تلك النفسية المنهارة، فلجأت للأطباء النفسيين الذين واجهوها بمخاوفها أكثر، فابتعدت عنهم كارهة، وأخيرًا هى تتقلب بين أيدى السحرة والمشعوذين لتجد حلًا لكل هذا النحس الذى بات عشيقًا لها، لقد كشر الزمن عن أنيابه لها وفحت فى وجهها افعى الزمن الغادر، وباتت سلعتها راكدة فى سوق الفن الذى لا يرحم، والذى أيضًا يؤرخ لكل كارثة تحدث لمثيلاتها، قضت سنوات لا تلعب إلا الإغراء، ولكن الآن من يعبأ بوجهها المشدود وعنقها ذو الستين؟! كانت بطبيعتها لا تحبذ الاختلاط بالوسط وتفضل الصيانة الدائمة لرونقها، ومن ثم تراجع كوكبها المضىء رويدًا رويدًا حتى انغمس فى النعاس خلف الغيوم الكثيفة، ولقد طال هذا من عزمها وكبريائها العاتى، وباتت مهزوزة باكية لا ترغب فى أى احتكاك، ورمتها الظروف إلى حيث الآن، رن محمول المرأة الشمطاء، فأغلقت صوته وأشارت للفنانة بأن انزلى

فهو بانتظارنا، ارتقت درج المدخل وركبت المصعد إلى الدور الأخير من العمارة، سارت وراءها،، وتوقفت أمام باب شقة عملاق يظهر عليه القدم والفخامة، انفتح الباب لتدخل الفنانة لشقة عظيمة المساحة ترنو لوسط البلد من ارتفاع أربع طوابق، معزولة الصوت، أنيقة لدرجة اللمعان، أشارت لها الشمطاء بأن تتبعها، فتبعتها لغرفة شديدة الاتساع فارغة، إلا من منضدة ومقعدين من نفس الطراز الفيكتورى العام فى الشقة كلها، تبعت المرأة إلى حيث أشارت لها بأن تجلس، ثم أظلمت الغرفة تدريجيًّا حتى لم يعد إلا مصدر واحد فقط هابط من السقف على شكل قمع، انتظرت طويلًا قبل أن يهل الأستاذ بطلعته التيسية التى تبعث الرجفة فى الأوصال، إنه أنت يا (لبيب)، هل تذكرون لبيب؟... حيث المقابر والشياطين والانتصار المبهر على ساحر عتيد مثل هزاع، لقد تطورت يا لبيب، وما عادت هناك أثمال ولا مقابر ولا أتربة، لقد صعد نجمك بسرعة الصاروخ، وتناقلت الألسن معجزاتك التى تربح من ورائها الملايين بلا مبالغة، لقد تسرب نفوذ لبيب إلى أرقى الأوساط وحل معضلات كبرى كما لو كانت أشياء عادية، وأثار ذهول الطبقة العليا التى تكتمت على وجوده حتى لا يصل لوسائل الإعلام او لمنافسيهم، ولكي يستفيدوا منه أقصى استفادة، لقد كانت قوى لبيب السحرية تفوق أى شخص آخر، إنه نفسه كأنه شيطان ينقصه الحافران والقرون، بوجهه التيسى العجيب وحجمه الذى لا يتعدى حجم مراهق لم يبلغ الحلم بعد، توترت الفنانة وهى تراه مقبلًا عليها، قامت لتحيته، فأشار لها بحزم أن تجلس وأشار لـ (مندورة) فرحلت عن الغرفة، وتبقى وجهان يحدقان فى بعضهما، وجه الممثلة المتقع، ووجه لبيب المدببة قاعدته بكل قسوة.

....



انغلقت بهيجة على أحزانها ولم تعد موجودة فى حياة العمارة من أساسه، فقد انزوت الفاجعة فى ركن ظليل لتجتر بهدوء تلك الكارثة التى حلت بها كأم، أم وجدت رأس ابنتها الحبيبة مفصولا، لم تخل بهيجة من جنون مطبق، بل وعزمت فى نفسها شيئًا يعكس إضرام النار فى معتقدها وشرخًا ممتدًا فى نفسيتها، لقد انحرفت لدرجة لم يكن لأحد يتوقعها، بعد أن كانت المسكينة منكسرة الجناح التى تعبس بمجرد ما يروز وجهها الابتسامة، باتت تنعق فى ظلمات نفسها كالبوم، تأكل القليل، وتشرب القليل، حتى صارت كالخيال، إخوتها لم يعودوا مثل السابق. فقدوا اهتمامهم بها بعد أن ظهرت بوادر الخلل النفسى عليها، بل إنهم انقطعوا عن زيارتها بعد حوالى شهرين من حادثة الابنة، تركوها تلعق جراح قلبها بصمت وتتقرب للشيطان تبجيلًا وتقربًا، لقد زلت بهيجة لبئر اليأس، حتى تواسى أحزانها وتحتفظ بابنتها طوع رغبتها، إنها لا تريد غيرها، لقد أمر الله بقطع رأسها لابد أن يساعدنى الشيطان فى استرجاعها..... لقد احتفظت بهيجة برأس ابنتها المقطوعة... كيف ذلك؟ لنعد مشهد جنازة (سارة) ولكن من زاوية أخرى، خلعت بهيجة سلسلة ذهبية عملاقة عن صدرها وأعطتها للمغسلة، طالبة منها أن تحفظ السر وتساعدها بالاحتفاظ بالرأس، شيء ما صرخ داخلها أن احتفظى برأس ابنتك يا بلهاء، إنها الذكرى القوية والكود المعقد الذى قد تستدعين به ابنتك وقتما تريدين، إن الأرواح دومًا تهيم حول الجزء المقطوع من الجسد، انها ذات القصة فى كل مرة، الروح تسبح فى الاثير المحيط بالجزء المفصول عنها، وبالفعل احتفظت بهيجة برأس المراقهة ذات الشعر الاسود الطويل، لقد غلفتها بالبلاستيك ووضعتها فى أعماق المجمد المسطح (الديبفريزر)، ولخمسة عشر عامًا متواصلة تحتفظ



بهيجة بالرأس فى مبردها الكهربى المسطح، وتخرجها فى أوقات محددة تعرفها بهيجة عن ظهر قلب.

.....

جلس الجسد متربعًا أمام صحون الطعام ينتظر ثمة شيئا يجعلك تشعر بأن الرأس الغائب حاضر وينظر للطعام، انه احساس التقدير الفراغى للأشياء والتى يجعلك على علم بمكان زر النور ومكان الهاتف المحمول ومكان خفك المنزلى اذا ساد الظلام فجأة، اننى انظر للمستحيل فعلا ولكن الذى يهدئ من توترى هو خوفى الشديد من اكتشاف وجودى فى هذا المشهد المذهل، مرت برهة من الوقت إلى أن سمعت خطوات قادمة من عمق شقة السيدة، إنها تحمل شيئًا بين يديها بحرص شديد، وصلت إلى حيث يتربع الجسد، ثم وضعت على كتفيه ما كانت تحمله بحرص بين يديها، لاااااااااااااا، هل هذا حقيقى؟ لالالا، لقد وضعت السيدة رأسًا على الكتف، ولكنها لم تتخل عن امساكها به كانت ما تزال تقبض عليه بحرص وترقب، ولكن ما إن شعر الجسد بأن الرأس موضوعة على كتفه حتى بدأ.... حتى بدأ.... حتى بدأ بتناول الطعام بشهية كبيرة، يداه تمتدان للصحون لتأكل وتلقم الفم الطعام، ما هذا العبث؟! بينما السيدة تنتظر فى صبر أن يفرغ الجسد من طعامه الساخن، الوقت يمر بلزوجة القشعريرة، بينما الجسد مستمر فى التهام ما فى الصحون، إنه الجنون المطبق، يريد أن يدق أبواب عقلى بهراوة الفزع، التزمت الصمت العميق حيال الحنون الذى اراه، ليس لدىَّ أى خيار اليدان تمسكان بالملعقة وتلقمان الفم نفحات من الارز والسبانخ، هل سيخرج الطعام من اسفل العنق كما هو متوقع، لا لم يحدث، من الواضح ان طعام يخرج من الفم للجسد دون تسريب،



انتهى اخيرا، لقد تناول جل ما فى الاطباق عدا السلاطة، أبصرت الأم ترفع الرأس وتضمها مرة أخرى لصدرها وتقوم لتغلق الباب وراءها، بينما الجسد يقوم من جلسته الأرضية ليعاود النزول مصحوبًا بطق طق طق، لقد اجتازنى هبوطا مرة اخرى بالفعل. لم يلتفت لوجودى، وكيف يلتفت أصلًا وهو بلا رأس! وبمجرد اختفائه عاد الضوء الكهربائى المبهر للدرج، كاشفًا عن وجهى المصفر وأسنانى التى تصطك من الهول والفزع والجنون الذى رأيته قبل دقيقة واحدة!

.....

دعونى أعرفكم بجارتى الأبلة «مادلين»، لا أعرف مصدر كلمة «أبلة» فى اللغة، وإن اعتبرتها لقبًا يطال السيدات ذوات التعليم والثقافة، أو اللاتى يعملن فى التدريس أو التوجيه ربما، ولكننى أعرف أننى أحب أبلة مادلين العزيزة إلى قلبى أيما حب، فهى جارتى فى الدور الثامن، طيبة القلب سبعينية العمر، لها ابتسامة وطريقة فى الكلام تشعرك بالألفة، هاجر كل أولادها لأمريكا تاركين أمهم تحملق فى الصليب وتصلى من أجل سعادتهم ورخائهم، لم تشعر بظلم أو وحدة، بل إنها كانت تشرف على أمور كثيرة جدًّا، مثقفة كانت، خريجة مدارس الراهبات، عاشت حياة زوجية قصيرة لم تتعدَّ السبع سنوات، إلى ان سقط زوجها صريع الشلل وهى مازالت فى عز عز شبابها، انكفأت على تربية أبنائها وخدمة زوجها العاجز طوال أربعين عامًا، رحل الزوج حاملًا الامتنان والمسرة لها وضامنا لها ركنا ظليلا فى الفردوس نظير اخلاصها وانكبابها على تربية أولادها، وغادرها الأبناء إلى حيث الثراء واللغة الإنجليزية التى كانت تكرهها وتفضل عليها العربية، بل ورفضت أن تأخذ تأشيرة الهجرة كما أوعز لها الابناء،



وفضلت أن تكمل الحياة حيث تريد هنا فى وسط البلد، إلى أن سمعت خبر معتمًا عن ابنها الأصغر والأحب لقلبها، لقد مات فى حادثة سير فى أمريكا، انكفأت مادلين على وجهها ثم اعتدلت بفم معوج وشلل نصفى أوردها الفراش، لتظهر أختها الصغرى (الأبلة مارى)، الحازمة الجادة فى حياة اختها التى باتت قعيدة بلا حول ولا قوة، الأبلة مارى تجاوزت السبعين هى الأخرى بسبع سنوات، سمينة الجسد، بيضاء الشعر تمامًا، تلبس الأسود دومًا، ولكم أن تتخيلوا سيدتين على مشارف الثمانين، واحدة منهما تعتنى بالأخرى، كنت أعرف الأبلة قبل أن يطيح الحزن بصحتها، كانت مشرقة، مهتمة بى، وتعرفت بأمى ومدحتنى فى غيابى، بل عندما أراد صاحب العقار أن ينهى التعاقد معى تصدت له وأصرت على بقائى فى العمارة، اعتبرتها جزءًا لا يتجزأ من حياتى فى وسط المدينة، ووجدت نفسى أخدمها بإخلاص وتفانٍ، وأقضى فترة ما بعد الظهر فى عيادتها والاهتمام بطلباتها ونقلها من الفراش إلى الكرسى المتحرك والعكس، كانت ترافقها أختها المختلفة عنها فى الشخصية، كانت حازمة، عملت فى مجال التعليم إلى أن خرجت على درجة وكيل وزارة، لا تحلف إلا بروح لويس، زوجها المقبور من ثلاثين سنة، والتى عاشت على ذكراه بلا أولاد، كنت أراهما مثالا حيًّا للوفاء والتعاطف، فالأخت الصغرى البالغة من العمر أرذله تهتم بأختها وبتنظيفها، وتهتم بعلاجها وتمريضها، بل إنها تركت شقتها الفسيحة فى مصر الجديدة لترعى أختها الكسيحة بوسط البلد، وكانت أبلة مادلين هى من مدّنى بكل حكايات سكان العمارة، وهى من حكت لى حادث المصعد مسبقًا فى جلسة سمر نهارية، لأنكم كما تعرفون ان بابهم يغلق من الساعة الثامنة كما بقاى الجيران.

طرقت الباب، ثم مددت يدى عبر نافذة الباب الحديدية لأفتح الرتاج،



كما تعودت أن أفعل دومًا عند الدخول لشقة أبلة مادلين، تقابلك الصور الكنسية بمجرد الولوج للشقة، ثمة صورة كبيرة للبابا السابق (البابا كيرلس)، وأيقونات وصورة عملاقة للعذراء وصلبان معلقة بأناقة على الجدران، ثم الغرفة الأمامية، وبها الفراش الطبى التى تقبع عليه الأبلة ليلًا ونهارًا.

ـ كنت فين يا تاااااامر ؟؟؟

هكذا صاحت فى وجهى غاضبة. أحب لهجتها فى الغضب، فهى تذكرنى بالراحلة (سناء جميل) فى أدائها المتشنج الطيب، كما انها تمط حرف الاف فى اسمي ليصبح له رنة عصبية محببة.. تااااااااامرررر، أحاول استفزازها أكثر قائلًا وأنا أتصنع النعاس:

ـ هاااااوم كنت نايم يا أبله.

ـ ناااااايم لحد دلوقتى وسايب مارى تمرمطنى؟ بهدلتنى وهىَّ بتغيرلى وشخطت فياَ، يا عدرا خدينى عندك عشان مارى بهدلتنى أوى.

يخترق المشهد صوت خطوات أبلة مارى البطيئة جدًّا إذ إنها تعتمد ـ المسكينة ـ على مشاية كبار السن ذات العجل، وقد وضعت على قمتها صينية الطعام المخصصة لأبلة مادلين، طبق اليوم هو قطعة سمك مقلى، وأرز أبيض وسلاطة، ما إن دخلت الأبلة مارى حتى سكتت أبلة مادلين عن الحديث المباح والشكوى الساجية، ونظرت لها وقالت بحزمها المعتاد:

ـ أنا مش هتكلم يا مادلين خلاااص، إنتى راح تمشى فى جنازتى قريب.

ـ أمشى إزاى يا غبيه وأنا مشلوله كده؟، إنتى خربشتينى وإنتى بتغيريلى.

فلتت من فمى ضحكة رغمًا عنى. لقد كانت محادثتمها تخلب لبى



وتجعلنى أقهقه رغما عنى، فالجو مشحون بصراع أقرب ما يكون للشكل الكارتونى.

امتقع وجه أبلة مارى الصارم، وشعرت أنها ستلقى بالصينية فى وجهنا، فأسرعت وأنزلت الصينية إلى المائدة المجاورة للفراش حتى لا يحدث فعلا، وساعدت أبلة مارى فى الجلوس على مقعدها المفضل بجانب فراش مادلين، وسمعتها تزوم بألم من مفاصلها وهى تنادى السيدة العذراء بأن تعينها على خدمة اختها المشاكسة

ـ خلاص بقى يا أبله مادلين، أبله مارى تعبت وإنتى مش بتبطلى نقار وشكوى حرام عليكى هلكتيها.

فصرخت أبلة مادلين معترضة على تقريرى:

ـ يعنى أنا مجنونه يا تااااااامر؟ إنت وهيا عاملين عليا رباطيه؟ أنا خلاص بدعى ربنا إنى أموت وأخلص، مش عارفه أعمل إيه عشان أنتحر وأخلص منكم.

نظرت لها مبتسمًا وغمزت لها بعينى قائلًا:

ـ أيوه أيوه إعملى الشويتين بتوعك وقطعى قلبنا، قديمة إلعبى غيرها.

تبتسم أبلة مادلين بجزل وتضحك هى الأخرى، بينما أبلة مارى تنظر إلينا بغيظ، فأقوم مستعدًّا لعملية إنزالها من الفراش إلى المقعد وهى عملية معقدة تديرها أبلة مارى بحرفية عالية إلى أن تستوى أبلة مادلين على مقعدها لتأكل غداءها وتتناول الدواء، يوميًّا كنت أشارك فى هذا المشهد لعشر سنوات متتالية، رحمها الله، لقد ماتت أبلة مادلين وتبعتها أختها



بعد أسابيع وكأنها رفضت أن تواصل العيش بعيدًا عنها.

.....

إلحقني يا تامر.. كان هذا صوت أبلة ماري الملتاع عبر الهاتف، نظرت للساعة فوجدتها الواحدة بعد منتصف الليل، أصلًا لم أرَى أي جار لي بعد التاسعة كما قلت لكم، فما بالكم بمكالمة في منتصف الليل من أحدهم؟! أسرعت خارجًا من شقتي ونزلت دورين حيث شقة جارتي، الباب مفتوح، فهرعت للداخل لأجد ماري تجلس دامعة، بينما أبلة مادلين فاغرة الفم ممتقعة الوجه، هل ماتت؟ اقتربت منها وقربت وجهي من نفسها، ثمة نفس يتردد بلا شك، هززتها بعنف فلم تستجب، رجرجت الفراش بيدي ففتحت عينيها ناظرة لي في غضب:

ـ إنت إيه اللي نزلك دلوقتي يا تاااامر؟ هو حصل حاجه لماااااري؟

نظرت لها وتنفست الصعداء، لقد ظنت المسكينة أنها فارقت الحياة، فولولت وفتحت باب الشقة تستجدي مساعدة الجيران، الغريب أن أحدًا لم يهب لمساعدتها، فقط وجدت أمام عيني السيدة ساكنة الدور الخامس تنظر لنا شذرًا:

نظرت لها أبلة مادلين بخوف وتطير، بينما أطرقت أبلة ماري بنظرها أرضًا لتتجنب مواجهة ما، أنا من نظرت لها مباشرة، لاحظت أن السيدة تمتلك سطوة ما هنا على الجيران، إن لهذا طعمًا لا أعرفه، لابد في القصص من أشرار بمخالب وطيبين بلحم طازج، كي ينشب الأول مخالبه في الثاني، أنا شخصيًا لا أعترف بهذه الطريقة ولا أرجو تعاطفًا مع أحد دون الآخر، أنا فقط أسرد الوقائع وأنتم من يحكمون عليها، شيء ما في هيئتها يبعث



على الرجفة، ان حولها هالة رمادية باردة شديدة التطرف بوجهها الشاحب وتركيبة جمجمتها المكعبة وتلك الحسنة أعلى شفتيها الرفيعتين، إنها لا تبذل أى مجهود فى التعبير عن نفسها، كفانا حضورها الصامت المقبور، تركتنا السيدة دون وداع، كانت تلبس روبًا شتويًا ثقيلًا وتتناثر شعيراتها المتعرجة خارجة من غطاء رأسها الذى لا أعرف اسما له، بينما كانت تحتضن قطيطة صغيرة لا يتعدى عمرها الشهر، تموء بلطف يمزق أعتى القلوب، وما إن خرجت السيدة من الكادر حتى تنهدت مارى:

ـ بسم الصليب... يا عدرا إحمينا.

نظرت إليها وأنا غير فاهم، وأجلت التوضيح لجلسة رائقة بينى وبين أبلة مادلين نفسها.

.....

بنتها رأسها اتقطعت فى الأسانسير يا تاااامر. ـ

هكذا صاحت أبلة مادلين فى وجهى، مع أننى كنت أتحدث هامسًا لها. انتبهت مارى لحديثنا ونظرت إلىَّ قائلة بصراحتها وحذرها:

ـ إنت فضولى يا تامر جدًّا.

ـ بس عاوز أعرف إيه حكاية الست دى.

صاحت أبلة مادلين بلهجتها العصبية نافدة الصبر:

ـ بهيجة دى ساحرة بتعبد الشيطاااان.

إشارت لى أبلة مارى بأن أقوم لأغلق باب الشقة المفتوح دومًا بالنهار.



ـ إسكتى يا مادلين إحنا مش ناقصين.

ـ مش بخاف منها أنا يا مااااارى هتعملنا إيه يعنى؟

عدت أدراجى أسأل أبلة مادلين والتى لا يبتل فى فمها الفول، وعلى مقعدها المتحرك شرعت أبلة مادلين فى السفر سبع عشرة سنة للماضى، وبالرغم من اعتراض أبلة مارى الحازم فى أن تصمت أختها، ولكن الأخيرة تنهدت ومسحت الأكل عن فمها بمنديل أبيض وامتصت جرعات من عصير التفاح عبر ماصة بلاستيكية (شفاطة)، وشرعت تحكى حكاية بهيجة وابنتها.

.....

لقد مرت ثلاثة أعوام كاملة، كانت بهيجة قابعة خلف ستار أحزانها القاتم، ثم بدأت أشياء غريبة فى الحدوث، أضرمت النار بين بهيجة وثريا، إذ إن بهيجة تتهم أبناء ثريا بقتل سارة، وبالطبع ردت الجارة أن لا ذنب لهم بما حدث، وأنه قضاء وقدر، وفى معركة كبيرة لن ينساها الجيران حين فوجئوا بـ (بهيجة) تنشب أظفارها فى ثريا، فى مدخل العمارة، لقد حاولت ثريا أن تسترضى بهيجة وأن تجدد عهد الجيرة والصداقة التى انقطعت لثلاث سنوات، قابلتها صدفة أمام مدخل العمارة، اقتربت منها تحاول أن تتواصل، لكن بهيجة تحفظت ولم تهتم بها، اقتربت منها (مها) والتى صارت غادة حسناء فى السادسة عشرة، نظرت لها بهيجة طويلًا لدرجة أشعرت ثريا بالقلق على ابنتها، ثم فجأة نشبت معركة حامية بين الأم المكلومة وبين جارتها وابنتها، لقد تحولت بهيجة لنمر مجروح عاتى الشراسة، وأقبلت تخلع طرحة ثريا وتمزق شعرها ووجهها بأظفارها، لم تستطع البنت الدفاع عن أمها، بل وقفت تنظر بذهول لما يحدث بين الاثنتين إلى أن تجمع المارة



وبعض من الجيران الذين خلصوا (ثريا) من براثن (بهيجة) والتى صعدت الدرج تاركة كل هذه الفوضى تعم أرجاء المدخل. لم تكن بهيجة تستخدم المصعد نهائيًّا لسبب تعرفونه جيدا، وبعد أسبوع بدأت الكوارث، أولها عندما وجدوا ثريا مغمى عليها على السلم أمام شقة بهيجة، وعندما أفاقت صعدت لشقتها بالدور السادس، وحاولت أن تلقى بنفسها من الشرفة، إلا أن رشاد ابنها الأكبر أنقذها فى آخر لحظة قبل أن تقفز مباشرة، لم ينس الجيران ابدا مشهد ثريا التى وقفت أعلى سور الشرفة لتلقى بنفسها لولا تدخل الابن وبعض الجيران الذين هرعوا لانقاذها، لقد تغيرت ثريا وباتت ذاهلة عن الناس وسببت توترًا كبيرًا فى ارجاء العمارة كلها، كنا نسمع صوتها تصرخ ليلًا بلا سبب وتستجدى رحمة من من لا نراهم، إلى أن تفتت عقلها تمامًا، وباتت تعيش مع أولادها بالمسكنات والعلاج النفسى المركز، أنا شخصيًّا أوصيت قسيسًا بعلاجها قبل ذلك، وقال لى إن شيطانًا يتربص بها، وعندما حاول القس إخراجه هرب الشيطان ولم يستطع وقتها إتمام جلسة العلاج، ولكنه قام بتحصينها، والغريب أن حالة ثريا استقرت نوعًا ما فعلا وبان أن شيطانها رحل بلا عودة قريبة، ولم نعد نسمع صراخها ليلًا كما فى السابق، ولكن الأمر لم ينتهِ عند ذلك الحد. فى يوم مشئوم لن ننساه، سمعنا أن (مها) هربت من البيت مع شاب يعمل مصففًا للشعر فى شارع الشواربي، هربت معه لمكان لم يعرفه رشاد، وباتت ثريا تذوى وتذوب كشمعة تحترق من طرفيها على ابنتها الهاربة، إلى أن وجدوها منتحرة بالحبوب المنومة فى فراش من هربت معه فى غرفة على السطوح باحدى عمارات شارع فؤاد، أعادوها للعمارة حتى يتم دفنها بشكل لائق، ذاب عقل ثريا فى بالوعة الزمن، وانتقلت لمستشفى الأمراض العقلية إثر تلك الصدمة الكبيرة، وبقى رشاد وحده فى الشقة، شاب لم يتعدَّ



الواحد والعشرين وحيدًا فى شقة أسرته الكبيرة، فبدأ الشاب يستهتر فيما يخص قيم ومجتمع العمارة المتحفظ، يأتى بالشباب ليسهروا عنده يوميًّا، بل تطور الأمر إلى أن فوجئنا ببنات وسيدات تدخل وتخرج من عنده فى صورة يرفضها الجميع اذ تظهر عليهم مخايل احتراف الهوى والخلاعة، اعترضنا بصبر على سلوكه، فكفاه ما جرى لأمه وأخته، ولكن الشاب استمر فى غيه، وفى ليلة شتوية ذهب الشاب ليطرق باب (بهيجة) المتجهم، استمر فى الطرق لفترة ولا مجيب، فخرج عن شعوره، وبدأ فى قذف بهيجة بأسوأ النعوت والصفات، ولكن بابها لم يفتح أبدًا، تجمعنا نحاول تهدئة رشاد، ولكنه استمر فى توجيه السباب القذر لبهيجة، وفى فورة تجمعنا ولغطنا فتحت بهيجة الباب لتنظر لنا بشراسة منقطعة النظير وتثبت عينها على الشاب الذى اهتز من خروجها الدرامى، وتراجع الى حيث شقته، وفى اليوم التالى وجدنا الشاب مذبوحًا فى شقته، الغريب أن الطب الشرعى قرر أن الشاب ذبح نفسه بنفسه، وأنه استخدم موسى الحلاقة فى قطع الوريد الودجى لنفسه، لقد وجدنا الشاب منتحرًا بالذبح أمام المرآة، بل إننا وجدنا أمام المرآة شمعًا أحمر وبعض النقوش التى تؤكد أن الشاب يحاول التحضير أو شيئًا من هذا القبيل، اهتزت العمارة بفعل زلزال الأحداث، وبدأت سمعتها تسوء فى أنها عمارة شؤم، وبدأ بعض الجيران فى الارتحال بعيدًا عنها، ثم بدأ الموضوع يأخذ منحنى آخر شديد الغرابة، بينما بهيجة تقبع فى عرينها تفعل أشياء لم نعرف أبدًا ماهيتها، لقد تمثلت شقة الدور الخامس كإنسداد روحانى فى شريان البناية كلها، وباتت الأمور تتحول من السيئ للأسوأ، لقد خيم على العمارة غلالة أرجوانية غامقة، ثمة شبورة كثيفة تهبط على كل شىء يخص حيز العمارة، ثم بدأ الشؤم يعشش فى أرجائها بعد أن هجرها معظم السكان، أغلقوا شققهم على الذكريات، منهم من



باع للمالك، ومنهم من اكتفى بالحيازة القانونية، حتى أن «مادلين» هجرت شقتها وانتقلت للعيش بشكل مؤقت عند أختها فى مصر الجديدة لفترة ما، بل إن العمارة بدأت حيويتها تخفت من بعد التاسعة، وكأن السكان جميعهم تحت التنويم المغناطيسى، وبقيت بهيجة كبومة تنعق الوجود الأزرق للعمارة برضا وسعادة، حتى إن المحلات التجارية التى كانت تحف العمارة من الناصيتين أعلنت إفلاسها، وأغلقت أبوابها من عشر سنوات، هنا سكتت أبلة مادلين عن الكلام، لقد أدركها التعب، وحان موعد انتقالها للفراش، إنها تشعر بالبرد سريعًا، وتفضل أن تتدثر بالأغطية فى برد الشتاء القارس.

إذن هذه المرأة تلعب دور الساحرة الشريرة، وتصر على تقمص دور الملكة على عرش بلوتو المظلم، لا بأس، ولكنها لا تعرف من أنا، وإن كانت تمارس شيئًا من الروحانيات فأنا لها، ولن أصمت أو أتركها تتحكم بحياتى أبدًا أبدًا.

.....

أنت جوكولوه؟؟؟؟؟؟

ومن ثم أصررت على السهر أكثر من ذى قبل، بل كنت أتعمد ألا أعود للبيت إلا قبيل الفجر، حتى مع ليالى الشتاء، صحيح أن العناد يورث الكفر، ولكن كبريائى يمنعنى من الاستجابة لجبروتها، وفى يوم من الأيام وأنا عائد من سهرة كحولية، وجدت باب العمارة الثقيل مفتوحًا على غير العادة. من ترك الباب مفتوحًا يا ترى؟! المهم أننى دلفت للمدخل وأغلقت الباب ورائى، وقبل أن أغلقه تمامًا وجدت يدًا أنيقة تلبس الساعة الذهبية وخاتمًا

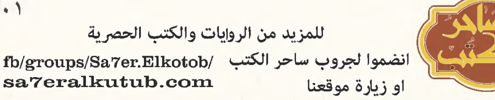


ماسيًّا تمنع وتدفع الباب فى الاتجاه المعاكس برفق، جفلت للحظة قبل أن يظهر وجه رجل خمسينى أنيق، بادى الأناقة والوسامة الغابرة، له شارب منمق كأنما رسمه بالفوتوشوب ولحيته مخضبة بالشيب الأنيق، ووجهه الأبيض وجسده النحيف، وعينه العسلية الضاربة للاخضرار، وأناقته المفرطة، والمتمثلة فى معطف جلدى طويل يكسو بذلة أنيقة فادحة الثمن، من هذا الرجل؟! إنها المرة الأولى التى أراه فيها، حيّانى بارتباك وقال لى إنه ساكن جديد فى الشقة رقم ستة فى الدور الثالث، وأنه لا يملك مفاتيح لباب العمارة، فابتسمت له وحييته كما يليق بالجيران، أعرف أنه اشتم رائحة الكحول تنبعث من كلماتى القليلة له، ولكن الأمر لا يعنينى كثيرًا، فسكان وسط البلد من الفئة الليبرالية المتحررة نوعًا من قيود الرقابة الشخصية، إذ إنه ابتسم فى مكر وهو يتابع حديثى القصير، وربت على كتفى فى أخوة وهو يتأبط ذراعى لباب المصعد كأنه يسندنى كى لا أقع. هذا الأحمق أنا لست سكرانا لهذه الدرجة، ثم صعد معى للدور العاشر حيث أسكن أنا ونزل هو بعد ذلك وحيدًا للدور الثالث، عرفت أن اسمه (رشدى) وأنه يعمل «جوكولوهًا» ذائع الصيت بدرجة رئيس قسم.

(رشدى الجوكولو).

(الجوكولو) هو من يهتم لأمر النساء اليائسات العجائز، واللاتى فاتهن القطار إلى غير رجعة، مطلقات كانو أو أرامل، أو عوانس، أو سيدات أعمال بلا رجل، أو زوجات برجال غائبين، إنهن يمثلن له العميلات المهمات، هو لا يمانع أبدًا فى إبرام الصفقات التى قد يكون فيها زواج أو ارتباط رسمى، هو يؤجر نفسه لمن تقدر على مصاريفه ومتطلباته، عرفت





أنه اشتغل لفترة فى السينما وأنه كان رفيقًا مؤقتًا لفنانة كبيرة فنًّا وعمرًا، وأنه يؤثر السكن فى وسط البلد ليستعيد جزءًا من «بريستيجه» الغابر إذ إنه أصلًا من سكان (جاردن سيتى) واستأجر الشقة فى عمارتنا لأنها تتشابه مع سكنه بالأمس البعيد، وعندما قابلته فى بار ستيلا بشارع هدى شعراوي للمرة الثانية حكى لى حكايته بمنتهى الأريحية والفخر، وشعرت بصداقة وليدة بيننا، أعرف أن لها نهاية مأساوية، فأنا وبالرغم من صغر سنى وقتها، إلا أننى كنت على وعى غريب بالناس وطبائعهم، وعرفت أن هذا الرجل لا يمثل أكثر من «مانيكان» أنيق أو دمية جنسية بشرية لمن تدفع. يالها من مهنة غريبة لا أعرف لها أى مستقبل! ولكنه على أية حال ظريف وكريم، يبذر النقود بطريقة مستفزة، ولا يمكن مجاراته أبدًا فى بذخه.

ـ المومس بيسموا فلوسها عرق (الفخاد) أما اللى زيى أنا بيسموا فلوسه إيه؟

أجبته بعدما تجرعت كأسي الثالث:

ـ مش عارف، يمكن عرق العضلات مثلا، أو عرق التستيرون.

ـ لا إسمه عرق (الياقة).

ـ الياقة.. تقصد ياقة القميص يعنى؟

ـ آه الياقة دى أكتر حاجه بتعرق فى الشغلانة دى يا مونشير.

ضحكت من قلبى على تعبيراته، وعرفت أننا سنكون أصدقاء، لا تتهمونى بأى اتهام، أنا أحب الناس على مختلف مشاربهم، وأفضل منهم المتطرفين فى الحياة عن هؤلاء النمطيين الذى لا يملكون تاريخًا أهم من تاريخ زواجهم، لكن هؤلاء من يملكون الحكايات والمغامرات، أعتقد



أن جاذبية الناس ترتبط بمصائرهم، وكلما كان ذلك المصير غامضًا كلما ارتفعت الجاذبية لديهم، فأنت لن تلتفت لربة المنزل التى تساوم البائع فى ثمن الطماطم، ولكنك بالفعل تلتفت للراقصة التى تتلوى كدودة عجيبة فى علب الليل المختلفة، لأن مصير ربة المنزل معروف،أما مصير الراقصة فغامض عامق لا يمكن توقعه، وكان (رشدى) بالنسبة لى يمثل شخصية الراقصة، ولكنه راقصة رجالية تتحرى أدق التفاصيل التى تؤمن للرجل جاذبيته وتعلن بشكل غير مباشر عن خضرته الدائمة، المهم أننا صرنا أصدقاء مائدة الكحول نتقابل كيفما اتفق، لأننى لم أكن مرتبطًا بمكان معين لأننى أعتبر نفسى نحلة تتذوق من كافة الزهور، ووسط البلد حديقة غناء بكل ألوان المتعة والتأمل، عرفت أن رشدى يملك درجة الكابتن أو الرئيس، يطلقون عليه لقب (البروفيسير)، وأنه يقوم بتدريب شباب أصغر سنًّا ولياقة لنفس العمل.

ـ إنت بقى عاملها رسالة فى الحياة؟

ـ لا أبدًا، لكن لما أربى جيل جديد من الجوكولوهات هضمن الأبوه، وهحصن نفسى من الوحده. «من علمنى حرفًا صرت له عبدًا» وأنا بدرب جيل مثقف يعرف يعيش وسط الخنوثة والفساد اللى إحنا فيه وبعدين..

قطع حديثه دخول شابين بالغى الأناقة والصحة يرتديان تقريبًا نفس الملبس، من جاكيت صوفى، وكاسكيت، وكوفيه أنيقة مبرومة كرابطة العنق، مع أحذية ضخمة عالية الرقبة وبنطال من الجينز الغالى. كانوا متباينى الطول والوسامة أحدهم فاقع الوسامة كالموديل فى إعلانات «بى تى إم» بينما الثانى أسمرا هادئ الملامح ذى سحنة شعبية، سلموا علينا وجلسوا بجانب معلمهم يحتسون جرعات متتالية من البيرة قبل أن يبدأ الحديث



من الوسيم الملون قائلًا:

- الوليه اللى إسمها (سعدية) دى حاجه تقرف أوى يا بروفيسير، أنا خلاص زهقت ومش قادر.

ينظر له البروفيسير بامتعاض قائلًا:

- شغلنا مافيهوش قرف يا وائل، اللى مش عاجباك دى عندها ٦ عماير فى فيصل وتقدر تشترى تلاتين واحد من عينتك.

بان القهر على الشاب الوسيم وهو يقول فى أسف:

- لا مؤاخذه يا بروفيسير، بس شكلها صعب أوى إشمعنى إسماعيل واخد واحده حلوه وعينيها ملونه؟

- يا أهبل لازم تعرف إن المخدة متشيلش اتنين حلوين، أنا عارف إن سعدية شكلها خدامينى شويه، ومش باين عليها القرش، وعشان كده جبتهالك لما تشوف عيونك الملونه ووشك الأبيض تتكسف من نفسها وتدفع أكتر وهى عينيها فى الأرض أما إسماعيل..

وأشار إلى الشاب الأسمر الذى انتبه له بجدية وتوقير.

- إسماعيل يملا فراغ الحلوين شويه واللى محتاجين شكل الراجل فى حياتهم، يكلمهم ويعمل الشويتين بتوعه معاهم، غيره واهتمام ونرفزه وسخونه.

فأكمل إسماعيل الجملة قائلًا:

- أنا تحت أمرك فى أى حاجه يا بروفيسير.



من الواضح أن إسماعيل يلعب دور الطالب المجتهد، فى حين لا ينفك وائل فى التحسر على شبابه الضائع فى المرآة. لكم عجيبة هى الحياة، وتستغرق فى العجب كلما أمعنا النظر فيما قد يفعله الإنسان لتأمين درجة استهلاكه! نعم درجة الاستهلاك هى التى تجبرك على إزالة أى عوائق اجتماعية، وتجعل منك سلعة لها ثمن وتخضع للعرض والطلب.

غادرتهم متوجهًا لبيتى القريب، أحب أن أتمشى فى شوارع وسط البلد الخالية من المارة بفعل الصقيع والساعة المتأخرة من الليل، أراقب جمال وزخرفة الأبنية، كيف تأتى لهؤلاء صنع تلك التحف المعمارية بهذا الذوق شديد التنوع والفخامة؟! كم استغرقوا من وقت وجهد ومال فى تشييد تلك التحف؟! كانت تستهوينى عمارات بعينها فى وسط البلد، أتوقف أمامها ذاهلًا من الارتكاز الشديد والذوق العالمى، لابد أن كل تلك النقوش والزخارف شاهدة على عصور عدة، لابد أنها شاهدت وعاصرت كل الأحداث ومختلف أنواع الشخصيات، أشعر أن تلك النقوش والزخارف المنتشرة على مبانى وسط البلد صارت أعشاشًا لأرواح من رحلوا عنها وهم يهيمون حبًّا فيها كما افعل أنا، فعلًا أنا أحب وسط البلد والتى صارت بعد ذلك جزءًا لا يتجزأ من شخصيتى وشكلى العام، ولكنى أتكلم الآن عن حداثة العهد بينى وبينها، عن العشق الذى يولد من رحم الدفء والمحبة المتبادلة بينى وبين شوارعها وعُلبها ومقاهيها وعمائرها الفخيمة، ووسط كل ذلك كنت أشعر بوخز روحانى يعترينى من وقت لآخر، بل إنه يجتاحنى على حين غرة كما لو كان يذكرنى بنفسه، كنت أشعر بمن يضع شيئًا على كتفى، يهبط رويدًا رويدًا كما يساعدك زميلك فى حمل الأثقال فى النادى الرياضى، شىء ما يجثم على كتفى برفق، ولكن بتمكن كبير، يزورنى عشوائيًّا آناء الليل وأطراف النهار، كنت أشعر وأعرف أن الموضوع له أصل وله



تاريخ، تحدد ببداية العام الرمادية الكئيبة، لكن العجيب أننى لم أرفض ولم أتحر علاجًا كما كان ينوى صديقى عمر أن يفعل، لقد بت أتهرب منه ولا أرغب حقيقة بمجاراته فى أفعاله الشاذة والتى توردنا موارد التهلكة، ربما كنت سعيدًا بحيازة شىء كهذا ولا أريد التخلص منه فى أعماقى، بل إننى عاتبته بينى وبين نفسى على أنه عرضنى لهذا التهور غير مضمون العواقب، وشعرت أنه يستخدمنى لأغراض لا أعرف لها أصلا ولا حقيقة، باتت العلاقة بعمر تشبه العلاقة بين زميلين متحفظين فى العمل، فلا هى صداقة ولا هى قطيعة، إنما شىء سيصير حتمًا إلى النسيان أقرب، تُرى هل كنت حكيمًا فى تعاطى تلك الظروف والاحتمالات، أم أن الأمر له مستقبلا آخر؟

.....

... الساعة تقترب من الثالثة فجرًا وقد استلقيت فى الفراش أستجدى بعض البرودة فى قيظ أغسطس، ذلك الشهر النارى الذى لا أحتمله ولا أرحب بوجوده أبدًا، أكره الحرارة والعرق والشمس المقتحمة قليلة الحياء، أفضل أى رطوبة على هجير ذلك الشهر اللعين، جهاز التكييف على أشده يحاول الاستهانة بتلك الرطوبة الجاثمة على أنفاس الليل، المفروض أن الليل هو الإنقاذ الوحيد للناس من هجير النهار، ولكن أن يكون الليل نفسه عذابًا وعرقًا فهذا شىء لا يُحتمل. سمعت من التليفزيون أن هذا بسبب تأثير الصوبة الزجاجية، وأن ثانى أكسيد الكربون السبب فى احتجاز الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء فى الغلاف الجوى، واننا كما لو كنا داخل ميكروويف عملاق يقوم بتسوية لحمنا بهدوء، ولكن ما حصل هو أن مكيف الهواء لا يقدر على مواجهة تلك الرطوبة اللعينة، وقفت عاريًا إلا من سروالى الداخلى أنضح بالعرق واللزوجة، كما أن الجو فى الصالة



مخيف عدائى كما لو كان من لفح جهنم، له طبيعة هجومية على رئتىَّ،
ثم شعرت بذات الثقل يحط على كتفىَّ، فشعرت بدفء إضافى مقيت،
ولكنى تجمدت من الفزع هذه المرة، الثقل أثقل من ثقله المعتاد! أشعر أن
كيلوجرامات إضافية حطت فوق كتفى، تململت فى وقفتى وقد شعرت
أن من يجلس على كتفى شخص عريان بلا ملابس، ثمة قشعريرة طاغية
تغلغلت فوق جلدى سميكة لها أشواك دقيقة، آلاف الأشواك الذرية تنغرس
فى لحمى مؤصلة التواجد العاتى فوق كتفىَّ العاريتين، تحركت كما يتحرك
الناس بشىء محمول على أكتفاهم، ببطء ببطء، الآن أنا أمام مرآتى ألمح
تجسدًا عاريًا لكيان عجوز متغضن كجذع شجر التين النبغالى الموجود فى
حديقة الحيوان، ملمسه زلق مثل تأثير المراهم الطبية، ينبعث من تجسده
رائحة شديدة المرارة، تمامًا كجوربك المستعمل الذى نسيته تحت الفراش
على اتساخه، شعرت به يحتك بجسدى كما نحن نهرش فى ظهورنا، كان
يندلق ويبتعد فى تردد مُهين لى، أشعر بطراوة أعضائه المحروقة تحتك بأعلى
ظهرى وخلف رقبتى، تميعت نفسى وشعرت بغثيان متصورًا المشهد البشع،
إن (عتيا) يمارس حكّ وتليين حروقه فى قفاى أنا، إنه يستشفى حروقه
بحكها فى جسدى أنا.. لالالالا لا أتحمل أبدًا لمسة عضوه المسلوق على
جلدى، كيف عرفت أنه يستشفى نفسه؟ لقد سمعت آهاته الممزوجة
بتردد الاحتكاك إنه آه هه آه هه.. كما أن الانزلاق له طبيعة زيتية شحماء،
مددت يدى لما خلف رأسى، فشعرت بنعومة جنينية، كما لو كنت غمست
يدى فى المخاط الطازج، أخرجتها عائمة فى اللزوجة. لالالا، إنه عقاب
أم ماذا! لقد تغلب الاشمئزاز على الهلع وجريت للمطبخ أترنح من هذا
الثقل، ولكنى غاضب من ذلك الاستعمار المهين، أمسكت ببرطمان الملح
وكبشت منه قبضة وافية فى يدى ومددتها خلف رأسى أدعك وأدلك بها



قفاى، ثم سمعت صرخة مماثلة لما سمعتها قبلا فى شقة العجوزة، لقد ألهبت (عتيا) فى أعضائه المسلوقة، أرجو ألا يعود أبدًا. إن الملح له تأثير يفوق التأثير الشيطانى وبما لا يقاس، كما أن له تأثيرًا حارقًا على الشياطين، لقد ولى (عتيا) هاربًا من جبروتى. ماذا جرى لى، كيف أتصرف بهذه الحرفية والقسوة وأنا الخائف المذعور؟ كيف لى بتلك القسوة والعنف؟! دلفت للحمام لأمارس الحك والكشط لكل إفرازات ومراهم ذلك الـ.. الـ.. العتيا.

.....

نازلة كانت على الدرج فقابلته، شيء ما اختلج فى قلبها، هذا الجميل يشبه رجال زمان، بما فيهم من وقار وهيبة وجاذبية، هكذا أبصرت (بهيجة) البروفيسير (رشدى) الكابتن جوكولوه العظيم. كان هو الآخر يخرج من شقته حين تلامس معها بالنظرات، العجيب أن (بهيجة) ارتبكت وهى الراهبة السوداء فى كنيسة الخراب، كيف لكيان ظالم أسود مثلها أن يعجب بشخص ما، أو أن يقع فى شباك الحب كما يفعل الآخرون؟! ولكنه حدث. لقد وقعت (بهيجة) فى حب (رشدى) من أول نظرة، ومع أنها غادرته وسبقته إلى نزول الدرج لعرف رشدى أن سهامه التجارية أصابت فى كبد الفريسة، وقرر أن ينصب شباكه فورًا وبدون تردد. إن بهيجة شاحبة أينعم، ومتدثرة بالسواد فعلًا ويظهر سنها على التجاعيد المرسومة حول عينيها وشفتيها، ولكنها أيضًا غنية، تمتلك شقة واسعة بوسط البلد، ورصيدًا محترمًا ومعاشًا كبيرًا وورثت عن ابنتها الكثير، بدا لرشدى الصيد ثمينًا للغاية ويسترعى الانتباه.

- إيه رأيك فى الست بهيجه يا أستاذ تامر؟

- بهيجه مين؟

ـ الست المحترمة جارتنا فى الدور الخامس.

الدور الخامس.. أويتحدث الأحمق عن تلك المرعبة؟! نعم أذكر أن أبلة مادلين قالت لى اسمها (بهيجة).

ـ مالها؟

ـ يعنى لو ينفع تعرفنى عليها يبقى كتر خيرك.

كان الرجل يتكلم بخنوع واحترام كبيرين جدًّا، كما لو كنت حماه مثلا، ولكنى واصلت «الاستهبال» كاتمًا ما يدور فى بالى قائلا:

ـ وهو إنت محتاج تتعرف عن طريقى؟ ده إنت بسم الله ما شاء الله زى القطر بتاخد الواحده بالحضن.

ـ إسمع بس.. أنا مش متأكد من مشاعرها وإنت هتشيل عنى الحرج.

ـ صباح الخير يا عم الحج، أنا ماليش دعوه، أنا كل اللى أعرفه عنها إنها ست غريبة الأطوار وقافله على نفسها.

ضحك رشدى ضحكة (جوكولوهاتى) وقد اعتقد أننى فى حالة سُكر بيّن، بينما كنت أحاول أن أثنيه عن ذلك الانتحار! نحن الروحانيين نعرف بعضنا البعض مهما كانت الحواجز، هذه المرأة تمارس السحر الأسود بلا أى جدال، حتى طريقتها وتسلطها وأوامرها، لا تمت للمرضى النفسيين العاديين بصلة، بل إنها على صلة ما بالشياطين، أو على أقل التقديرات بالأرواح، نزعة شريرة جعلتنى أؤثر الصمت حيال هذا الاهتمام المباغت من ذلك الصياد الماهر، لقد وقع اختياره على فريسة، أو من يظنها فريسة! ولأصربن الصبر الجميل، وأشاهدنّ ذلك المسلسل المثير بين من احترف الصيد وبين من احترفت السحر!

...



لم يكذب (رشدى) الخبر، وقام بنسج شباكه حولها بسرعة، وأجرى جميع الاستعدادات، ولم يكن يعرف أنه بالفعل يشغل بال العزيزة(بهيجة) والتى أعدت العدة لتصطاده ليؤنس عليها وحدتها الشبيهة بوحدة الأشباح، الأشباح؟؟... ممممم لابد أن الأشباح قادرة على المساعدة أيضًا، فى حين أن رشدى يعد العدة لإشهار أسلحته الفتاكة بعدما علم أن السيدة بهيجة ذات أصل وحسب ونسب وميراث محترم، طبعًا أنا من غذيته بهذه المعلومات تباعًا، شىء شرير فى نفسى يضحك، لا أقدر على المقاومة أبدًا، ستكون قصة الموسم بلا جدال، وسأتابع عن كثب أيهما يفترس الآخر أولا. تم التعارف العجيب والذى كان حديث العمارة همسًا لأيام، بعد أن شاهد الجيران السيدة بهيجة تلبس لأول مرة الأحمر النبيتى، وإلى جوارها السيد رشدى فى بذلته السكرية. كنت واحدًا من المدعوِّين طبعًا، واحتفلنا جميعًا بالزفاف الميمون على ظهر أحد المراكب النيلية الأنيقة، لقد غادر الأستاذ رشدى مسكنه المؤجر بلا رجعة، وصعد دورين ليستقر بجانب زوجته مدام بهيجة الخولى، كنت أتحرق شوقًا لمقابلة الأستاذ رشدى، لا لأعرف شيئًا من حياته الشخصية كما تظنون، ولكنها متعة تتعلق بفأر التجارب بعد حقنه بعقار الهلوسة، إلى ماذا تحولت أيها الرشدى محطم قلوب العجائز من النساء؟! لابد وأن تحول ما سيطرأ، أنت فى معتقل الزرنيخ أيها العنصر، ولابد حتمًا من بعض السمية أو الآثار الجانبية، ولكن رشدى اختفى عن ناظرىَّ، كنت معتادًا أن أراه فى المقهى المفضل له بشارع جواد حسنى الرطيب، ولكننى مررت كثيرًا ولم أجده، سألت عنه، فقالوا لى إنه لم يأتِ من فترة طويلة، سألت بواب العمارة، وهو شاب نوبى، رشيق متحرك نشيط لا يهدأ، ويتحرك كالناموسة من وخز لوخز آخر، اسمه ياسر، وهو المساعد الطبيعى لى فى حياتى، فهو من يأتينى بمستلزمات البيت، بل هو من



ينظفه، وأنا أثق فيه كثيرًا إذ إنه أمين، يعرف جيدًا حجم العلاقة بين الساكن والحارس، وهو ما يريحنى كثيرًا، كما أنه يتقاضى أى مبلغ بنفس راضية ولا يتذمر أبدًا... ها يا (ياسر) ألم ترَ الأستاذ رشدى؟ فيهز ياسر رأسه بلا النافية التى تزيد من تعجبى، هل مدام بهيجة موجودة؟ قال لى نعم موجودة، وقد قضى لها حاجياتها من السوق توًّا. إذن أين الرجل؟! هل من الطبيعى أن أسأل عليه؟ كان من الواضح أن بهيجة لا ترحب بعلاقتى به، وظهر هذا فى آخر مرة رأيته فيها فى الزفاف، حتى هاتفه المحمول، باستمرار مرفوع من الخدمة. أين ذهبت يا رشدى؟ وماذا فعلت بك تلك الشيطانة؟! تُرى هل أذابتك فى الحمض، أم قطعت أطرافك لتبعثرها فى أرجاء الخرائب؟! الشعور بالذنب يغزو جانبًا من تفكيرى. لابد أن أطمئن على الرجل، خصوصًا عندما قابلت صبيانه يسألون عنه ويقولون إنه لا يرد عليهم؛ ومن ثم قررت أن أتخذ تلك الخطوة بنفسى، وعلى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى، كنت أقف أمام باب شقة بهيجة أضغط جرس الباب.

.....

كانت حركة الملح تصرفا سادياً صدر منى كإنعكاس لرعبى الشديد ورفضى وغثيانى، شعرت وقتها بأننى أحرقت كل السفن، وأن على (عتيا) هذا أن ينتقم أو ان يجرجر أذيال هزيمته بلا عودة، لن أنسى وهو يحتك بقفاي عارٍ زلق مقزز لأبعد الحدود، أذكر أننى كدت ان انتزع جلدى وأنا أستحم وأكحت طبقات من بشرتى بعد ذلك، ذلك الشعور المقيت، بعدها عشت حياتى فى العادى أصحو وأنام، وأذهب للعمل، وأتسكع هنا وهناك وقت الفراغ، اختفيت يا عمر من حياتى عنوة، لم أعد أسمع عنك نهائيًّا كأنك مت وشبعت من الموت، استمر الوضع قرابة العام، وفى ديسمبر



من ٢٠٠٢ تلقيت اتصالًا من أمه، نعم كانت أمه التى عرفتنى بنفسها بكل ترفع جدير باصلها المغروس بالكبرياء.

ـ معاك نبيلة الشنوانى، انا أم وكيل النائب العام عمر عبد الهادى.

ـ عمر؟ آه أهلًا وسهلًا يافندم.

ـ الحقيقه إن عمر عاوز يشوفك يا أستاذ تامر.

ـ طب ليه مكلمنيش هو بنفسه يافندم؟

ـ آآآ.. للأسف هو ميقدرش يكلمك بنفسه.. حالته متسمحش.

ـ ليه ماله يافندم حصلله حاجه؟

ـ حادث بسيط وهو دلوقتى فى السرير بس عاوز يشوفك ضرورى.

ـ ....

ـ هبعتلك العربية عند شقتنا اللى فى القاهرة تجيبك لحد هنا.

ـ هنا اللى هو فين حضرتك؟

ـ هنا... فى المنيا.

ـ ......

لم يكن فى حساباتى أبدا تلك الزيارة التى جادت بها علي تلك الغادة الجهنمية، كان الربيع فى عنفوانه، لابد ان الزهور تتلاقح بكل لذة الأن فى عميق الحقول، ربما أنا الأن مثل زهرة مذكرة تنتظر بعض الريح لتنقل بذورى إلى حيث ميسا لزجا ينتظر، صديقى عمر قد أهدانى بعضًا من مقاطع ساخنة، خزنتها سرًا فى أعماق حاسوبى، استدر منها أنيسا فى وحدتي



الملتهبة من حين لآخر، الوقت يدنو من العاشرة مساءا، انتهيت لتوي من متابعة أحد المقاطع المؤثرة على شخصى، انه مقطع عربى مصرى لفلاحة عارية تطلب من فحلها بألا يصور وجهها، بينما هو مستمر فى مضاجعة عيون من سيرى الفيلم لاحقا، لا يا أحمد لا تُظهر وجهي فى الكاميرا، كفاك تصور تشريحي الساخن، ونقطة التقاء فخذاي الممتلئين، انها عامرة بالفوران والرغبة فى تكرار تلاقح الربيع هي الأخرى كأنها زهرة اوركيد عملاقة تطلب ملايين من حبوب اللقاح، قمت منهكًا عن حاسوبي، شاعرًا كما كل الشباب بنوع ثخين من الندم، لابد من بعض الندم من ذلك التزاوج الذاتي والذى يأتى لكل الشباب امثالي، تصورت أن كل الناس ستعرف ما فعلت للتو امام شاشة الحاسوب، انتابنى بعض الخجل من تصور ان الله قد يراني وأنا أستحلب نفسى أمام فضيحة مصورة، اعددت فنجانا من القهوة السوداء المخلوطة بروائح العطار، واشعلت الموقد على بعض قطع الفحم، لابد ان اعير كلام أمي بعض الاهتمام، لابد أن أتزوج وأن أكف عن.... ، وفى غمرة تزاحم افكارى وشعورى الممض بالندم، سمعت نقرا على باب شقتى، من عساه قد ياتينى، ولماذا لم يدق جرسى المزعج، أننى لا أتوقع أي زيارة الآن، قمت من مجلسي بسرعة وأغلقت الملف الإباحى، لعل من سيأتى سينظر إلى الشاشة ويعرف، النقرات مستمرة على الباب، نقرات هامسة تشي بسرية ملحوظة لم أعتدها من الزائرين، فتحت بابى بشيء من الصمت والسرية، لأجد مفاجأة صاعقة، أجدها هى، لابد أنها هى، إنها «دينا» بكامل ثرائها تقف مبتسمة أمام باب دارى، تلبس جلودها وتحمل زينتها الفاقعة لغة الجسد، بُهت وأنا أنظر لشعرها القصير وقرطها الصغير المنغرس فى أنفها، كيف تجرأتِ يا لعينة لتاتي إلى هنا، أفسحت لها الطريق، خرجت للردهة لأنظر ما إن كان شخص ما



تبعها فى صعودها لشقتي، الدرج غارق فى السكون كعادة العمارة فى هذه الساعة الشبه متأخرة من الليل، عدت أدراجى لأجدها تنزع ملابسها، زيييء زيييء، صوت سحاب الملابس إذ يكشف عن لحمها الخمرى الطازج، أرى نهديها يتدليان بتماسك بينما هي تنحنى لتخلع بنطالها الجينز المقطع، لم أتحر انتظارا فقد هجمت أنا الآن كرضيع جائع أنتظر أمه طويلا، جرتني بتسلط إلى البلكونة، القمر يطل علينا بكامل زرقته الرمادية، يطلي بالفضة لقاءً ملتهبًا، تذكرت الفلاحة بطلة الفيديو بأفخاذها الغليظة إذ تطلب من فحلها تجاهل تصوير وجهها (متجبش وشي يا أحمد) ولكن المقارنة ظالمة ظالمة، كيف لنا أن نقارن الإطار القديم؛ حيث تلعب به الصبية فى الأزقة بتلك السيارة الفارهة التى تركب على صدرى الآن، يالك من لعوب غانية يا دينا، افعلي كل ما ترغبين فجسدى ساحة وميدان خالٍ، وانت سيارة سباق تشق طريقها على أسفلت طريقي بلا هوادة، انتهت منى وعبأت خزان وقودها من مضختي، تركتنى وعادت لترتدى ملبسها الضيق، لم نتكلم، لن نتواصل، غمرتنى بقبلة عامرة بالزبد المخلوط بالعسل، غادرتنى متوجهة للباب، مازلت عاريا أتوسل أن تظل قليلا، أريد بأن أخبرها بأنى بصدد فتح خزانى الاحتياطى، فإننى مازلت مملوءًا بالوقود يا سيارتى الفارهة، لكنها عزمت على الرحيل، وقبل أن تغادرنى نهائيا قالت بصوتها المخشوشن بالتبغ:

ـ عمر وأنا انفصلنا يا تامر، أنا صارحته إني بحبك أنت.

ربما كان هذا سر ابتعاد عمر عني، لماذا؟ وقد أهداها لي قبلًا؟ هل هي الغيرة، أم أن الأمر به شيئا آخر؟؟

.....



أشعر بالأرض تجمجم تحتى بطريقة محسوسة، أهو زلزال؟ كأنه شيء عملاق يتحرك صاعدًا، تنين أو ديناصور يشق الأحجار الرخوة وهو يشق طريقه صاعداً لأعلى، ابتعدت عنه، ظننت أنه بؤرة الاهتزاز، التصقت بالحائط، لا أستطيع الفرار من ذلك الحصار، أسوار عالية تحيط المكان، الأرض طينية زلقة، لا أستطيع الثبات للحظات على ذات النقطة، التشقق يطال مساحة كبيرة من الأرض التى أنا موجود فى محيطها الداخلى، ولماذا الداخلى؟ لأنها باختصار محاطة بأسوارعالية، إذن أين أنت؟ أنا فى داخل وأعمق نقطة إدراك فى عقلى، ثمة ديدان كبيرة ترقص مرتعشة على حواف تلك الشقوق، الوقت مساءً وقد تضخمت الظلال، أشعر بهسيس المطر الوليد والذى سيحول هذا الركام لعجينة من الطين الثقيل، إن التشققات تبتلع كمية هائلة من الطين، انزلقت أنا الآخر بعد أن ذابت الحافة بفعل المطر، ثمة أبخرة كثيفة تخرج على صورة فقاقيع ساخنة، إن الطين يتجشأ غازًا ملتهبًا، صرخت وحاولت التشبث بأى شىء، ربما أجد بعض الجذور أتمسك بها، ولكن فقط عجين الطين اللاهب وأنا وسطه، أهوى لأسفل أكثر وأكثر بفعل الشفط والامتصاص، وتنهار على جسدى عجائن الطين متتالية بلا نهاية، إنها تزن أطنانًا فى اللزوجة المشبعة بالسخونة اللافحة، كيف لى أن أتنفس؟ لابد أن أنظر دائمًا لأسفل حتى لا يتقبل وجهى وأنفى انزلاق الطين، كيف وصلت لهنا لا أعرف، إننى فى حلم، ولكن المعجون الطينى بدأ فى السخونة أكثر وأكثر، أطلقت صرخة كبيرة، رأيتها تخرج من عمق الشق وكأنها فقاعة مملوءة بغاز الصراخ المتحشرج. الآن سأموت، لقد انقطع تنفسى، وأشعر بالطين وكأنه تحول لحمم بركانية لاسعة، أووووف إنها ساخنة بما لا يطاق، لابد أنها قد تعدت درجة الغليان، إنها الآن كالقار المغلى الذى يرصفون به الطرقات، إننى باختصار أموووووووت، لا، عاااااا.

هببت فجأة من نومى على صوت الهاتف المحمول يرن، العرق يكسونى ونحن على مشارف شهر سبتمبر، ربااااه.. ما هذا الحلم الطينى؟! كيف لى الانغماس الكلى فى مكونات الحلم؟! تلمست رقبتى لأجدها ساخنة جدًّا وكأنها على وشك الذوبان، قمت من فراشي وفتحت الشرفة لأستقبل نسمات نادرة تتجول فى طيات الهواء العليا، حيث أسكن، انزويت فى ركن البلكونة العريض عاريًا إلا من لباسى الداخلى وقد قررت أن أنام هنا فى البلكونة لعلنى أبرد قليلًا، لاحظت أن القمر مكتمل، بل يلون قمم العمارات حولى باللون الفضى، أعرف أنها أسوأ أيام الشهر، لما للقمر تأثير عميق فى عمليات المد والجزر لكل السوائل، وأجسادنا تقريبًا من سوائل، لذا يكون التأثير كبيرًا، أعرف أيضًا أنه لا يجوز الاستلقاء نائمًا وضوء القمر يغمرني، لكننى للأسف عرفت تلك المعلومة فيما بعد، ومن موقعى هنا فى البلكونة، حيث أستلقى عاريًا، عُقدت الجلسة وحضر القضاة والمستشارون، والمدعى بالحق الروحاني، الجن الضرير الطاعن فى الأبدية (عتيا)، إذ وجدت نفسى مرميًّا عاريًا وسط منصة دائرية، الحضور يلف القاعة المستديرة فى درج أعلى بينا ترتسم نجمة خماسية كبيرة لتلامس أطرافها محيط تلك الدائرة، وعلى كل طرف منها كرسى عظيم يجلس عليه خيال ضخم، وعلى كامل محيط الدائرة أجد خيالات كثيفة تمثل جمهورًا أو ما شابه، بينما يقف إلى يسارى (عتيا) عاريًا وساترًا عورته بخرقة بالية، الجو لا يطاق، تشعر أنك واقف أمام اللهيب مباشرة، شيء ما يلسع جلدة وجهى، وكأنها أشعة ليزر غير مركزة، أسمع همهمة مريعة صادرة من الحضور أنفسهم، ثم سمعت صوت رنين ضخم ليخرس كل من فى القاعة.

إن المدّعى ابن الطي، المدعو تامر بن رجاء قد سكب الماء المغلى على (عتيا) العراف عن دون قصد منه، وقد رفضنا الشكوى المقدمة من (عتيا)



حينها لعدم ثبوت الإصرار والترصد من الآدمى ابن الطين، وعندما أصدرنا قرارًا بالتقريظ، (وهو أن يأتى لك الجن ليبكى ويثير شجونك على حالته) فقد قام الآدمى بحرقه متعمدًا بالملح والذى هو عدو الكيانات الروحية قاطبة، مع علمه أنه فى طور العلاج ويحتاج العناية والمواساه، أى أنه تعمد إيذاءه بسبق الإصرار والترصد.

هنا تكلم (عتيا) وهو يجأر بالشكوى والألم مما فعلته به، بل إنه أزاح الخرقة التى يستر بها نفسه لتبدو أعضاؤه التناسلية محترقة بشعة، يتصاعد منها دخان طفيف، وتغزوها الحروق الساخنة المبرقشة لأعضائه، كان منظرها لا يسر الناظرين أبدًا. وحيث إن عتيا ضريرا وطاعنا فى السن، فمن الواضح أن عموم المحاكمة ستكون إلى جانبه هو بالتأكيد، ولكن كيف يحكم هؤلاء؟ لا أعرف من قوانينهم إلا أنهم يحرقون ويقطعون ويصيبون بالجنون فى أهون الأحوال، سمعت فى مجمل الكلام أن (عتيا ليس جنًّا عاديًّا، ولكنه جن عرّاف، يسترق السمع، وينقل أخبار الزمان من المستقبل للحاضر، ومن الماضى للمستقبل، بل ويستقرئ الغيب، ويكشف عن النفوس والأرواح، ويلجأ له كبار السحرة وأعتاهم كأداة كشف عن النفوس. لابد أنه يتعامل مع القرين مباشرة، بل ويؤثر عليه بشكل ما ويتحكم فى تصرفاته، إنه أداة كريمة لأى ساحر). إن مصيبتى لكبيرة. تُرى كيف ستحكم محكمة الجن على شخصى الضعيف؟!

.....

ضغطت جرس الباب ورسمت ابتسامة بلاستيكية على شفتىَّ توطئة لمقابلة تلك الفظيعة صاحبة التاريخ الأسود، شعرت بخطوات تقترب فعلًا من الباب، بل إن العين السحرية الغائرة فى خشب الباب تفضح



دائمًا هذا السلوك، توقعت أن تفتح أو حتى تتكلم، ولكن من الواضح أن عينها تسمرت على العين السحرية ولم تأتِ بأى رد فعل مناسب، ابتعدت مرتبكا عن الباب وانتظرت الرد، العين مازالت مظلمة، توضح أن ثمة من يقف خلف الباب يرقب، بدأت فى التوتر، ولكن شخصيتى العنيدة أصرّت على إكمال الموقف لآخره، أنا لا أخافك أيتها الساحرة، ثم شعرت بيد توضع على كتفى، أدرت عنقى بعنف، إذ إننى أعتقد أن الدرج خاوٍ، ولكن لم أجد أحدًا، من وضع يده على كتفى فى التوّ؟! تراجعت لأنظر لسلم العمارة أعلى وأسفل فلم أجد أحدًا، عدت إلى حيث الباب، لأجد العين مضاءة، لقد انصرف. من يتلصص خلف الباب إذن؟! عاودت ضغط الجرس مرة أخرى، وما إن أبعدت سبابتى عنه حتى دوت فى أذنى حشرجة عاتية لشخص يؤكل أو يحترق حيًّا، أو كأنه كلب مسعور عملاق ينبح فجأة فى أذنى، شعرت بارتجاج مركز يعتريني، وقررت أن أبتعد عن الباب، بل وأطلب المصعد لأخرج من هذا الدور اللعين، فلتذهب للجحيم ياكابتن رشدى، لقد فعلت ما فى وسعى تجاه صديقى السكير، آن الأوان أن أنجو بجلدى، وقبل أن أفتح باب المصعد، وجدت باب الشقة يُفتح على مصراعيه عن بنت جميلة لا تتعدى الرابعة عشرة، بشعر أسود طويل معقوص بضفيرة سميكة تنساب على كتفيها، تلبس بيجاما منزلية عليها الميكى ماوس، تميل للبدانة الأنثوية التى تشعرك بأنها سيدة. نظرت لرقبتها لأجدها تلفها بشال أحمر. كان وجهها عبوسًا جدًّا، وظهرت وكأنى سحبتها من الفراش عنوة، ارتبكت بالرغم من كونها مجرد مراهقة صغيرة، ولكن شيئًا فيها يلمع بالظلامية والحزم.

ـ مدام بهيجه موجوده؟



واصلت البنت نظراتها العدائية لى ولم تحرك ساكنًا فيها، كأنها صورة على سطح الماء، ثم اقتربت منى حتى كادت تلتصق، بررررر إنها باردة جدًّا، جذبتنى إلى الداخل وهى تشير بذراعها أن ادخل، إننى أشعر بأننى أنا لست أنا، أشعر بأننى أسمع صوتها يتردد داخل خلايا مخى الرمادية، ادخل لو سمحت، أريد أن ترى شيئًا، ادخل أرجوك ولا تخف، ادخل ولن يصيبك شىء، فقط ادخل، ادخل.....

ماذا ترون يا أصدقاء الرعب والعذاب.. هل أدخل؟.. ها؟

.....

رأس السنة مجددًا، ولكن هذا العام هو ٢٠٠٤

استقللت القطار أنا وزوجة عميلى المهم والذى أوصى أن أسافر مع زوجته إلى الأقصر حيث سينتظرنا هناك لنقضى يومى رأس السنة على أحد مراكب الأقصر العائمة والتى تبحر جنوبًا إلى محافظة أسوان الجميلة، ومن ثم العودة الى الأقصر، لم أجد أى مانع من السفر، بل وجدت أنها فرصة عظيمة للتعرف على بلاد مصر الجنوبية النائية عننا نحن القاهريون، كانت السياحة فى أوج نشاطها والسياح الأجانب يملؤون القطار الفاخر المسافر جنوبًا إلى أكثر مدن العالم اكتظاظًا بالتاريخ، إلى الأقصر، عاصمة مصر القديمة وكعبة الآثار قاطبة، ذهبت إلى بيت عميلى فى حلوان وانتظرت ريثما تجهز زوجته نفسها للسفر، ثم فوجئت بأكياس وحقائب وصوانى ملفوفة بورق الألومنيوم تحملها الخادمة بشق الانفس، اندهشت وأنا أرى زوجة عميلى الأريبة هابطة من العمارة الفاخرة فى كامل زينتها، المكونة من

الذهب الخالص، والعباءة السوداء، وجسدها المدملج اللحيم، وبشرتها البيضاء المشوبة بالأحمر الريفى.

ـ إيه يا حاجه ده كله؟ ده المشوار كله ست سبع ساعات فى القطر.

ابتسمت الحاجة بغرور وقالت باستفزازها المعتاد

ـ ده أنا مجبتش كل حاجه عشان متتعبش معايا.

أجبتها بلهجة ساخرة:

ـ باين يا حاجه باين.

ـ إنت بتتريق؟ أنا الحق عليا اللى قلت أعملك لقمه عشان منهبطش فى الطريق.

ـ نهبط إيه بس يا حاجه؟ ده إنتى كده عازمه القطر كله.

وقمت ووزعت الحقائب والأكياس، وفتحت لها باب سيارتى وانطلقت إلى محطة الجيزة لنستقل قطار الصعيد، أنا أحب زوجها واحترمه، وأتقبل منها أى تصرف نظرًا لطيبة قلب زوجها الشديدة ولورعه ووقاره، ومع أن زوجته مشاكسة سليطة اللسان، إلا أنها كريمة تحب الطعام والملبس البراق بما لا يقاس، وتعتبر نفسها مازالت صغيرة، مع أنها جدة لستة أحفاد، أكبرهن تخطت الرابعة عشرة، وكانت مثالًا للبنت التى زوجوها فى سن الثالثة عشرة فعلا بعدما حدد سنها تومرجى المستوصف فى بلدها المنوفية، إذ تراها وهى بين بناتها تحسبها صديقة أو أختًا كبيرة لهن وليست أمهن نفسها، كانت تتكلم بالنقود والاستهلاك بطريقة تثير جنونى، وكنت دائمًا أتلقى من الحاج محمود زوجها شكوى مرة من هوسها فى الشراء والتنقل



بين الأسواق المختلفة، ولكنى أعرف جيدًا أنه يحبها، ومن ثم تتدلل عليه طوال الوقت. كان الله فى عونك يا حاج.

وصلنا لمحطة الجيزة والقطار على وشك المغادرة، ركنت سيارتى فى الموقف التابع للمحطة وأحكمت إغلاقها، وسرت أترنح بكل هذه الحقائب والأكياس، ومن ورائى تركض الحاجة محاولة ألا يترجرج لحمها الكثيف من أثر الجرى وراء القطار، أخيرًا استوينا على المقاعد المحجوزة لنا، جلست بجوارها كحارس لكل هذا الذهب والمصاغ المبروم حول عنقها وساعديها.

ـ إيه يا حاجه كل الصيغة دى؟ ده إحنا طالعين رحله سياحية، مش رايحين عزا. (كانت مشهورة بأنها تذهب للعزاء فى أى شخص بكامل زينتها وحليها ومصاغها، حتى صارت معروفة بهذا المظهر الباذخ والذى لا يتناسب مع حالة الحزن الموجودة فى أى عزاء).

ـ خمسه وخميسه فى عينك يا تامر، عمك الحاج معاه زباينه فى الصعيد ولازم يشوفونى على سنجة عشرة، أومال عاوزنى أسافر بالترينج يا سى الخواجه انت؟

ـ والله فكره حلوه تسافرى بالترينج وتمسكى فى إيدك مضرب التنس وانتى رايحة أهو أحسن من شارع الصاغة اللى إنتى شايلاه ده.

ـ وإنت إيش فهمك فى الذوق والإيتيكيت يابتاع الكمبيوتر انت؟

أجبتها وأنا أقاوم رغبة شديدة فى الانفجار فى الضحك.

ـ على رأيك يا حاجه والله، عمومًا المطلوب هو إنى أسلمك للحاج بالجرام.

والله إنتى المفروض تكونى الموديل الرسمى للسرجانى وتنزل صورك كل يوم مع أسعار الجرام فى الجرايد.

نظرت لى طويلا بعيونها المكحولة الضيقة لتستكشف إن كنت هازئًا أو ساخرًا، فهى تمتلك حساسية كبيرة تجاه تعليقاتى انا بالذات، بل وتهاجمنى فى أحيان كثيرة لأنها للأسف تغار من علاقتى الطيبة بزوجها، ولا أعرف لهذه الغيرة سببًا إلا وهو الامتلاك، أشارت إلىَّ أن أناولها أول كيس، فأحضرته لها من على رف الحقائب المكتظ بأشيائنا فوق رؤوسنا، فتحت الكيس لينبثق منه طبق من الورق، يرتمى عليه ممبار محشو ساخن، وقطع لحم محمر، وطبق من سلاطة الطحينة. «أوووووف بركاتك يا معلم بحه». شرعت تأكل ولم تعزم علىَّ بإصبع، تظاهرت باللامبالاة وامسكت برواية زقاق المدق لنجيب محفوظ اتظاهر بقراءتها، ولكن خياشيمى كلها اهتاجت بفعل رائحة الممبار واللحم التى قلبت عربة القطار نفسها، إن الحاجة طاهية محترفة لدرجة الاجرام، وأنا شخصيًّا أحب طعامها، بل إننى تعلمت منها بعض الأصناف المعقدة، مثل المزرودة بالكسكسى والبط، والحمام المحشو، وبرام الأرز المعمر. أشرت للطبق العامر بحسرة قائلا بتردد وانهزام

ـ ما تجيبى صباع ممبار يا حاجة، إنتى مش شايفانى ولاّ إيه؟

ـ إوعى تمد إيدك يا بتاع الإتيكيت انت، روح هاتلك سندوتش طعمية باردة ولا باكو شمعدان بنص جنيه.

إنها تمارس إذلالا متعمدًا، إنها تملك بضاعة نادرة وشهية جدًّا.

لانت ملامحى المتحفظة وأنا أعتذر قهرًا بعد أن طويت نجيب محفوظ جانبا.



ـ هو إنتى مش عاملة حسابى ولا إيه؟ مش كفايه شايل من حلوان لهنا.

نظرت لى بفم لا يسكن أبدًا، ورفضت بسخرية مريرة قائلة:

ـ قلت لأ مافيش، دول يادوبك على قدى.

نظرت للكيس العملاق، إن فيه ما لا يقل عن العشرين أصبعًا غليظًا من الممبار وتلا كبيرًا من اللحم المحمر.

ـ حسبى الله ونعم الوكيل.

وكأننى قلت تعويذة كبرى. لانت الحاجة أخيرًا وبطريقة فجائية وقالت متباكية

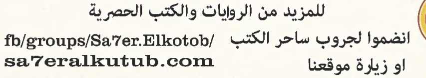
ـ بتحسبن عليا يا تامر وأنا باكل اللقمة؟

لقد أخذ الموقف انعطافًا خطيرًا وأنا أعرف أنها قد تنفجر فجأة، فهى من يحسب ألف حساب لجملة «حسبى الله ونعم الوكيل» وتعتبرها تعويذة أذى كبير.

ـ آه بحسبن هاتى بقى.

واختطفت من الطبق أصبعًا عامرًا من الممبار الرائع، ظللت ألوكه باستمتاع كبير، ثم اختطفت الثانى وأنا ألمح ابتسامة تشفٍّ على وجهها المستدير، ثم قامت هى بتقديم الطعام بكرمها المعروف عنها مبتسمة فى شماتة نهائية وانتصار مؤكد.

بعد ساعتين كانت الحاجة تضع صينية البسبوسة بالسمن البلدى فى حجرها وتقتطف منها قطعًا فى غاية الكثافة وطبعًا شاركتها دون تعليق. إن البسبوسة غارقة تمامًا ولحد الموت فى السمن البلدى، إنه سمن بالبسبوسة



وليس العكس أبدًا، كما أن السكر شحيح بعض الشىء، لقد تلوث اصابعي بكل هذه اللزوجة المحببة، لا بأس، لا باس ابدا.

ـ محبتش أحط عسل كتير عشان التخن والوزن وكده.

كده؟ ألاتعلمين يا حاجة أننا تقريبًا سننزل من القطار وقد زاد وزننا ما لا يقل عن الخمسة كيلوجرامات؟

بعد ساعة كانت الحاجة تبرز شطائر الدجاج المخلى مع الخيار المخلل والحمص المهموك فى الطحينة، تأكل منه بمنتهى التؤدة والحكمة، وطبعًا كان لى نصيب يتمثل فى شطيرة واحدة، ولكنها عملاقة، معدتى على وشك الانفجار والردح بالبلدى لصاحبها النهم الذي هو أنا، بعد ساعة وربع كانت الحاجة تتسلى بطبق من الأرز بالخلطة والمسكرات عامر باللحم الضأن المشوى. كان جديدًا على مجتمعنا الأكلات الخليجية المكونة من الأرز واللحم، بعد خمس ساعات كانت الحاجة تأكل ما تبقى من مشروع الممبار وتُحلى بما تبقى من صينية البسبوسة، إضافة لبعض البطاطس المقلية على سبيل التغيير، أدركت فى هلع أن الحاجة لا تفص، بل هى موتور دائر بوقود الطعام الغنى بالنشويات والدهون والبروتين والأحماض الأمينية والسكر والزيوت، وكل شىء يمت للسعرات الحرارية والكوليسترول بصلة، بالطبع لم أقدر على مجاراتها وانفصلت عنها تمامًا، وتظارهت باننى عائد لزقاق المدق حيث العم نجيب محفوظ حبيبنا، فمصرانى يتأوه من الحشو القاسى له بكل هذه الأطعمة اللذيذة الدسمة، وأخيرًا وجدت الحاجة تبرز من حقيبتها كيسًا منتفخًا ببذور اللب الأبيض والأسمر، وقطع الشيكولاتة والكاجو المحمص، والفول السودانى على سبيل التسلية وقهر وقت السفر، قاومت التعليق الساخر والمشهور عنى حين أريد استفزازها، لئلا تأخذ



منى موقفًا دقيقًا ونحن لم نصل بعد لمثوانا الأخير، أقصد الأقصر طبعًا، استقبلنا الحاج (محمود) فى محطة القطار، نظر لزوجته راضيًا ومستبشرًا، لاحظت نظرات الرومانسية بينهما، فأردت إفسادها بمكر قائلًا:

ـ إتفضل يا حج إوزن، الحاجه جيبهالك زايده ما يقلش عن سبعة كيلو.

استشف الحاج بفطنته أننى تراذلت عليها نوعًا ما بكلامى الساخر.

ـ إوعى يكون تامر ضايقك فى القطر يا حاجة.

نظرت له نظرة الطفلة التى تهم بهدم المعبد على الرؤوس، ثم كظمت غيظها منى لمناسبة أكثر جمهورًا، واكتفت بأن قالت:

ـ طول الرحلة باصصلى فى اللقمة يا حاج وبُقُه مبيسكتش بالتريقة والكلام الرخم.

التقطت منها الإشارة لأبث سخرتى المخزونة:

ـ أهو، شفت بتقول إيه يا حاج؟ بتقول طول الرحله يعنى كانت بتاكل طول الرحله وأنا بصراحه خايف على صحتها.

ـ ملكش دعوه بصحتى، أنا حرة آكل وقت منا عاوزة.

نظر لى الحاج نظرة تحذير بأن ألملم شراعى كيلا تهدم زوجته المتسلطة الرحلة على رؤوسنا، فاصطنعت ابتسامة مداهنة وأنا أقول لها:

ـ بس بصراحة المبار يجنن العاقل، والله يا حاجة تسلم إيدك، ولاّ البسبوسة، كانت غرقانة فى الكرم الحاتمي.

ـ إنتى عملتى بسبوسة؟ فين نصيبى؟





ـ شايلالك صينية صغيرة فى الشنطة يا حبيبى.

حملنا عملاء الحاج الصعايدة فى سياراتهم، وكنا قد وصلنا قبيل الفجر بقليل، واستوى كل منا فى غرفته الخاصة بفندق كليوباترا على النيل الجميل فى محافظة الأقصر، وقبل النوم عزمنا الحاج محمود على لقمة بسيطة، مكونة من الكباب والكفتة والحمام المحشو فى محل أسفل الفندق، احتفالًا بقدوم زوجته الغالية، وبالطبع كان حتميًّا أن آكل.

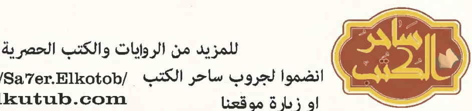
سألت الحاج عن برنامج الرحلة، فقال لى: إن الرحلة ستقوم غدًا فى الثامنة مساءً، فرحت بالخبر، فأنا أريد زيارة معبد الكرنك والبر الغربى، وقد يحتمل النهار كل هذه الجولة، ونمت مباشرة بمجرد دخولى لغرفتى ومخططًا سرًّا للذهاب إلى معبد الكرنك العظيم..

صحوت مبكرًا جدًّا، حوالى الساعة السابعة والنصف، جريت للحمام لآخذ دشًّا منعشًا، فأنا أريد استثمار الوقت وزيارة معبد الكرنك قبل ان تصحو القافلة، إضافة لرحلة سريعة للبر الغربى، أنا أعشق الفراعنة والحضارة الفرعونية الثرية، والتى لطالما أنعشت خيالنا وسجلت أدق تفاصيل الحياة بمصر القديمة، نزلت لموظف الاستقبال، وكان رجلًا غامق السمرة، نضيد الأسنان، ذا شحم ولحم مصفف بعناية فوق هيكله العظمي نظيف كطلاب الملاجئ اثناء زيارة الوزير، استأذنته فى السؤال عن كيفية الذهاب لمعبد الكرنك، فقال لى إنه على مسافة دقائق من هنا لو أخذت طريق الكورنيش. شكرته وخرجت عازمًا الذهاب على قدميَّ، سمعت موظف الاستقبال ينادى فعدت اليه، فاقترح بكرم أن أستعير دراجته فى الذهاب للمعبد، سألته: وهل أتركها وأدخل؟ فأخبرنى بأن نسيبه هو موظف التذاكر، ومن الممكن أن أتركها عنده. أعشق الدنيا حين تمنحنى حلولًا وتعطينى بعضًا



من الهدايا المجانية. شكرته عميقًا واعتليت دراجته والتى كانت من نوع (نصر) المصرى الصنع، ضخمة وثقيلة تشعر أنها مصنوعة من مواسير المياه، وليس من الصاج المفرغ، ويزيد عليها سلة أمامية وصندوق مكعب خلفى، لكنى كنت سعيدًا مغتبط الوجدان، مستعيدًا لطفولتى، وركضت بالدراجة يمينًا فى اتجاه المعبد، وجدت نسيبه الذى تركنى أدخل من غير دفع التذكرة على سبيل التحية لنسيبه، يا ألله! ها هو طريق الكباش الذى لطالما شاهدته فى التليفزيون، أخرجت كاميرتى الديجيتال وشرعت آخذ صورًا من زوايا متعددة، كل لقطة وكل زاوية جميلة وثرية بها لا يقاس، وفى غمرة انفعالى، وقبل أن أخطو لداخل مجمع المعابد، شعرت بثقل ينزل على كتفى، كأنك تحمل حقيبتك المدرسية يوم الأحد، الجدول عامر بالحصص، والحقيبة عامرة بكتب تلك المواد السخيفة، انتابتنى القشعريرة، لقد حل (عتيا) كنت أظنه رحل أخيرًا بعد طول عذاب سببته له ومحاكمة أسفرت عن أعجب ما فعلت، لابد أنه يريد أن يثرثر قليلًا عن المعبد والفراعنة، كان حضور (عتيا) وشعورى وهو يمتطى كتفى يشعرنى بالانهزام وبأننى مطية لجن عجوز ضرير قبيح الهيئة، مع الوقت كنت أتمرن على ترويضه حتى لا يسبب لى إحراجًا عامًّا أو يعصبنى لدرجة الجنون، ثقلت حركتى ووقفت ريثما يتخذ (عتيا) وضعه الأمثل على كتفىَّ، مجرد أن تعرف أن هناك شيخًا طاعنًا فى السن يجلس على كتفيك، سيجعلك تشعر بآلام فى ظهرك وبالعصبية المتواترة على تفكيرك، توقفت ريثما يقول (عتيا) شيئًا، ولكنى شعرت به يتشمم الهواء، شمس ديسمبر الحنونة تغمرنى بكرمها هذا الصباح، والقدر يغمرنى بمصيبته أيضًا بحضور ذلك الجن الشرير الشرس (عتيا).

......



حكمت المحكمة:

تناهى لأسماعى الشكوى المسجوعة من هذا العفريت لهيئة المحكمة الموقرة بالفزع، عرفت بذكائى أننى فى حضرة محاكمة من التى سمعت عنها كثيرًا فى الأساطير والحكايات الشعبية، بل إن عتاة السحر فى العالم ذكروها فى كثير من المواضع، وفيها يدخل المتضرران إلى ساحة المحكمة وقت السحر أو وقت الفجر، يتخاصم الاثنان فيحكم بينهما ملك من ملوك الأيام السبعة لو كان الخصمان من نفس الطائفة أو بوجود قاضيين لو كانا من نفس القبيلة، أو ثلاث قضاه إن كانا من نفس العشيرة، أو أربعة قضاة لو كانا من نفس المملكة، أو من خمسة قضاة لو كانت القضية بين إنسى وجنى، أو ستة قضاة لو كانت بين ساحر وجنى، أو سبعة قضاة لو كانت بين ساحر وملك من الجن، وكنت مُدانًا بالفعل ومتعمدًا للقسوة فى التعامل مع عتيا، وكنت أملك من الدهاء ما يجعلنى أدافع به عن نفسى. كانت ادعاءات الجن بأننى تعمدت حرقه بالملح، رغم معرفتى بوجوده ورغم إحراقى له قبلًا، وبأننى أصلًا الوسيط الذى أحضره من عالمه، بحق كل أسماء ملوك الجن، إلى أن استجاب للدعوة، تظاهرت بأننى موافق على كل ما يقوله ذاك الضرير، وبأن علىَّ الخضوع والخنوع الكامل لهيئة المحكمة، وحين طُلب منى الكلمة، أخبرت المحكمة بأننى موافق على كل ما تحكم به وأنا ماثل لكل حكم يأتي منهم، لكن لى ملاحظة، وهى أن عتيا لم يعلن عن حضوره، ولم يؤسس لعهد أو ميثاق تعاون، بل اكتفى بأن أثار ذعرى وخوفى الشديد منه، ومن ثم كان لابد من الخلاص مما أجهله وأحسبه ضارًّا لى. كان لكلماتى وقع السحر على الحضور، لتتعلموا شيئًا مهمًّا يا قراء الرعب، احترم الجن يحترمك، لا تزعجه ولا تتسبب فى أذيته ولا تسخر منه،



لا بالفعل ولا بالقول كأن تتحداهم أو تتكلم عنهم باستهانة أو استهجان، حتى فى حضور الجن الشرير والذى يعرف أنه يحيق بك بكل أذى، احترمه أولًا واجعله يخجل من أخلاقك ومن حسن تعاطيك للدين والصبر على البلاء الروحى، كل هذا يجعل الجن يحترمك ويقدر لك إخلاصك لربك.
دوي الصمت يلف المكان، ثم سمعت بإدراكى وليس بأذنى أغرب حكم لم أتصور أنه من الممكن أن يصدر، لقد حكمت المحكمة على شخصى بالالتزام بما يأتى، أن أستقبل (عتيا) فى أى وقت يريده هو وليس أنا، وأن أتعامل معه بصداقة وأخوة وأقوم بخدمته وتطبيبه لمدة سبع سنوات كاملة تبدأ بدورة كوكب المشترى، كذلك أؤسس جزءًا من بيتى لعمل طوطم أو ضريح صغير فى بيتى لاستقبال عائلة (عتيا) من أولاد وأحفاد وزوجات، سواء من الجن أو الإنس، وقد وجب النفاذ وإلا سيحكم عليك بالبرص والجرب والجنون، وافقت بشدة وأنا أحاول كمصرى أريب أن أجد ثغرات فى التنفيذ، لقد فات أوان الرعب والارتجاف، وجاء عهد التعامل الذى أود أن يكون حِرفيًا، أفقت من نومى فى البلكونة، فوجدت القمر يغمرنى تمامًا، يالك من شهر مقيت يا أغسطس، أكرهك وأريد خلعك أنت وفصل الصيف من قائمة التوقيت! كان الحلم يرن بضوء وهاج فى ذاكرتى، فإننى أذكر كل التفاصيل كما لو كنت سافرت أو انتقلت آنيًا إلى حيث بلاد الجن الشقيقة، لابد أن كابوس الطين كان من إعدادهم لبث الرعب فى العذاب الدنيوى فى عقلي، الذين يملكون فيه باعًا طويلًا فى الانتقام من بنى البشر، فى اليوم التالى اخترت ركنًا قصيًا من شقتى حيث بلكونتى الصغيرة المطلة على ميدان التحرير، صحيح أن هذا الضريح سيكون فى غرفة نومى تقريبًا، ولكننى أفضل سرية ذلك الإجراء بعيدًا عن زواري من الأهل والأصدقاء، أنا أؤمن بالسرية والخصوصية، خصوصًا فى تلك الأشياء. نظفت المكان،



وذهبت للنجار كي يصمم لى هرمًا مصغرًا مجوفًا بمساحة نصف متر وارتفاع متر تقريبًا، ثم قصصت كل آيات الرقية الشرعية والأدعية ولصقتها بداخل مجسم الهرم وخارجه، حفرت آية الكرسى، وسورة الناس، وسورة الفلق، وسورة الفاتحة. هرم من الأدعية والأذكار وبعض من سور القرآن، أنا لا أعرف دين (عتيا) ونسيت أن أسأله، أعتقد أنه مسلم من الأكراد أو الأتراك فهو طالما وجدته يهتز من سماعى لأية مواد صوفية، فى العموم الجن يتعامل معك بصفة دينك أنت لا دينه هو، أعتقد أننى صنعت مصيدة وليس وكرًا لأهل (عتيا) العجوز، أعرف أن الشكل الهرمى له طاقته، وأعترف أننى لم أُعدّ للفكرة، بل طرأت على بالى كحل وتنفيذ للحكم الصادر بشأنى أنا، وليكن ما يكون، كفانى أننى سأستقبل كاهنًا طاعنًا فى السن ضريرًا كلما حلا له هو، وكفانى الرعب الذى يصدر رغمًا عنى وقت الحضور والارتكاز حول عنقى وكتفاي، لن أحكى لكم كم من ليلة قمت فيها مفزوعًا على صوتهم وهم يتحاورون داخل ضريحهم، أو كم الصراخ والقتال بينهم إذا ما اختلفوا، كم احتملت من زيارات عجيبة سأحكى عنها لاحقا، لقد صار أن أسمع شيئًا أو أرى ضوءًا أو تجسدًا شيئًا عاديًا فى حياتى اليومية، ولكنى ازددت انغلاقًا، كما أن تصرفاتى باتت حريصة لأننى أعرف أن ثمة وجود غير وجودى فى البيت، من حسن الحظ أن موضوع الضريح كان لمدة عام فقط، وقد تولد لدي عادات غريبة على ثقافتي لم أكن لاعلم أنها موجودة فى نفسيتى، إما خوفى نفسه فقد رحل وحل محله رهبة تزيدنى شوقًا للتلامس بيني وبين قوم عتيا وكأننى أريد أن أنزعهم منه ليخصونى وحدى دونه ذلك اللعين الذى قلب حياتى رأسًا على عقب، كنت أقوم بتشغيل حفلات الشيخ ياسين التهامى ذلك الذاكر ذائع الصيت والذى يعشقه ملايين الجنوبيين، أطفأ الأنوار وأضيء شموعى الحمراء وأتمايل



مع إيقاع أغانيه المزركشة بالزخارف الخضراء، اسمعوا معي تلك الترنيمة:

آه يا دنيا آه، تراب في تراب في تراب، أنت تراب نحن تراب، كل شيء في ضباب، يا عجبا للروح هل تقوى على هذا العباب ؟ ليتها تقوى على النفس تسقيها العذاب، يا دنيا كلما قلنا صفاء، قلت بل هما مذاب.

يا دنيا كلما قلنا رحيقا، قلت بل مرا وصابا، يا دنيا كلما قلنا سموا، قلت بل نحو المساب، دنيا التسالي، لم يخدموك إلا ذئاب، خذي مالك واتركيني، فأنا لا أقوى على هذا العباب، دار هم دار غم، آه من تلك الصعاب، دار كرب وابتلاء، كل ما فيك سراب، ملعونة ملعون ما فيك، إلا ذا الرحاب

هكذا يشدو الرجل بلا كلل عبر حاسوبي بينما أقف مترنحًا ورأسي مترددًا يسارًا ويمينًا، لهب الشموع يتراقص تلقائيًّا مع الأيقاع، بينما الحظ التجمع يزادا كثافة لجمهور (عتيا) يفعل مثلما أفعل، يتنرح بالذكر والطرب، أشم رائحة عرقهم إذ يسيل من فرط الانفعال، ياإلهى إلى مذا قد تحولت فى تلك الليالى المقمرة، لقد بات الأمر إدمانًا عجيبًا لا أعرف له نهاية أو مدلول، ممم أريد أن أقول شيئا لطالما خجلت من ذكره أمام نفسى، إننى بالفعل أستمتع بكل هذه الخصوصية الروحية، ترى هل يشعر بى المارة فى طرق وسط البلد التجارية يبحثون عن عروض الأسعار والأوكازيون، لن أعرف أبدًا.

.....

لم يخف عليكم ولا على ذكائكم الحاد أن البنت التى تدعونى للدخول هى سارة مقطوعة الرأس، أنا أحب فى كتاباتى أن أحرق كافة التفاصيل، ربما لأصعب الأمور على نفسى، ولكن لا تنسوا أننى وقتها لم أكن أعرف أو حتى أتخيل، ولا أتصور أن من يقودنى لداخل شقة (بهيجة) هو روح ابنتها، فهذا جائز. إن هذه الروح المسكينة تطلب بأن تعيد لها رأسها الذى أخفته أمها ليلة الغُسل والدفن، فهذا كلام مفروغ منه وقد ألمحت له فى الفصول السابقة، وأنه قد يتشابه مع قصة «سليبى هولو» الشنيعة التى جسدها ممثل المفضل «جونى ديب»، لكن أن أتبعها وأدخل لمكانها، أن أجد بهيجة جالسة فى صالة المنزل متربعة على بساط وأمامها إناء به يوجد به سائل أصفر قميء تنظر له بإمعان ويجلس إلى جوارها صديقى البروفيسير رشدى، ثمة شيء مغلوط لا أستطيع تفسيره أبدًا لماذا ينظر رشدى بهذه العيون الزجاجية وكأنه تمثال، ولماذا لا تعيره بهيجة أى انتباه؟ ماذا حدث بالضبط؟ أيكون شهر العسل قد غطى رشدى باللزوجة المتجمدة على هذا الوضع؟! ماذا فعلت لك الأرملة السوداء يا أحمق؟ إلى أى شرك شددت نفسك به يا زعيم الأغاوات، اقتربت منهما وأنا أعرف أن بهيجة لا تشعر بى، نظرت إلى ما تحدق به بهيجة، صور مهتزة تظهر فى الإناء، صورة شاب مائل للامتلاء يقف منتظرا، لالالالا إنه.. إنه.. إنه أنا، ماالذى تنوين فعله بى أيتها الساحرة؟ ألا تشعر بوجودى بهيجة نفسها فهو أمر لا يطاق، لقد نقلتنى الروح لمجالها هى ولم تلعب معى الدور الأرضى، بل نقلتنى إلى وسطها عالى الذبذبة، أوقفتها بينما هى تجول فى أرجاء الشقة، وسألتها ماذا تريدين؟ سمعت أفكارها، إن أمى مسكينة جدًّا، لقد حولها الحزن البالغ إلى معتوهة مهووسة بالطقوس، إنها تطبخ للرجل طعامه وتجعله ساهمًا معظم الوقت، لماذا، لأنها تريد صحبة ولا تريد إزعاجًا، إنها تريد



جسدًا ولا تريد شخصية، كفاها ما هى فيه من جنون وحزن مقيم، لقد كانت بهيجة تخدر رشدى طوال الوقت بتعاويذها وطلاسمها، جو الشقة يوحى بانحسار الطمأنينة التى تغلف معظم بيوتنا، بل إن الشقى بدت كقبو يرتع فيه الانقباض ويعشش فى أركانه كائنات ذات بعد ظلامي، أما رشدى فهو لا ينتبه إلا إذا طارحها الغرام أو ليأكل، ومن ثم يعود للثبات المستمر جالسًا إلى جانبها ساهمًا ناظرًا للفراغ العميق ياله من مستقبل لائق بطمع وتخطيط مادي سابق، لقد سحرته بهيجة وحولته لدمية تخلع عنها ملابسها وقتما تريد هى، ياله من مستقبل سعيد يا رشدى، يا محطم قلوب النساء! ترى ما رأي تلاميذك الآن فى هذا الوضع العجيب؟! ولكن والحق يقال، لقد شعرت بالذنب العميق نحوه، وأضمرت أن أخلصه من سجنه الروحانى لاحقًا، أما الآن، فأنا فى وادٍ آخر، اقتربت منه فوجدت وجهه شاحبًا، لا بد أنه يعانى آثار الغيبوبة طويلة الأمد، ماذا فعلت بك بهيجة يا رشدى؟ هى تحولك شيئًا فشيئًا لتمثال رجل فى الخمسين بادى الرجولة والوقار، صورة مجسمة لرجل تليق بالتعليق على حائط المدفأة، أما الشق الأغرب فى قصة بهيجة، أنها كانت تعشق القطط، كانت تخرج دومًا فى ليالٍ بعينها تطعم القطط الضالة وتعرف مخابئهم وملاجئهم فى ثنايا الشوارع والحارات فى وسط البلد، كانت تعتمر النقاب كيلا يتعرفها أحد من الجيران أو المعارف القدامى، كانت القطط تعرفها وتتجمع حولها لتأكل وتهنأ من يديها، لكن ماذا تريدين منى يا سارة؟ لابد أن هذه الجولة وكشف كل الحقائق له سبب وجيه، قادتنى (سارة) إلى حيث غرفة منفصلة، إنها غرفتها هى والتى احتفظت بها (بهيجة) - كما هو متوقع - طوال هذه السنوات، هنا يوجد المبرد العميق والذى تحتفظ فيه بهيجة برأس ابنتها الغالية، تحاورت الروح مع عقلى، ونقلت لى قلقها من قرب أجل أمها وأنها

تريد أن تكفر عن خطاياها فى الاحتفاظ برأسها، لا بد أن تعيد دفنها معها حتى لا يؤاخذها الله على فعلتها الشنيعة، فإنها مجبرة على التجسد لأمها كل ليلة، والأم مصرة على تقديم العشاء لها فى كل ليلة، لذا تجبر السكان على النوم أو الاختباء فى شققهم، أرجوك اقبل رجائى ووصل لأمى تلك الرسالة، أنا أحبها وأريدها أن تذهب صافية بلا شوائب، كفاها ذنبا ما فعلته فى ثريا تلك الجارة الأريبة التى لم يسكت لسانها عن السخرية من أمى لقد أخذت نصيبها من الانتقام وكفى، إنها حزينة لما وقع على (مها) وعلى أخيها (رشاد) كفى.. كفى.. كفى، أمى تمارس سحر النوم والغفلة على سكان البناية كى تنفرد بوجودى بلا إزعاج، تريد أن تهدأ العمارة وتنام من التاسعة حتى تستطيع استحضارى وليس أنا، أما الهدف الرئيسى، هو مغادرة الروح من حيز الشقة، فوجود الرأس يثبتها فى الشقة ويجعلها عالقة لا تستطيع أبدًا الخروج لعالم البرذخ الخارجى، هى محبوسة قرابة السبعة عشر عامًا، والآن تريد أن تتحرر، وأظن أن هذا من حقها، كل ما يشغل بالى الآن هو أن أغادر الشقة، فربما تجدنى (بهيجة) أمامها فجأة ويحدث ما لا يحمد عقباه، تركت الروح تهيم بملل وخرجت إلى مكانى الأول فوجدت نفسى مازلت واقفًا أمام المصعد الذى قطع رأسها قديمًا، أشعر ببعض البرودة من رجوعى لجبلتى الأصلية، لابد أن نفسى هى التى كانت مع الروح، وقبل أن أغادر فعليًا فُتح الباب هذه المرة عن وجه (بهيجة) المتجهم، امتقع وجهى وقد نسيت الهدف الأساسى من زيارتى لها، آه كنت أريد السؤال عن (رشدى)، تقدمت منى بسيقان من الهلام وهى تسأل عن سبب وجودى أمام باب شقتها بكل حزم وصرامة، استعدت روعى بعد محاولتين، إن تدفق المعلومات كان سريعًا مركزًا لداخل وعيى، ووجدت نفسى أقول لها بمنتهى الصراحة:



ـ مدام بهيجة... بنتك سارة زارتنى وقالتلى أقولك إنها بتحبك جدًّا.

تصلبت عيون (بهيجة) على وجهى الممتقع، كيف واتتنى الشجاعة فى أن أقيء تلك المعلومة فى وجه بهيجة؟! لم أكن أعلم أن الأمر بالغ الخطورة، ولكنى أكملت بكل تهور ورغبة فى الخلاص الأكيد.

ـ وبتقولك كمان إنك لازم ترجعى تدفنى رأسها معاها؛ لأنها محبوسة عندك من ساعتها، وهى مش سعيدة أبدًا بالجبس ده، هى كمان عايزة تمشى لأن بقى فيه رجل غريب فى البيت، وهى بتشوفكم وده بيأذيها جدًّا.

ـ سارة قالت كده؟

نطقتها أخيرًا، واندفع شلال عظيم من عينيها كاد يغرقنى أنا فى بحر من الندم.

ـ أيوه بأمارة الديب فريزر اللى فى أوضتها.

اتسعت عينا بهيجة لهول ما تسمع منى! توقعت انفجارًا، توقعت مشاجرة عارمة، توقعت إنكارًا كاملًا، توقعت أن تقلبنى لضفدع مبرقش أو لقلم رصاص مقصوف السن، لكن المرأة هزت رأسها بالموافقة والضعف الشامل، واقتربت منى وأمسكت يدى تقبلها، حركة مفاجئة لم أستطع إدراك أننى تأخرت إلا عندما خفضت رأسها ولثمت يدى على حين غرة، سحبت يدى بعد فوات الأوان، «حاضر يا إبنى هعمل كل اللى طلبته منك، حاضر يا سارة، أنا عملت كده عشان تفضلى جنبى يا حبيبتى، عشان قلبى اللى إتحرق بموتك يا روحى، لكن حاضر يا حبيبتى حاضر هنفذلك اللى إنتى عاوزاه».

كان هذا الكلام المتدافع يخرج من شفتى (بهيجة) التى عاشت كبومة



ترمق من حولها بكراهية ومقت، تراجعت لشقتها وهى تدعونى، ولكن حالتى لم تكن لتسمح بدخول الشقة مرتين، فاستأذنت منها ونزلت للشارع أريد بعضًا من الهواء النقى، لو أخبرت أحدًا بتلك القصة لن يصدقنى نهائيًّا، أعرف ذلك، والآن وأنا أكتب الأحداث بعد مرور خمسة عشر عامًا أستعيد مشاعرى وقتها والحيرة الشاملة التى اعترتنى، من أين لى بكل هذه الشفافية والقدرة على التواصل العجيب بينى وبين الأرواح؟ لابد أننى مشرف على الفناء، لابد أننى جننت أو فى طريقى لذلك.

.....

«وسَخّر لى فيها قديًا يطيعنى.. الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة... ممم» لقد طلب عمر من ملوك الشياطين بأن يسخروا له خادمًا مطيعًا وقديًا. لماذا قديم؟ ما معنى قديم؟ أيعنى مثلا المعمرين من الجن وأسلافهم، أم أن القِدم يعبر عن أصالة النوع، أو أن القديم هو من رأى كثيرًا وسمع كثيرًا على مدار عمره الطويل؟ ربما يصل عمر الواحد لألف عام ونيف، إذن هذا الـ(عتيا) هو القديم الذى تمناه عمر ـ الله يسامحه ـ و((سخر لى فيها قديًا يطيعنى))، بل هو يطلب عالِمًا قديًا وعرافًا قديرًا وأن يكون له بمثابة خادم يطيعه، ولكن هذا الخادم التصق بى أنا، إذن بالقراءة صحيحة أتت بثمارها فوق ما نتصور، حتى اسم (عتيا)، لقد ذكر فى القرآن عندما نادى زكريا ربه نداءً خفيًّا بأن وهن العظم منه وبلغ من الكبر (عِتِيًّا) أى العاتى فى السن والطاعن فى الزمن، لكنه بالطبع له لمحات سيئة ولحظات كنت أتمنى فيها أننى لم أره من قبل، والحقيقة أن دخول (عتيا) حياتى الروحية أعطاها ثقلًا وجوهرًا وموهبة بها لا يقاس، صحيح أنه يرعبنى ويطلب دومًا زيوتًا يطبب بها جراحه ولا يكف عن التأوه كشكوى



دائمة مما فعلت به، ولكن هذه الأمور قد تداوى بالزمن، وقد يطيب حرقك وتسترد أعضاءك يا عتيا وإن كنت أجهل كيف!

ويتمسك بالحادث كما لو كنت أحرقته حيًّا، نعم أنا أحرقته مرتين، لابد أن تلك العلاقة الثنائية تتمركز فى عقل (عمر) ويطلبها بشدة، لكن الأقدار وزعت الهدايا كيفما تراءى لها، وجاء العراف الضرير من نصيبى أنا، إن فى الحكاية طعمًا إغريقيًّا أسطوريًّا لا يمر مرور الكرام علىَّ، شخص يبحث عن المجد وآخر يحوزه، ولكن من قال إن الأساطير كالتقارير؟ ومن قال إن الأساطير ليس لها أساس تاريخى مموه، وأن لها قوة روحية عالية، كان (عتيا) يحضر حين يصير القمر بدرًا بالذات. تلك الأيام الثلاثة كان يتواجد بشكل كثيف، أحيانًا يأتى عصبيًّا، وأحيانًا يتحول للعصبية، يهمس بكلامه الخادش للناس، إن فلانًا سيموت، وأن فلانة عاهرة مستترة وأن هذا يفكر فى كذا، وأحيانًا يتلفظ بالشؤم البعيد، كان (عتيا) كعراف معمر يتلمس هو الآخر الغيب ويستقرئ الغيوب، مثله مثل العرافين البشريين، كنت دومًا أميل لقراءة الفنجان، أعرف أن البعض يسمونها (بارولوديا) أو خيال وصل خطوط الشكل ببعضه لنرى تكوينًا ثانيًا يقول شيئًا ما، هى عملية نفسية قحة وإن كانت مشبوهة بالروحانيات بلا شك، تخيل معى، أنت تمسك الفنجان وتنظر بتركيز وتستدعى البارلوديا الخاصة بك لتتخيل، وفوق كل هذا يجلس على كتفك جن قديم يقول لك همسًا أشياء إضافية، كان يتربع على كتفى، لا يكف عن الثرثرة السيريانية، والتى كنت أعرف بعضًا من مفرداتها، ولكنى كنت عاجزًا عن تكوين جمل، فقط تأتينى الكلمة من شفتين مرتعشتين تنفث السم وتهمس فى أذنى بما لذ وطاب من أخبار مذهلة.

......



جرس الباب يئز بحشرجته المعتادة، هرعت للباب لأخرس ذلك الجرس الجنونى، وجدت البواب النوبى ينقل لى رسالة من مدام بهيجة، وبأنها تنتظرنى فى شقتها بعد دقائق لأمر هام، لا بد أن بهيجة قررت التصفية وأشعر بأنها تريد الخلاص أيضًا من (رشدى)، لا أعرف كيف قرأت الموقف، ولكنه بدا لى هكذا، بل إننى توقعت أن تطلب منى صحبتها للمدافن لتتمم عملية دفن الرأس بجوار الجسد، وقد كان بالضبط، مع زيادة بسيطة فى التفاصيل، عندما لبيت دعوتها للنزول توقعت على الأقل أن أجدها وحدها لأن الموضوع يعتبر سرًّا على أعلى مستوى بالنسبة لها، لكنى وجدت عندها رجلًا أشيب يشبهها كثيرًا، عرفت أنه أخوها الأكبر وعميد العائلة الحالى، رجل يجلله الوقار والهدوء، عرفتنى إليه السيدة بهيجة، بحثت بعينى عن زوجها رشدى، ولكنها أوضحت أنها سمحت له بالخروج كيلا يسمع حديثنا، لقد قررت بهيجة دفن الرأس فعلًا فى مقابر الأسرة، ويا حبذا لو قبلت أن أكون معهم، استعجبت لطلبها، ولكنها قالت جملة كان لها أبلغ الأثر فى مستقبلى القريب، قالت بالحرف الواحد:

ـ إنت كنت الوسيط اللى بينى وبين بنتى، وإنت الوحيد اللى قلت الكلام عن لسانها صح، كل اللى جبتهم كانوا بيألفوا، بيكدبوا عشان الفلوس، لكن إنت يا إبنى أنقذتنى، بجد الله يباركلك، تعالى معانا يمكن تتصل بيك تانى أو تقولك حاجه.

ماذا تقول تلك المرأة! أنا وسيط روحانى؟! لالالالا مستحيل! صحيح أننى مررت بتجارب، لكن هذا لا يؤهلنى لمهمة الوسيط والتى أعرف أنها تحتاج شفافية عالية جدًّا، حاولت أن أبعد عنها تلك الفكرة ولكنها تشبثت بها كتصنيف، فى الأخير وافقت أن أذهب معهم لدفن الرأس الغالية،



وفى اليوم التالى صباحًا وجدت السيدة بهيجة وأخاها المحترم منتظرين فى سيارة الأخير أسفل العمارة فى الساعة الخامسة صباحًا، إنه وقت قاتل، أكون فيها سابحًا فى أثير النوم، ولكن الوعد وعد. دخلت إلى جوار أخيها الجالس على عجلة القيادة، بينما (بهيجة) تجلس فى المقعد الخلفى وتحمل لفافة مكورة فى حجرها، كانت تضمها إلى صدرها كلما ارتجت السيارة بحركة إضافية، مررنا بـ(عابدين) متوجهين إلى مقابر الأسرة فى باب الوزير، الجو مازال غائمًا، لم يبزغ النهار بعد، والشبورة المائية تجعل الرؤية متعذرة، أن تتذكر أنك تحمل رأسًا مقطوعة فى سيارتك لهو أمر مرعب حقًّا، كلنا ساهمون واجمون فى انتظار انتهاء المهمة الثقيلة، لم ينتبه الأخ إلى أن هناك كمينًا للداخلية على مخرج الشارع المفضى للمدافن، لم ينتبه إلا على صرختى بأن احذر، لقد صدم الحاجز المعدنى للكمين المنصوب، وبالتالى ارتفعت الأسلحة فى وجوهنا إشهارًا ووعيدًا.

.....

لقد وقعنا فى فخ لا فكاك منه، فلو أصر الضابط على تفتشينا سيكتشف أننا نحمل رأسًا لفتاة صغيرة معنا فى السيارة، نعم نعم هذا هو الرعب الحقيقى يا ناعمى الأطراف، الشرطة فى عز عز عنفوانها فى عصر مبارك المنصرم حيث قانون الطوارئ الجاثم على أنفاس العباد والبلاد، اقترب ضابط برتبة رائد من السيارة بحذر، بينما الأسلحة مشهرة نحونا «إنزل ياد انت وهو وهىَّ، كل واحد فيكم يحط إيده ورا دماغه، واللى هيتحرك حركه زياده هفرغ الرصاص فى دماغه». ترجلنا جميعًا من السيارة، بينما القليل من المارة يراقب الموقف من بعيد، اقترب من أخيها لأنه هو قائد السيارة، وتفحصه بعينين تتقد شررًا، فوجده شيخًا رقيقًا لا يسمن ولا يغنى من

جوع، فانتقل لبهيجة التى كانت تقف فى منتهى الثبات، نظر إليها فبادلته النظرات بأعمق بكثير مما كنا نتوقع، شعرت أنها تنظر لروحه أو لنفسة الدفينة، كانت تقبض يديها وتفردها ببطء شديد وكأنها تحلب لبنًا من تمثال صخرى، بل وجدت شفتيها تهتز بتمتمة خافتة كلهب شمعة صغيرة فى غياهب السراديب، حقًّا إنها لساحرة عتيدة، امتقع وجه الضابط تدريجيًّا وزال التوتر المغلف للموقف.

وياللعجب تراجع عن موقفه المحتد، بل وأمر رجاله بالتراجع فعادت إلى مقعدها تحتضن اللفافة وتُشير لنا بالركوب ففعلنا بينما كنت أرمق الضابط بانبهار عاتٍ، إنك لساحرة أريبة يا سيدة، ثار حسدى على قدرتها العجيبة فى احتواء الموقف، وعبرت السيارة الكمين إلى حيث طريقنا للمقابر.

.....

من حسن الحظ أن لكل أسرة حوشًا للدفن، مدفن أسرة الخولى، كان الحوش قديمًا متربًا مهملًا، فتحنا القفل بسرعة، لم نبلغ غفير المقابر حتى لا يأتى وتأخذ الأمور منحنى غير مرغوب فى تلك اللحظات الحرجة، ساعدت الرجل فى حفر التراب إلى أن بانت المجاديل الثقيلة والتى زحزحناها بجهد لنرى أخيرًا الدرج المفضى لبطن القبر، صنعنا فتحة تمرر جسد بهيجة التى أصرت على دفن الرأس بنفسها، خلعت نعلها ونزلت للقبر محتضنة لفافة بيضاء مكورة دموعها تسبق خطوات نزولها وكأنها هى من يُدفن، الذكرى الآن طازجة فى القلوب وتتابع مشهد موتها فى عقل بهيجة وكيف كانت الصدمة وقتها، لهجت ألسنتنا بآيات ذكر الله تعالى، غابت بهيجة فى الباطن، بينما وقفنا ننتظرها أنا وأخوها الوقور. مرت دقائق ثقيلة ولم تخرج بهيجة بعد، المفروض أنها ستضع الرأس وتصعد فورًا، بهيجة يا بهيجة. كان



ذلك صوت أخيها ينادى بتوتر وخفوت، ثم جثا على ركبتيه ينادى بتركيز: يا بهيجة يا بهيجة. ولكن لا رد ولا استجابة، اعترانا الدوار ورائحة التراب تغلف كل شيء حولنا، ما الذى دهى المرأة فى الأسفل، أتكون ماتت إلى جوار ابنتها؟ ماذا تفعل كل هذا الوقت؟! لن تتحمل أعصابى أكثر، أزحت الرجل ودليت بنفسى جزئيًّا لداخل الجبانة: «يامدام بهيجة يا مدام بهيجة إنتى فين؟» الظلام دامس والجبانة تتفرع لغرفتين بينهما الدرج النازل، ثمة بعض الأقمشة المهترئة هنا وهناك، أرضية القبر مفروشة برمل ناعم مخلوط ببعض الحصى، مازلت فى وضع صعب وقد تدلى نصفى العلوى لداخل حرم القبر، تزحزحت أكثر لأسمح بدخول بعض الضوء القادم من النهار الوليد، تكشفت المقبرة أكثر، لم أجد بدًّا من النزول بحثًا، بينما الرجل أوشك على الموت توترًا فى الأعلى، خلعت حذائى ونزلت بظهرى كما تعلمت من علوم الروحانيات، لا تنزل بوجهك أبدًا لداخل القبر، قد يكون هناك جن بانتظارك وأنت لا تعلم، وبالتالى نزولك بظهرك يجنب كل منكما رجفة المواجهة. «يا مدام بهيجة إنتى فين؟» لا أجرؤ على النزول، قلبى لا يطاوعنى أبدًا والهيبة تملأ صدرى بكل التصورات، علاوة على هيبة الموت وتكوين القبر ورائحة الفناء المغلفة لكل شيء، رميت بنظرى للغرفة على يسارى، فوجدت مشهدًا عجيبًا أثار رهبتى وعقد لسانى عن مواصلة النداء، رأيت السيدة بهيجة واقفة تصلى بمنتهى الخشوع، وتناهى لسمعى صوت النهنهة الصادر من دموعها الكثيفة أثناء الصلاة، يالها من لحظة مقدسة! أشارت للرجل بالاطمئنان، وسمحت بلحظة الخصوصية التى ترغبها هذه السيدة التعسة، ولمحت بطرف عينى تلك الفتاة التى دعتنى للدخول لبيت أمها، كانت فى أبهى زينة وقد اتسعت ابتسامتها لتضيء أجواء القبر المقبضة، ابتسمت لها رغمًا عنى فأشارت بيدها، فأشرت



بيدى، وتبدد الخوف والظلمة من نفسى دفعة واحدة، ثم وجدت بهيجة تسلم يمينًا ويسارًا ثم تقوم من مكانها لتمسح على رمل الغرفة كلها وتلتقط الحصى الخشن وتضعه فى حجرها، وتمهد المكان وتنظفه جيدًا، ثم وجدتها تسحب قماشًا قديمًا وتعيد وضعه فى اتجاه القبلة وتضع عليه الرأس المثلج، وتفك خيوطه من الجانبين، ثم تعود لتمسح وتمشط رمل الأرض وهى خارجة من الغرفة، وجدتنى أنظر لزاوية أخرى، فنظرت لها فابتسمت لأول مرة، تحركت خارجًا من القبر وممسكًا بيدها لأساعدها فى الخروج للدنيا، تركتنا وذهبت لركن الحوش لتفرغ الحصى الذى جمعته من أسفل، ماهذا يا بهيجة؟ إنه حصى وطوب جمعته وقمت بعملية تمشيط وتنقية للرمال يا أخى. لماذا فعلتِ ذلك يا بهيجة؟ نظرت له واتسعت ابتسامتها وهى تقول:

- سريرى اللى هنام عليه لازم يكون نضيف ومترتب ومافيهوش حصى.

.....

أواخر أكتوبر عام ١٩٩٨
أبو شَبَت:

لم يكن انتقالى لشقة وسط البلد مباشرًا، بل قضيت عامًا أتنقل من مكان إلى مكان بعد صدمتى فى (شقة الهرم) كان السمسار المسئول عن الإيجارات يقول لى إن موضوع الشقق المسكونة يتكرر علينا كثيرًا من مستأجرى الشقق نفسها، وبما أن شارع الهرم وشارع فيصل هما من أكثر الشوارع التى بها شقق مفروشة وإيجار جديد، كان لابد من أن تعرف أنه شىء وارد ولا يستطيع أى سمسار أن يضمنه. تنقلت لعدة شقق بالفعل

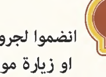


إلى أن تعرفت على الحاج نبيل وشريكه عبد السيد، بينما كنت أتجول بالقرب من شارع قصر العينى العريق، لمحت لافتة بدائية مكتوبًا عليها بخط ردىء وعلى ظهر كرتونة شرائح البطاطس، بأن هنا عبد السيد وشريكه نبيل للعقارات. عبد السيد بواب «قرارى» يملك الآن شقة فى العمارة التى هو عليها حارس، مسيحى تحسبه مسلمًا بسبب ارتدائه دومًا للجلباب الأبيض والطاقية الشبك البيضاء، مستدير الكرش، قصير القامة، يلبس عوينات ميكروسكوبية، ويسمع لياسين التهامى والعربى فرحان البلبيسى وكل المداحين فى آل البيت طوال الوقت، ولا يتكلم كثيرًا، وإن كانت طريقة كلامه متماثلة مع شكله لحد بعيد، أما نبيل، فهو مسلم تحسبه مسيحيًّا، يمتاز بعينين دافئتين وصدق فى الكلام والتزام وتفاعل، بقامة متوسطة ووسامة غابرة بقيت منها ملامح التكوين نفسها. كان أنيقًا يقترب من شكل الموظفين فى هذا الوقت، يرتدى «البلوفر» ومن تحته تبرز ياقة القميص، وبنطالًا قماشيًّا محدد الكسر بالمكواة، وحذاءً نظيفًا لامعًا، الأول كان فى الستين من عمره، والثانى كان على مشارف الخمسينيات، قرأت اللافتة وأنا أعبر شارع قصر العينى قادمًا من جادرن سيتى العامرة بالثغور الغنية، اقتربت من الرجل الجالس تحت الشجرة المعلق عليها اللوحة، كان يدخن نارجيلة أنيقة ويطالع جريدة الأهرام باستغراق بينما جهاز التسجيل معلقًا بمسمار على الشجرة ذاتها.

ـ السلام عليكم يا حاج.

رفع ناظريه إلىَّ فشعرت بأن ألف ألف عين تنظر لى من خلال قعر العدسة.

ـ وعليكم السلام والرحمة.



رد بصوت رفيع حاد يعكس طفولة متأصلة فى شكله المستدير وذكاء طلابيًا واضحًا، كان يتفحصنى حتى قبل أن يعرف ماذا أريد، هذا الشخص ليس عاديًا أبدًا، لمحت فى يده شبه إعاقة أو إصبعًا مبتورًا عندما مددت له يدى مصافحًا، لا أنسى لمسة يده المتفخة الإسفنجية، ولا القدر غير العادى فى نعومتها وانزلاقها وسمنتها، كان الوقت أواخر أكتوبر من العام ١٩٩٨ والجو شتويًا ساخنًا بعض الشىء نهارًا، كنت قد تعبت من اللف والبحث عن شقة تلائم مستواى ودخلى المتواضع، وفى نفس الوقت تكون مميزة بشىء كبير، وبالفعل دخلت لشقق عديدة، وهى إما غالية مرتفعة الإيجار، أو مهملة تشبه غرف الغسيل أعلى السطوح، كنت فى حاجة شديدة لشقة.. وكان خالد يتعجب.

ـ إشمعنى يعنى وسط البلد يا سى بتاع انت؟ متاخد فى أى حته... تولد لدىَّ إصرار فى أن أعثر على قطعة تناسبنى، وكان مشوار البحث يبدأ من ساعة مبكرة... معادلة صعبة جدًاااا تكاد تكون مستحيلة، وخصوصًا مع منطقة شديدة التميز كوسط البلد. سحب عبد السيد لى كرسيًا وأجلسنى إلى جواره، وطلب لى كوبًا منعشًا من الشاي. تفاءلت خيرًا.

ـ عاوز شقه يا حاج عبسيد. (هكذا تنطق بعد حذف حرف الدال والألف واللام فتصبح كتلة واحدة)... عَبِسِيدْ.

نظر لى (عبسيد) مليًّا ووزننى بخبرته، وشعر بخفة وزنى الواضحة، فكل ما فى جيبى هو ٧٠٠ جنيه فقط لا غير.

ـ أنا ساكن جنبك هنا فى شارع ضريح سعد.

ووصفت له تحديدًا أين أسكن حاليًّا، حيث كنت أستأجر شقة فى



الدور الأرضى لإحدى العمارات المتوسطة فى حارة جانبية، هى من أحقر وأسوأ الشقق التى استأجرتها على الإطلاق، وستعرفون السبب بعد قليل.

ـ وحشة أوى أوى يا عم عبسيد، حاسس إنى هتخنق فيها.

ـ هيا الشقق كده أقدام وأعتاب.

ـ معندكش فكرة. عتبتها خراب وكمان فيها مشكله كبيره.

ـ إيه.

ـ مليانه عناكب من التقيله دى، الظاهر إن المنور اللى جبنى فيه عش كبير ليهم.

ـ تقصد (أبو شبت)؟

.....

لا أنسى أبدا أبدا هذا الموقف، فى الأول وجدت واحدًا من ـ أبى شبت ـ يمشى أمام باب الشقة، فأسرعت وجلبت برطمانًا زجاجيًّا صغيرًا واقتنيته، فأنا خريج كلية الزراعة، ويسعدنى احتراز العينات الحية، وهو جدير بالاقتناء صراحة، له وزن ومشعر، تكاد ترى حركة الشعيرات على عموم جسده، بادى القوى، يبث الرعب والاشمئزاز فيمن يحدق فيه، كنت أصطاد له ما تيسر من الذباب وأضعه له عبر ثقوب التهوية الواسعة نسبيًا، لقد قدرت أن حجمه الكبير يعوقه دون المرور منها، ثم وجدت واحدًا ثانيا يقف متحفزًا على قاعدة المرحاض، كنت على وشك الجلوس، وشىء ما قال لى انظر فوجدته، لا تتصورون حجم القشعريرة والرعب الذى أصابنى يومها، وبالطبع جريت وراءه إلى أن هرسته بخفى المنزلى، كل هذا عادى

ويحدث، لكن الذى حدث معى لا أتمنى أن يحدث فى شخص غيرى مهما كنت أكرهه، فقد رجعت من العمل على الساعة الخامسة مساءً، خلعت ملابسى وذهبت لآخذ حمامًا منعشًا، كان الضوء يأتى من خصاص النافذة المطلة على مسقط النور خافتًا مريحًا للأعصاب، فآثرت ألا أشعل مصباح النيون البطيء والمتدلى من سقف الغرفة، واكتفيت به لأننى أريد النوم لساعتين قبل خروجى لمواعيدى المسائية، انتهيت من الدش وخرجت عاريًا أمسك بالمنشفة لأجفف ظهرى وشعرى، ودلفت لغرفة النوم الصغيرة، فتحت ضلفة من الدولاب قليلًا لأنشر عليها المنشفة، ولبست شورتًا واسعًا فوق لباسى الداخلى وارتميت على السرير. كنت متعبًا مكدودًا وأريد بعض الراحة قبل استئناف عملى، احتضنت الوسادة توطئة لنوم عميق، نمت قرابة الساعة. وأنا أتقلب أثناء نومى وأدخل راحتيَّ أسفل الوسادة، كما أننى أتمرغ أثناء نومى، شعرت بشيء لين تحت راحة يدى، فكان يكسوه الشعر. ماهذا؟ نظرت حولى، كان الظلام دامسًا بالطبع، فالساعة تقترب من السابعة مساءً، أخرجت يدى من تحت الوسادة وهى قابضة على هذا الشيء، وقمت جالسًا على الفراش، وكان فراشًا عريضًا أنام دائمًا فيه فى الناحية الداخلية الملاصقة للحائط، كان زر الإضاءة على ارتفاع ذراع من السرير، وإلى الخارج مددت يدى وكبست الزر، تبًّا لكل لمبات النيون المهتزة! كانت لمبة مشاكسة تحتاج لدهر حتى تشتعل وترسل ضوءها المعقم الأبيض، ولكن على ضوئها المهتز المرتعش فتحت يدى لأبصر كتلة سوداء ساكنة فى وسط راحة يدى، قربتها لأدقق، فى الوقت الذى اشتعلت فيه الإضاءة البيضاء، لأكتشف أننى كنت قابضًا راحتى على عنكبوت فاخر كبير الحجم مصنوع بضمير، اهتزت أطراف أعصابى معلنة عصيانًا عامًّا ورفضًا جامحًا، هززت يدى بعنف، فطار إلى أن وصل



إلى منشفتى المطروحة على ضلفة الخزانة وتشبث بها، بالطبع كانت عينى متركزة عليه، لم أكن أعرف فى تلك اللحظة ما الذى يوجد على الفراش نفسه! إلا أننى فوجئت، بل صدمت، بل شللت وأنا أرى عشرات العناكب تمرح على الفراش، تتحرك فى جميع الاتجاهات بطريقة متصلبة، فهى تسير مسافة، ثم تقف، ثم تغير اتجاهها، وتسير مسافة ثم تقف، ثم شعرت أن ثمة واحد أو اثنين يتحركان داخل الشورت المنزلى الذى أرتديه، لاااااااااااااااااااااااااااااااااااااا، انتفض جسدى بتشنج الكهرباء عالية التردد، ووقفت متصلبًا وأنا أشعر بحركة العنكبوت داخل سروالى نفسه يلامس أعضائى الـ..، أشعر بأطرافه المشعرة المفصلية توخزنى فى داخل السروال بطرف طرفها الحاد، تلقته خيوط أعصابى ملامسة شعيرات العنكبوت فى أكثر مناطق جسدى حساسية، تمشى بمخالبها على جلدى أنا، انتفضت وحللت السروال نفسه، فوجدت ثلاثة منها تتلاعب فى جشع، الذهول والعناكب حولى يمنعونى من القفز عاريًا لخارج الفراش، حاول واحدا وقحا أن يتسلق ساقى فتراجعت للوراء مذعورًا ومحطمًا ضلفة الزجاج المفتوح للنافذة الموجودة أعلى الفراش، يسيل الدم من ظهرى وكتفى بقد شعرت بسخونته، بينما كل جلدى ينبض بالاشمئزاز والرفض القاطع لملامسة تلك الكائنات لجسدى العارى، استجمعت شجاعتى وقفزت عبر الفراش إلى الأرض، جريت إلى باب تلك الشقة اللعينة، وخرجت مرتعبًا ودمى يسيل من كتفى وأخرس غير قادر على الكلام؛ لأجد نفسى فى مدخل العمارة التى أسكن أول دور فيها بسروالي الداخلى فقط، وفى لحظة دخول سيدات منتقبات يسكنَّ الدور التالى، لكنى لم أجد فرصة لأى شيء آخر... ماذا تفعلون لو كنتم مكانى؟... ها؟

.....

عبسيد وشريكه:

تعاطف معى (عبسيد) وإن لم يتخلَّ عن لغة المصلحة أيضًا إلى أن وصل شريكه نبيل، كان لوصول نبيل تأثير فارق فى مجرى الحوار، تعلمت من هذا الموقف أن وراء كل شخص متعالٍ أو غير متفاعل قد تجد شخصًا أكثر إيجابية وإفادة، فهو يتكلم بلغة أقل تعاليًا من عبسيد ويتفاعل جيدًا معك وسمع حكايتى من (عبسيد).

ـ الشقه دى فين يا أستاذ تامر؟

ـ شارع (.....) خلف وزارة الإنتاج الحربى.

ـ هى دى عمارة الست (تفيدة أبو سريع) اللى تحتها القهوه؟

ـ آه هيا.

ـ وإيه اللى حدفك على الشقه دى؟ دى لاقوا فيها ديك النهار واحد ميت بقاله ٣ أيام ولا حد يعرف عنه حاجه، لحد ما ريحته طلعت، والكشف الطبى قايل إنه ميت مسموم.

ـ يبقى أكيد من العناكب دى أنا متأكد، إنت مش متخيل حجمها ولا شكلها.

انتفضت شعيراتى الدموية، وبدأت أندب حظى، لابد أن هذا النحس يخصنى وحدى، وجدوا المستأجر ميتًا منذ أيام ثلاثة، يا سلام! لن أسترجع الأحداث ولن أقول إننى كنت أشعر بشىء، فقط لابد من المغادرة الحتمية، واحد ميت وعناكب مشعرة ووجع قلب ومشاعر مقبضة! لا، لن أنتظر فيها ولا حتى ليوم آخر، حتى لو نمت فى الشارع، لن أنتظر حتى تخمش



العناكب فتحات جسدى لتدخل فيه وأنا نائم أو غائب عن الوعى، لن يحدث أبدًا، قرأت فيما بعد عن (رهاب العناكب) أو الخوف الشديد منها، وعرفت أننى ربما مصاب به بدرجة جزئية.

أبو خطوة جنان ١٩٩٨:

تركتهم على وعد أنهم سيهتمون بالموضوع، وعدت أدراجى لأرتاح فى الفندق، إنه فندق بلا نجوم تقريبًا، كائن فى وسط البلد، وبالتحديد فى شارع فؤاد (شارع ٢٦يوليو) يحتل الفندق آخر ثلاثة أدوار من بناية ترتفع اثنى عشر طابقًا، استأجرت فيها غرفة صغيرة بلا حمام بأجرة ٣٠ جنيهًا فى الليلة. إن موقع الفندق ممتاز حقًّا ومن نافذتى أقدر على رؤية دار القضاء العالى، وسينما ريفولى، وطول شارع فؤاد كله إلى حديقة الأزبكية، حيث سور الأزبكية الشهير والمفعم بالكتب القديمة على طول سور الحديقة والرصيف، أيضًا تعودت على الذهاب إلى هناك أتسكع بين آلاف العناوين، ما بين مجلات مصورة، مثل مجلة سمر التى كانت تعتبر مسلسلًا كاملًا بالكادرات والانفعالات، ومجلات ميكى وسمير وتان تان، وبين الكتب الممنوعة أصلا وكتب الفضائح، والكتب الجامعية، وكتب الروحانيات على اختلاف أشكالها، وبهذه المناسبة دعونى أقدم لكم العم (لمعى)، أصحاب الفندق، سوريى الجنسية مصريى الإقامة، عمليون كمعظم الشعب السورى الرائع وأسعارهم معتدلة بلا ظالم ولا مظلوم، اسم الفندق هو «.... »، وفيه عشت حوالى الشهر لأرى عالمًا لم أكن أعرف أنه موجود بالأساس، بل وفيه تعرضت لتجربة عجيبة عجيبة لآخر درجات العجب.

.....



اعتدت أن أعود للفندق على آخر النهار بعد أن أنتهى من جولتى فى البحث عن شقة أستقر فيها، لم أخبر أحدًا بأزمتى واستمررت فى تلقى الدروس السرية (للفوتوشوب)، وأقول إنها سرية لأن الفوتوشوب فى هذه الأيام كان يقتصر فقط على الصفوة، وأن العمل به يتطلب مهارة فائقة. كنت أختلس ساعات الليل الأخيرة لأذهب لصديقى تامر ليعلمنى أسرار البرنامج دون معرفة صاحب المكتب فى شارع على الكسار المتاخم لمنطقة العتبة. كنت أعرِّج أولا على فطاطرى الحرم بشارع كلوت بيه بالعتبة لأبتاع فطيرتين كبيرتى الحجم، سعر الوحدة ثلاثة جنيهات كاملة، أنتظر الرجل ريثما يخبزها بينما أنا على المقهى المجاور أدخن الشيشة القص فى ذلك الجو الصامت، ثم أصعد ليفتح لى صديقى والذى كان حديث التخرج فى كلية الفنون الجميلة واسمه أيضًا (تامر)، وعن طريقه تعلمت أسرار الفوتوشوب لأستقل بعمل جديد كنت أخطط له. كنت أحرز تطورًا يومًا عن يوم، وبات الأمر أسهل كثيرًا مما كنت أتخيل، ومع ظروفى الصعبة طلبت قرضًا من عميل عندى حتى أقدر على شراء جهاز الكمبيوتر الخاص بى والذى بلغ سعره وقتها أكثر من سبعة آلاف جنيه بانتيوم ٣ الحديث بسعة تخزين ١٢٠ جيجا بايت وسرعة كاش٥١٢ (لا تنسوا أننى أتكلم عن العام ٩٨). كنت أسهر عنده ـ عند تامر ـ لقرابة الفجر، ومن ثم أتركه يستريح وأذهب أنا إلى الفندق. مصعد الفندق مخصص للفندق فقط، أما المصعد الآخر فهو لباقى سكان العمارة الكائن بها الفندق، كان كمحطة القطار بين أناس مغادرين وآخرين قادمين، حركة الفندق كانت كبيرة لا تهدأ ومتنوعة الجنسيات، منها الليبى والسودانى والجزائرى، وبعض الأجانب الفقراء من أمثال الروس والأوكران والبولنديين وغيرهم من الأجانب الفقراء معدومي الدولار، فى الدور الأخير تقع الكافيتريا أو الروف، وهو مكان



نستطيع فيه سحب أنفاس من المعسل واحتساء القهوة، بينما شوارع وسط البلد ترتمى كسجادة تحت قدميك، لم يكن قانونيًّا أن أسكن بفندق وأنا من سكان القاهرة أصلا، ولكن لمعرفة صاحب الفندق بى تغاضى عن هذا الشرط ووهبنى غرفة نظيفة بلا حمام، بل كان حمامًا مشتركًا بينى وبين أربع غرف أخرى. كنت أعرف أن حياتى فى ذلك الفندق مؤقتة لذا كان علىَّ التعايش إلى أن أرسو بمركبى على شاطئ مناسب، وكان من بين نزلاء الأوتيل رجل كبير بالعمر، له شعر فضى غزير وبشرة بيضاء شاحبة وعين عسلية وسحنة مسيحية لا تغيب عن الناظرين. كان فى السبعين من عمره ويدعى العم (لمعى غبريال) الرجل يسكن الأوتيل منذ قرابة العامين بعدما غضبت عليه زوجته وأولاده وطردوه من البيت، العجيب أن الرجل كان بادى السعادة والتفاؤل، وكان طوال الوقت يشكر الرب بأنه أنعم عليه بالحرية فى نهاية أيامه، وبأنه لم يعد ليهتم بأمر الذين أفنى شبابه من أجلهم وفى الآخر تنكروا له، ومع أنهم استولوا على مطبعة التجليد التى كان يمتلكها فى (باب الشعرية) إلا أنه لم يقف عاجزًا، بل استأجر كشكًا يبيع فيه الكتب إلى جوار سور الأزبكية، العم (لمعى) خبير فى الكتب التراثية الإسلامية، لأنه تقريبًا قرأ معظمها، ويفرق فيها بين الغث والسمين بمجرد ما تذكر أمامه أى كتاب، بل ويسرد عليك نبذة وافية عن الكاتب والكتاب، كان رجلًا نظيفًا شديد الاعتداد بنفسه وبثقافته العجيبة والتى لا تمت لمثل من فى عمره وديانته بصلة، هو من أرشدنى للأوتيل، وتوسط لدى صاحبه السوري. كان من المعتاد أن أجده يحتسى قهوته فى مقهى المتروبول ويأكل الحلوى مع القهوة السادة، كان يشبه حياته الزوجية بالقهوة السادة وحياته الآن بالبسبوسة التى يعشقها، لِمَ يا عم لمعى؟ فيقول إنه عاش فى كنف زوجة قاسية، لا تعرف من الدنيا إلا المال والخوف الدائم من الزمن والظروف

والأيام، ومن ثم أصبحت كجحيم مقيم لرجل صاحب مزاج مثل لمعى، وبالطبع لم يرد ذكرًا للطلاق أو الانفصال؛ لأن العقيدة المسيحية صارمة جدًّا تجاه هذا الإجراء بالذات، وتمخضت العشرة القاسية عن خمسة أبناء،أربع ذكور وفتاة، كلهم نالوا حظهم من التعليم العالى، وكلهم تزوجوا أو فى طريقهم للزواج، ولكن الابن الأكبر اتحد مع الأم والابن الأخير وقرروا أن يستولوا على المطبعة وورشة التجليد، إذ إنها فى موقع متميز بميدان باب الشعرية، وقد عُرضت عليهم الملايين لقاء التنازل، وبالطبع كان لمعى هو الحجر العثر أمامهم، فاتهموه بالخرف والعجز، وأقاموا دعوى الحجر عليه ونجحوا، الغريب أن العم (لمعى) كان يسهِّل لهم الانتصار، وقد شعر بأنه مفارقهم ليبدأ حياة جديدة، أمنية حياته أن يتزوج مرة أخرى ويبدأ حياة جديدة ليلقن أسرته درسًا فى الحياة، وهى أن الحياة يجب أن تستمر مهما كان اليأس داحرًا. العم (لمعى) متدين، يعشق قراءة الإنجيل وهو جالس على الأرض متربعًا كما يفعل المسلمون، وخبرته فى الفقه الإسلامى وكتب التراث كانت مثار دهشة عارمة للجميع، إذ إنه يخبطك الحديث أو الآية فى الصميم بطريقة تذهلك أنت شخصيًّا، لدرجة أن العم لمعى كان اسمه الرسمى (الحاج غبريال). كان يأتينى دومًا بكتب قديمة، منها ما احتفظت بها للآن، خصوصًا كتب الفلك والأبراج وحسابات النجوم وعلم التنجيم والزايرجة الهندسية، ويقترح علىَّ أن أتصفحها ليقول لى رأيه الخاص فيها.

.....

هدية أبو خطوة يوليو ١٩٩٨:

كنت أسمع همهمة فى أروقة الأوتيل تتناقل الحديث عن صاحب الخطوة، هل سمعت أبو خطوة ليلة أمس؟ هل رأيته؟ لقد رأيته بجوار غرفة الغسيل



يصلى، لا كان يتجول بالسطوح ورأيته يطير، لالالا لقد سمعته عائدًا من دورة المياه.... كلام متناثر عن شخص يدعى «أبو خطوة» ثم عرفت أنهم يتكلمون عن روح زائرة فعلا إن فنادق وسط المدينة تعج بالأشباح وبالحوادث الروحية، ولها حكايات يشيب لها الولدان، بل يوجد فرع كامل من أدب الرعب لا يتحدث إلا عن الفنادق. كم واحدًا نام على ذات الفراش؟ كم شخصًا استخدم حمامك؟ منهم من انتحر أو مات مقتولًا. إن رعب الفنادق شيء معروف، وفى بعض الدول يعتبر مكانًا جاذبًا للسياح بل إن النزلاء يأتون خصيصا علهم يلتقون مع واحد، وقد كانت لى تجربة مريعة فى فندق سكندرى يقع فى منطقة محطة الرمل سأحكيها لكم لاحقًا، لم أعر الموضوع اهتمامًا، فقد اعتبرت أن الموضوع ساخر أكثر منه واقعي، وللعلم أنا شخصيًّا لم أشعر بشيء، درهات الفندق ساكنة هادئة، تلوك الزمن فى بطء وتلذذ، وتراقب فى ملل ذلك التكرار المرير للشخصيات والمواقف التى ترد عليها كل يوم.

.....

الساعة قرب الفجر تقريبًا وقد غرقت فى النعاس بعد يوم من الكد العنيف فى البحث عن شقة، فتحت النافذة لأنعم بدفقات النسيم الشمالى المواجه للنافذة، من حين لحين تلمع أضواء السيارات عند المنعطف أسفل الفندق، لابد أن تبطئ سرعتها وهى تدور بزاوية رأسية تقريبًا، أما إضاءتها فتنعكس على حائط غرفتى المواجه للنافذة وكأنها بؤرة ضياء متحركة، يحدث هذا الموضوع كل عدة دقائق، شيء ما أيقظنى من عز سُباتى، فتحت عينى فى الظلام أتحسس الموجودات، لقد شعرت أن هناك من يهزنى: «اصحُ.. قم.. انهض». لقد استجبت لتلك الهزات، فتحت عينى

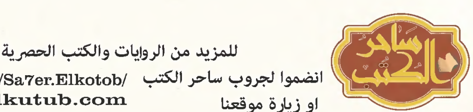




وجلت ببصرى حولى ولكن لا أحد، لابد أنه حلم، بالطبع هو حلم، وقبل أن أعتدل، سمعت صوت عبور سيارة عند المنعطف، وتوقعت حركة الضوء على الحوائط، وبالفعل تحركت الأضواء عابرة الحائط الجانبى إلى الحائط المقابل حركة الضوء بطيئة نسبيا، وفى تلك اللحظة بالذات، وعلى الضوء الضارب فى الحائط الأمامى، شاهدت... شاهدت رجلًا طويلًا يلبس جلبابًا أبيض ناصع البياض يشع، ويعتمر عمامة ضخمة فوق رأسه، دامت الرؤية مسافة الضوء لثانية أو اثنتين، لكنها كانت كفيلة باستيقاظ كل مشاعر الفزع عندى، انزاح الضوء، ولكنى أشعر ببقاء الزائر نفسه، استمسكت بغطائى جيدًا وطلبا لبعض الأمان، أشم روائح خشبية كالبخور، تناهى لسمعى صوت سيارة أخرى آتٍ من المنعطف، ترقبت مسار الضوء المتخلل من النافذة، ها هو آتٍ عبر ضوء الحائط الجانبى ثم انتقل كعادته للحائط المقابل، لا لا، لقد أبصرت نفس الرجل، لكنه الآن يقف لصق فراشى، ينظر إلىَّ أنا، وبالتحديد أنا، من غيرى فى الغرفة إذ لم يكن أنا؟! عيناه تلمعان كفصوص الماس وسط السواد مهيب، كانت له لحية قديمة أنيقة وشارب أخف درجة من اللحية يغزوهما الشيب، وجدته يمد يده لى بطريقة أن اعطنى شيئًا. هل تعرفون تلك الطريقة؟ إنها أقرب للشحاذة ولكنها ليست شحاذة، كأنه يقول لى ناولنى شيئًا، مددت يدى لا إراديًا إلى جانب الفراش، فوجدت بنطالى الجينز ملقى على المقعد بجانب الفراش، دفعت كفى إلى جيبى فقابلت نقودى الفكة، بضعة جنيهات وخمسة سليمة وبعض الفضة، كبشتها فى قبضتى وأخرجتها له كما هى ورميتها فى كفه الكبيرة، سيارة أخرى تأخذ المنعطف ببطء، الضوء يلوح عابرًا فى مساره، وجدته وقد عاد لموضعه القديم ثم ثم ثم اختفى قبل أن يذهب الضوء الزائر فى لمح البصر، لم أعرف متى ولا كيف! عدت



أدراجي للنوم، ولكني استيقظت على صوت طرق على الباب، إنه عامل الفندق الريفي، الشاب يأتيني بالفطور والذي هو صينية عليها طبق من الفول بالزيت الحار، وبعض وأعواد البصل الأخضر، وأقراص الطعمية الخليعة، وبعض الأرغفة الساخنة والباذنجان المغموس في الثوم والفلفل الأخضر، وحزمة من الجرجير المغسول، وبيضتان مسلوقتان في طبق من الطحينة، مجرد إفطار بسيط لشاب يشقى جل يومه بدون طعام تقريبًا، تفضلوا معي يا أصدقاء الرعب على الرحب والسعة. فتحت له الباب وعدت أفتش في جيوبي، إن الحساب أربعة جنيهات، وأترك للشاب جنيهًا يتحولوا لخمسة شاملة خدمة إرجاع الصحون الفارغة بعد الانتهاء منها، فتشت جيوبي، ولا مليم باقٍ. أين النقود؟! اختفت؟! لا لا، لقد وهبتها للزائر الذي شرفني ليلة أمس، أعطيته ـ الشاب ـ ورقة بعشرين، فذهب على أن يحضر الباقي وهو يأخذ الصحون الفارغة، تركت الباب مفتوحًا للتهوية، وفتحت النوافذ وخرجت للحمام، فقابلت العم (لمعي) يمشي عائدًا من الحمام مترنمًا بترنيمة أعرفها (جوه الطاحونة وجدت ماعونة يا ما صليت يا بابا كيرلس باكر وعشية.... جوه الطاحونة تارارا....) لا أذكرها جيدا للأسف، وجدني شاردًا، فألقى عليَّ الصباح بطريقة باسمة، فرجوته أن يأتي للإفطار معي، فقال لي سبقتك، وتركني نشيطًا ليخرج لعمله. ممممم... لقد زارني أحدهم فعلا، بل وأخذ نقودي أيضًا. أي نوع من الأرواح كان؟! يجدر بهم العمل في إشارات المرور أو أمام المساجد. يا إلهي. إن روح الدعابة حتى تتخلى عني، فلا أجد كلامًا مناسبًا أقوله! عدت للغرفة ومارست الإفطار بجشع تحت أشعة شمس الصباح الحانية، وصعدت للكافيتريا لأشرب الشاي المضبوط مع حجرين المعسل القص المعتبر قبل أن أنطلق لأعمالي أنا الآخر، كنت على موعد مع العميل الذي



سيقرضنى الدفعة المقدمة لأحجز جهاز الكمبيوتر الذى أحلم به، لقد وعدنى بإعطائى ثلاثة آلاف جنيه، ولكنه فجأة اعتذر عن تحقيق وعده لى، لقد حنث بوعده، شعرت بالإحباط يحاصرنى وشكرته على لا شىء، وغادرته وقد اسودت الدنيا أمام عينى، كنت أريد بشدة اقتناء الحاسوب وأحلم به ليل نهار، ومشيت كثيرًا، فحملتنى قدماي لحيث العم (لمعى) الجالس أمام كشك الكتب بالأزبكية، سألنى عن أحوالى فلم أصرح بشىء، شربت معه القهوة ثم تركته شاعرًا بالضياع، نقودى محدودة وإلى الآن لم أجد شقة، وكنت أطمع فى شراء الحاسوب، وأثاثى مركون فى شقة العناكب التى هجرتها بلا عودة، استحوذت على نفسى السلبية والأفكار الهابطة لدرجة كبيرة، فتوجهت لجامع (الكيخيا) الملاصق لميدان الأوبرا لكى أصلى المغرب وأستظل بالله ليحمينى من أفكارى السوداء، الحقيقة أننى أهرع دومًا إلى الله فى كل مشاكلى، صحيح أن الخجل يملؤنى بتقصيري فى العبادة، لكن الأمل يدفعنى أيضًا. كان رواد الجامع الأثرى قليلين جدًّا، لقد وصلت بعد صلاة الجماعة، فتوجهت للميضة الواسعة وتوضأت وانتحيت بنفسى فى ركن قصى من الجامع، وصليت وأنا مهموم مقبوض من تكاثف اليأس فى قلبى، هل علىَّ أن أرجع لبيت أبى؟ لقد عاهدت نفسى على ألا أعود إلا رجلا معتمدًا تمامًا على نفسه، حتى بعد حادثة (شقة الهرم) لم يعترينى اليأس من تحقيق حلمى بالاستقلال الكامل، انتهيت من الصلاة، وشعرت ببعض التجديد فى شعيراتى الدموية، وغادرت المسجد متوجهًا للفندق. لقد قررت أن أقضى ليلتى فى القراءة، بحثت فى مجموعة العم لمعى، فوجدت كتابًا عن (أهل الخطوة)، تذكرت اسم «أبو خطوة» الذى أسمعه مرارًا فى جمل الكلام فى الأوتيل. كان الكتاب اسمه (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار) به موضوع طريف جدًا عن ظاهرة أهل الخطوة ومن تُطوى لهم الأرض



فيذهبون إلى حيث شاءوا. بدا الموضوع مسليًّا وفيه المؤلف الذى لا أذكر اسمه يتحدث عن معجزات وكرامات تاجر من مصر اسمه (على الخوّاص) وأنه كان قادرًا على إقامة صلاة الظهر فى الحرم المكى والعصر بالقدس، وتلا ذلك مجموعة ضخمة من شهادات الشهود والذين يقسمون كلهم بالطلاق الثالث على أنه حدث، ومع الكلمات المنغومة للكتاب وحالتى النفسية المنخفضة هبطت للقاع ورحت فى النعاس فى منتصف الليل تقريبًا.

.....

انتبهت من نومى على يد خفية تهز أكتافى، فتحت عينى فلم أجد أحدًا، فقمت وأطفأت المصباح فغُمست الحجرة فى الشحوب، تذكرت ليلتى السابقة وتلك الروح الشحاذة، شربت جرعة ماء من قلة فخارية اشتريتها من السيدة زينب، ثم تراجعت للفراش أستأنف النوم، إن النوم هو نعمة للمغتمين القلقين من أمثالى، هو مهرب مثالي بلا شك، ثم تكرر نفس السيناريو حرفيًّا وكأنه شريط يُعاد من أوله، الفرق هو أننى ضاعفت المبلغ، كنت أدفع له بالنقود عن غير إرادة منى فعلا، وكان الموضوع جباية ما، وعندما صحوت وتذكرت اغتميت واعترانى الغضب، لقد أعطيته هذه المرة خمسة وثلاثين جنيهًا وبعض الفضة،لا لا، إن الموضوع سخيف فعلا، ولكنى كظمت غيظى، وتابعت يومى شاردًا يائسًا من أى تطور، وفى الليل وبعد أن قررت أن آوى للفراش، أخرجت كل نقودى ووضعتها فى الدولاب بعيدًا عن متناول يدى، وفي عمق الليل زارنى هذا ال.. لا أعرف له تسمية محددة وإن كنت سميته بينى وبين نفسى بالشحاذ، زارني بينما كنت غارقا فى النعاس والاكتئاب، صحوت على تلك الهزة لأجده واقفًا أمام فراشى، ومادًا يده بإصرار أن أعطنى شيئًا، كان الرعب يتملكنى وأنا





أنظر فى لمحات سريعة إلى وجهه، كانت عيونه تلمع بالغضب المكتوم وبدا أنه فى مزاج سيئ وأنه قد يفعل بي شيئًا لا أتوقعه، سحبت محفظتى الجلدية وأخرجت منها ورقة بخمسين جنيها كاملة ودفعتها لكفه الكبيرة قبل أن أغيب مرة أخرى فى النعاس الإجبارى، وفى الصباح كاد الغضب يورثني الجنون، إن نقودى محدودة وهذا الذى يأتينى مغتصبًا جنيهاتي المعدودة والتى خزنتها لإيجار الشقة الجديدة ماذا أفعل؟ وفى طريقى صباحا لدورة المياه قابلت العم (لمعي).

ـ إنت تعرف إيه عن أبو خطوه ده؟

تلونت عينا الرجل بالاصفرار، وكتم فمى بيده ناصحًا إياى بأن أخفض صوتى، اندهشت منه كثيرًا، فسحبنى لغرفته وقص عليَّ الآتى:

ـ أبو خطوة ده مش جن ولا عفريت ولا شيطان ولا حاجة من دى يابنى، ده من أصحاب الكرامات، والناس بتتمنى زيارته ليهم، دى روح علوية كريمة، دول اللى يقدروا يطووا الأرض ويعبروا المسافات ويحققوا المطالب والأمنيات.

شيء ما أضاء فى عقلى بأن ألتزم الصمت ولا أصرح بالمقابلات المكلفة.

ـ دى روح أحد أولياء الله الصالحين اللى عندهم كرامات طيّ الأرض، والانتقال من مكان لمكان تانى، وزيارتهم شرف كبير لأى حد.

اندهشت من حماسه وهو المسيحى المتدين فى أن يتكلم عن الصوفية والكرامات وأولياء الله الصالحين! قرأ ما يدور بخاطرى وسمعته يقول:

ـ إسم الديانه مالوش دعوه بالكرامات، والتصوف موجود فى كل



الأديان، وكل صوفيه ولهم كراماتهم ومعجزاتهم، تعالى إقرى عن معجزات القديسين هتسمع العجب.

ـ بصراحه يا عم لمعى، ومع احترامى لثقافتك دى كلها، لكن أنا مش مؤمن بالموضوع ده خالص، وشايفه خيالى جدا جدًا.

ـ ششششش أسكت وطى صوتك ليسمعك، إمبارح سمعت موظف الريسيبشن بيتكلم عن احتمال يكون ابو خطوه هنا اليومين دول، وكل الناس هنا بتتمنى تقابله عشان تطلب منه اللى نفسها فيه

ـ بيعمل إيه هنا؟ ساكن معانا فى الأوتيل يعنى؟

ـ ياريت. اللى أعرفه إن واحد من أحفاده مات هنا فى غرفه من الغرف، ومن ساعتها وهو بيزور المكان من سنين كتير أوى، وكل مره بيكون له كرامه كبيره، السنه اللى فاتت زار واحده سودانيه عندها مرض وحش قوى وشفاها.

ـ يعنى روح أبو خطوة بترفرف هنا اليومين دول؟

انداحت من العم لمعى آهة اعتراض على أسلوبى الساخر، بل طردنى بالذوق لأنه بصدد النزول لعمله، وسمعته يقول وهو يغادرنى:

ـ ربنا يكرمك وتشوفه بس، واطلب منه اللى إنت عاوزه، هيعملهولك.

رجعت لغرفتى وهذا الموضوع يحتل جزءًا كبيرًا من تفكيرى، لكن التفكير المنطقى يرفض تلك الهراءات، ولكن أين هذا مما حدث لى فى شقة الهرم من أهوال؟! لابد إن فى الأمر شيئًا من الطبيعى، المشكلة أننى أقابل أبا خطوة وكأننى فى حلم، مسلوب الإرادة، لا أستطيع حتى النطق من هيبة



الحضور وقوة المنظر. إنه بالفعل مهيب لا تقدر على التواصل معه نهائيًّا.

ابتسمت داخل نفسى، وشاعت فى داخلى غبطة وسرور كبيران، لابد أننى من المختارين حتى يزورنى أبو خطوة ثلاث ليالٍ متتالية، بالرغم من فداحة المبلغ، إلا أننى شعرت بسعادة، وقد كنت لئيمًا حينما خبأت عن العم (لمعى) أننى حُزت فعلًا شرف الزيارة، وقفت فى غرفتى أتشمم الهواء، وأطلقت أمنيتى المتشعبة بكل طمع.

- كراماتك يابو خطوه، عاوز السمسار يجيبلى شقه حلوة على أد ظروفى، وعاوز كمان جهاز الكمبيوتر بانتيوم ثرى اللى نفسى فيه، وعاوز عربية ورصيد فى البنك تلاتين أربعين ألف كده. ماشى يابو خطوه؟ ها....

هل ستصدقون ما سأقوله حالا؟

لقد تحققت جميع الطلبات، وفى ظرف أقل من ثلاثة شهور كنت أملك كل ما طلبت بالضبط وزيادة.

لقد فزت فى سحب شركة (مايكرو سوفت) فى معرضها المُقام بفندق (رمسيس هيلتون)، فقد كنت أذهب هناك فقط لأتأمل ما وصلت إليه علوم الحواسيب، وكم الأبهار الذى تعرضه الشركة احتفالا منها بصدور أول كارت ذكى للصوت، وعلى مدار ثلاثة أيام، لم أمل من تأمل ومشاهدة الأجهزة بكل حسرة، وكل حلمى أن أمتلك واحدًا، وفى آخر يوم وزعوا بطاقات للسحب على أجهزة كمبيوتر كاملة، وكان نصيبى البطاقة رقم ١٣، وكما لن تتوقعوا، فازت البطاقة، وخرجت فى يد الساحب ليكون جهاز الكمبيوتر بشاشة عملاقة، وطابعة، وماسح ضوئى من نصيبى أنا. إن قلبى يكاد يطير مرفرفًا من الفرحة. عدت بها للفندق وخزنتها فى غرفتى وأنا



لا أصدق نفسى، ثم جاءنى اتصال من الأستاذ (نبيل) السمسار، ذلك الرجل الرائع ليقول لى جملة لن أنساها أبدًا:

-يا تامر يا ابنى .... أنا جبتلك يخت ... بسعر مركب.

رنت الكلمة فى أذنى كقرع الطبول، ونظرت لصناديق الحاسوب وأنا لا أصدق أن الأمنيات تتحقق تباعا، وهرعت أقابله ليرتقى بى لشقتى التى أهيم بها حبًّا والتى تدور كل تلك الأحداث وأنا ساكنها. أخيرًا أخيرًا، وبعد طول تنطّع على المقاهى وتسكع فى الشوارع ومقابلة عشرات الوسطاء وقعت عقد شقتى بمبلغ ٣٠٠جنيه فى الشهر وهو مبلغ زهيد مقابل أنها شقة بوسط البلد، وعلى شارع عمومى شهير. يا فرحة قلبى. وبدأت عملى كمصمم جرافيك مستقل بعد أقل من أسبوع، وبدأت أضع تصوراتى وأطبقها فى دنيا الطباعة، فقمت بطبع بوسترات عملاقة لكبار المطربين وطبعت مجسمًا لخريطة العالم ولعبة السلم والثعبان بشكل جديد، وتدفقت علىَّ الأرباح بما لا يقاس، وفى أقل من ثلاثة شهور كنت أمتلك حسابًا بنكيًّا به خمسة أرقام وسيارة يابانية موديل ٩٠، علاوة على شقتى الرائعة وحاسوبى الصاروخى. كراماتك يابو خطوة يا عسل!

.....

عروس الصعيد:

غرقت فى خواطرى وأنا أتذكر حكاية أبو خطوة الذى أخذ منى مائة جنيه وأعطانى بدلا منها مائة ألف، لم يدخل بخاطرى أن أنسب له ذلك الحظ المفاجئ والتغيير الرائع بعد يأس وتخبط، شىء ما فى داخلى لا يرغب فى



نسب الأشياء إلا لمالكها الأوحد، ومن يملك غير الله سبحانه وتعالى؟!هو من يعطى بلا حساب، وهو من يمنع بكل حكمة، ولكن موضوع (أبو خطوة) هذا جعلنى أقرأ كثيرًا فى الكتب الصوفية والتى كان يمدنى بها العم (لمعى) والذى بقيت علاقتى به حتى بعد أن غادرت الفندق مبتسما فى وجه الجميع، وبعد أن بدأت حياتى رسميًا فى شقة وسط البلد، هل أنا مدين لأبى خطوة؟ بحسبة بسيطة لو كان هو نفسه السبب فى هذا الحظ، فقد عادت لى نقودى مضروبة فى ألف ضعف.

ـ تحب تشرب حاجه يا أستاذ؟

كان هذا صوت السائق الذى أخرجنى عنوة من خواطرى والذى يقلنى إلى محافظة (المنيا) تحقيقًا لطلب والدة عمر الأريبة ذات السلطة والجاه، نظرت حولى حيث طريق الصعيد الزراعى، فلمحت لافتة تقول إننا فى مركز ببا، من مراكز محافظة بنى سويف، باقى مسافة طولية كبيرة، إن المنيا بالذات تتمتع بطول ورشاقة كبيرة على خريطة مصر، وافقت بصدق، فأنا أحتاج لحجرين من المعسل وفنجان من القهوة السوداء أستعيد بها تركيزى، مازلت لا أفهم الغرض من تلك الرحلة شبه الإجبارية، ولماذا لم يتصل عمر بنفسه؟! من الواضح أن الموضوع أكبر من اللازم حتى أسمع صوتها الآمر بأن أذهب إليهم على وجه السرعة، كما قلت لكم، فإن علاقتى بعمر قد فترت تمامًا، وأصبح التواصل بيننا شبه منعدم، ربما كان لوجود زائرتى دينا علاقة بالموضوع، لقد لمحت بأنها أخبرت عمر بأنها تريدنى أنا، ومع أننى لم أحظَ بزيارة ثانية منها طوال تلك الشهور، اعتبرت أن القطيعة مشمولة بالتعالى؛ نظرًا للفارق الاجتماعى الكبير بيننا، وإن كانت تنتابنى الحيرة تجاه اختفائه الغامض، لقد بخل علي حتى بمواجهة أو عراك، جلست



أحتسى القهوة فى استراحة على الطريق وأشد أنفاسًا من النارجيلة. إن طعم الدخان يختلف من بلد لآخر، ربما أن الجو نفسه أو الطبيعة. الحقيقة إننى لا أعرف كثيرًا عن محافظة بنى سويف التى أجلس فيها الآن، أعرف أنها بلد تعج بالموظفين وبعض التجار، لكن باستمرار كانت محافظة بنى سويف خافتة الإضاءة صامتة، وكأنها الأخت العانس الصموت لباقى شقيقاتها من المحافظات، على عكس محافظة المنيا والتى تشع استقلالًا ولها مذاق معروف، فلكيًّا المنيا هى برج الأسد الوهّاج، وأهلها لهم كبرياؤهم الخاص وفخرهم بأنفسهم، واصلت الطريق وأنا أجلس فى سيارة عمر نفسها، كان يملك سيارة «بورا فولكس» الأنيقة، شىء ما يقول لى إن عمر على غير ما يرام، شىء ما يقول لى إن عمر مقيد أو محبوس، لا أعرف تحديدًا، دخلت رسميًّا محافظة المنيا على الساعة الثالثة عصرًا وتوجهنا لحى راقٍ حيث تجثم عمارتهم الفاخرة، فوجدت رجلًا آخر عليه شيم السلطة، إنه نسيبه وزوج أخته الرائد (مختار) وعرفته تلقائيًّا من كلام عمر عنه، رحب الرجل بى واتخذ مقعد القيادة ويمم وجهه شطر الجنوب، إلى مركز (أبو قرقاص) مسقط رأس عائلتهم، حاولت الاستفسار منه عن أحوال عمر، ولكن سحنته المتقعة تقول إننى جئت فى وسط الفاجعة، تشاغلت بالطريق الأخضر الفاقع على جانبي السيارة، وغرقت مجددًا فى أفكاري.

.....

أخيرًا وصلنا لقصر ريفى هادئ على أطراف المركز، الساعة تقترب من الخامسة، لقد استغرق السفر خمس ساعات كاملة، ربما كان القطار أكثر سرعة وأمانًا، دخلت لصحن البيت الفسيح. إن التاريخ يُكتب فى مثل تلك الأماكن العريقة، صور وديكورات موغلة فى العراقة، ومكتبة ضخمة إلى



يمين الصاعد تزخر بالكنزر من المعرفة وأرائك مذهبة عريضة المنكبين تقول إن الباشا فلان وأن صاحبة العصمة فلانة قد أراحوا مؤخراتهم السمينة إلى هذه الأرائك والرياش النفيسة، كأننى فى موقع تصوير فيلم عن ثورة ١٩ مثلًا، نزلت الأم من على الدرج، ضئيلة هادئة الملامح صارمة التعابير تشبه المطربة نجاة الصغيرة، هانم بكل معنى الكلمة لو صح التعبير، من الواضح أنها تمارس دور السيدة على الجميع، استقبلتنى بفتور ملحوظ، ربما أيضًا يعلوها شيء من الشرود، كانت تنظر لى نظرة أم زميلك التى لا يعجبها هندامك ولا أصولك الشعبية، بالمقارنة بابنها النظيف اللامع، هل تعرفون تلك النظرة؟ لكنى تجاهلت هذا التعالى وبادرتها بالسؤال عما يخصنى أنا، ألا وهو صديقى عمر.

ـ هو فين عمر؟

نظرت لى بصمت ولم تجب، بل تدخل (مختار) حتى يرفع الحرج الواضح فى الموقف:

ـ حالا هتعرف كل حاجه يا أستاذ تامر، بس إتفضل ارتاح.

جلست متحفزًا لأى شيء تفعله السيدة ويكون ضدى، توجد شعرة عدوانية واتهام فى طريقة كلامها بشكل عام، لقد رحبت بى دون أن تنطق اسمى، دون أن تبتسم، دون أن تدعونى للجلوس، وكل هذا يُعتبر عدائية، ولكن صبرًا، أنا لا أهاب هؤلاء الناس بل أتعامل معهم معاملة رسمية تجبرهم على احترامى.

جاءت إلى الجلسة سيدة تشبهها ولكنها أصغر سناً وأقل وطأة منها، عرفتها على الفور إنها أخته الوحيدة وزوجة الضابط ابن عمها، رحبت



بى فى مرح صهر الجليد قليلا وقالت لى بعضًا من كلام صديقى عنى عندهم، وسألتنى عن الأبراج والفنجان وكل شىء يخص الروحانيات والتى تعشقها كل السيدات، ولكن لفتة واحدة منها لأمها الصامتة جعلتها تقضم الحديث قضما، يسود الصمت مرة أخرى، ثم تحدثت السيدة بصوت منغوم بالأرستقراطية:

- أنا عارفه إن عمر صاحبك وبيحبك، وكنت متاكده إنك هتلبى دعوتى وأشكرك إنك جيت لحد هنا.

أخيرًا تفتت قلب الصخر عن بعض البروتوكول المرحب، فاستغللت الفرصة لرد اعتبارى:

- الحقيقه أنا وعمر (كنا) أصدقاء مقربين لفتره.

- كنتم؟!

- أيوه كنا، لكن انقطعت الاتصالات من فتره.

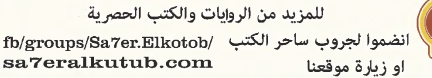
- زعلتوا سوا؟ فيه حاجه حصلت يعنى؟

التزمت الصمت، فلن أقول لها إن ابنها تسبب لى فى مشاكل جمة، أولها حادثة التحضير وما جرى فيها، كما تحرك لدىَّ وازع الاحتياط الذى يلازمني، لربما هذا المغفل ارتكب أشياء أسوأ مما أتوقع، فيكون وضعى الحالى هو أحسن وضع.

تنهدت الأم بحرارة، ثم نظرت لابنتها وزوجها فخرجا من المشهد بهدوء.

- أنا أم يا ابنى، وابنى عمر هو الولد الوحيد عندى، ومن صغره وهو متمرد على كل الأوضاع، أنا عارفة إننا ضغطنا عليه كتير، لكن كله عشان





مستقبله وإسم العيلة، عمر من ساعة ما رجع من القاهره آخر مره وهو مش طبيعى، رافض الشغل وقدم استقالته من غير ما نعرف، وأبوه كان هيروح فيها، وساب مراته وبنته وجه يعيش هنا، قلنا شويه ويهدى، لكن اللى حصل شىء ماكنتش أتوقعه

انتبهت، فأخيرًا سأعرف لغز الاختفاء العجيب.

ـ عمر أعلن كفره بالله وكمان بقى...

صمتت فجأة لتقضم أواخر الجملة، نظرت لها بتشجيع أن أكملى يا سيدتى من فضلك.

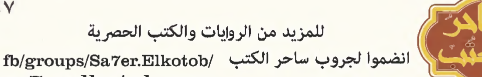
ـ بقى بيعبد الشيطان.

.....

استشعرت ثقل (عتيا) الجالس بحكم محكمة على كتفىَّ، هل يبحث عن بعض الاسترخاء والنزهة وسط آثار أجدادنا العظام؟ ربما المكان زاخر بالجن المعمور من أمثاله، بحسبة بسيطة قد يكون عمر عتيا، يتخطى السبعمائة عام أو أكثر، هل يمتلك عناد العجائز وشرهم؟ لا أنسى أبدًا أنه عراف وساحر من الجن، لابد أنه ماكرا خبيثا جدًّا سأحاول التواصل معه بطريقة جديدة تتيح لى الاستفادة من جثومه ووزنه على كتفى، أشعر أنه هو سبب كل آلام ظهرى الأخيرة، هل هذا شعور حقيقى، أم أن المسألة نفسية؟ لن أعرف أبدًا، نسيت ما أحمل على كتفى، وتجولت بكل شغف أشاهد مفردات معبد الكرنك والذى عرفته أنه «مول» من المعابد أو مجموعة متداخلة من المعابد اسمها كلها الكرنك، أعمدة بالغة الضخامة ونقوش وحياة جنائزية يعيشها كنهة الفراعنة، مرت ساعتان كاملتان وأنا لم أتفحص نصف المعبد



بعد، الوقت يمر ولابد أن الحاج والحاجة يبحثان عنى، اكتفيت منك يا معبد الكرنك، وفى العموم لست طالب آثار حتى أرى كل حجر فيك، أنا مجرد واحد كسول من أحفاد أحفاد أحفاد أحفادك، ويشرفنى زيارتى لكم أيها الراقدون داخل توابيت التحنيط، استشعرت (عتيا) بأنه لا يريد المغادرة، شيئًا ما يجعله متوترا وينقل توتره إلى شخصى عبر ضغط ساقيه النحليتين على صدرى، أبصرت بخيالى أن ثمة من يراقبنى بين الآثار لكننى لم أقدر أبدًا على تحديد معالمه، كل ما وصلنى هو أنه أصلع تماما تلمع صلعته عبر شمس ديسمبر الدافئة فى هذا الصباح، لم أعر للموضوع اهتمامًا وتظاهرت بأننى لم ألحظ بل انضممت لقوافل السائحين الأجانب الذين ينتشرون كالذباب بين أرجاء المكان الفسيح لكننى فى كل مرة ألمح ذات الظل الأصلع اللامع يرمقنى من بين الأطلال، قررت الخروج والعودة للفندق، وتصنعت العناد وأمسك مقود الدراجة جيدًا وانطلقت فى سرعة موزع الجرائد، (يارب تقع يا (عتيا) وتنكسر رقبتك ورجلك اللى لافِفها حوالين رقبتى)، عدت للفندق وشكرت رجل الاستقبال على دراجته، لقد رفض بكل كبرياء أن ياخذ منى ورقة بعشرة جنيهات نظير دراجته وتذكرة المعبد فابتسمت له ممتنًا شاكرًا، وجدت الحاج وزوجه يمارسان الفطور فى الشرفة المفتوحة على النيل للفندق، مائدة إفطار محترمة تليق بالحاجة، جلست دون استئذان، وأقبلت على الإفطار بنفس مفتوحة بعدما قابلت أجدادى العظام، من الواضح أنهما مسترخيان جدًّا وأنا أريد استئناف الجولة والذهاب (للبر الغربى)، لن أغادر الأقصر بدون رؤية وادى الملوك والملكات، ولابد من الصلاة فى مسجد سيدى (أبو الحجاج) المتشابك مع معبد فرعونى عتيق فى مشهد قلما تراه فى حياتك، نظرا لى بملل وكسل وقالا لى إنهما يفضلان الجلوس وانتظار موعد المركب السياحى، واصلت



الزنّ والإلحاح عليهما، لابد أن نذهب لابد وحتمًا... وفى الأخير وافقت الحاجة على مضض عندما أوهمتها بأننى سأصورها داخل المعابد وأن هناك أسواقًا عامرة بالتحف وغير الموجودة فى الأقصر نفسها. وبأنها ستتيه فخرًا بهذه الصور أما جاراتها المذهبات.

ـ خلاص يبقى نروووح يالا بينا يا محموووود.

نطقتها الحاجة بلهجتها المنوفية الريفية المدهونة بالزبد الطازج.

وبعد حوالى ساعة كان فى انتظارنا سيارة بيجو سبعة راكب لتقلنا بالمعدية للبر الغربى حيث مدافن ملوك وملكات الفراعنة العظام، أنا بلباسى الرياضى وحقيبة صغيرة مشدودة إلى وسطى، والحاجة بعباءتها المطرزة بعنف ومصاغها الخاطف للأبصار، والحاج بجلبابه الصوفى، يا ألله! ما كل هذا المجهود المضنى فى تقديس الموت وحفر الكهوف والسراديب ليواروا الملك أو الملكة أو الأمير الثرى بتلك الطريقة الأكثر من معقدة؟! الجفاف سمة عامة للجو بلا منازع، لقد كان الفراعنة يهتمون بالمناطق المتصحرة ليدفنوا فيها ممياواتهم وكنوزهم، كانوا لا يقولون إن الملك مات، ولكنهم كانوا أكثر تهذيبًا، فيقولون إن فلانًا رحل غربًا، حتى لا تأتيهم المياه الجوفية لتصيب بالعفن والذوبان كل ما تركوه من مجهود وكنوز وجثث محنطة، من الطبيعى أن يتولد شعبة متخصصة فى سرقة المقابر، أنتم تتكلمون عن مقابر هائلة مطعومة بالكنوز وتخص العائلات المالكة فى أقدم ممالك الأرض، أنا أحترم الحضارة الصينية كثيرًا، وكذلك الهندية، لكن الحضارة المصرية لها هيبتها وتعقيدها ونظامها الغالق لأى متنفس أو نقد، حضارة معمارية هائلة تمثلت فى التشييد والصروح والمقابر والقصور ودور العبادة والآلهة والعقائد المنظمة والفلك، كنت أتابع مبهور الأنفاس



مقابر وادى الملوك، وأتنقل من كهف لكهف لأتفقد كل شيء، أنا غير متخصص ولا أزعم أننى على دراية كاملة بالتاريخ الفرعونى، لكن من حقى أن أتلمس الروعة وأن أنبهر وأفتح فمى دهشة من كل هذا التركيز المضنى، لابد أن ملايين العبيد ماتوا تحت وطأة الحر والجفاف والهول الذى تتميز به المنطقة، انفصلت تلقائيًّا عن الحاج وحرمه، وأبصرتهما يجلسان على دكة خشبية بجوار كارافان بيع التذاكر وقد اغتمت ملامح الحاجة، لقد خدعتنى يا تامر، فلا أسواق ولا بضائع، فقط الصحراء والقبور الفرعونية السخيفة! لابد أنها تدعوا علىَّ فى تلك اللحظة وتقول (حسبى الله ونعم الوكيل) والتى تعتقد أن لها مفعول السحر على كل من توجه لهم تلك الجملة، ولكنى لم أتوقف، بل وتجمع حولى بعض السائحين، فتكلمت معهم عن إحساسى بالمكان الذى أراه لأول مرة مثلهم، بل واستعرضت بعضًا من معلوماتى الروحية عن الفراعنة واعتقادهم فى الخلود والبعث بنفس الجسد المحنط، لا تتسنى لنا نحن المصريون تلك الظروف بسهولة، لذلك حاولت اعتصار الوقت لأرى وأزور كل مكان، وقد كان. انتهيت من جولتى على الساعة الثالثة والنصف وقد تلون الوجود بالبنفسجى الساحر، ورجعت من وادى الملكات، وهو مكان بعيد عن وادى الملوك بمسيرة نصف ساعة، لأجدن الحاج والحاجة قد يئسا وغادرا إلى الفندق، فعدت مع جموع السائحين ورجعت أنا الآخر استعدادًا لرحلتى النيلية لاستقبال عام ٢٠٠٤ الوليد...

هابى نيو يير ٢٠٠٤

لم تكن الرحلة ممتعة كما كانت الجولة نفسها، ربما لأنك محاط تمامًا بالخدمات السياحية الصارمة، كنت أقف على حرف سور المركب الذى يقلنا مبحرًا جنوبًا إلى أسوان، لقد تناولت أربع كاسات من الويسكى بعيدًا عن أعين الحاج وزوجته التى لن ترحمنى، ووقفت لصق السور فى أبعد نقطة عن المحتفلين، الآن أريد أن أستقبل العام الجديد وحدى، الويسكى الحارق يتلاعب فى معدتى بتمرد، رأسى تدور، ولكن الذى أفسد حالة السُكر هو الغثيان الذى أشعر به، يا إلهى! إننى أعانى من أعراض دوار البحر. حاولت أن أتزن قدر استطاعتى وألا يظهر على ملامحى معاناتى، ولكن الأمر يزداد سوءًا، أخرجت الموبايل وراقبت الساعة كنوع من الإلهاء، الساعة الحادية عشرة وثمانٍ وخمسون، بقى أقل من دقيقتين، لماذا نصر على الاحتفال برأس السنة وبكل هذا التفاؤل؟هل مثلًا سينقلب الوضع من حال إلى حال آخر بمجرد اقتراب عقارب الساعات من الثانية عشرة، هل ستنقلب الموازين فجأة بحلول العام؟ إنها لألعاب عقلية ونفسية يمارسها الإنسان ليجد مبررًا للاحتفال، أنا شخصيًّا لا أحتفل بشىء إلا وأنا راضٍ تمامًا وأريد أن أحتفل، لا أستقبل المناسبات والأعياد بالجدية التى أراها على الكثيرين من حولى، هل فعلًا سينقلب الحظ لشىء رائع بمجرد مرور انقضاء سنة وحلول سنة؟ لحظة.. أريد أن أعطيكم معلومة عرفتها لغويًّا (السنة تُطلق على عام الأحزان أو الأحداث السيئة، ولكن العام هو الذى يطلق على عام الإيجابية، فكل سنة وأنت طيب تدل على عزاء حار لأحزانك، وبأنه يشد على يديك، لكن كل عام وأنت بخير تدل على المباركة فى أعمالك التى كانت جيدة فى العام وسيستمر فى العام المقبل،



إذن قُل كل عام ولا تقل كل سنة). إن تجربتى مع ليلة رأس السنة فى عام ٢٠٠٢ أورثتنى عقدة، وقفت أراقب اللحظة التى يتحول فيها التاريخ إلى رقم جديد وأتحرى أى انقلاب فى حياتى سيحدث، هل أفعل كما الأفلام الأجنبية وأطلق أمنية عزيزة مثلًا؟ هل أصرخ بصوت عالٍ لعل الأفلاك تستجيب بعطايا أسطورية؟ ياربى! إننى أترنح فعلا، إن تحديقى فى شاشة الموبايل يجعلنى أشعر بالدوار أكثر، بل أشعر بعدم اتزان حقيقية، أشعر كأننى أحلق عاليًا أو أعوم لا أعرف! ومع حلول ٢٠٠٤ حسب ساعة الهاتف المحمول وجدت نفسى أتمايل لأفرغ مخزون معدتى من الطعام والكحول، خرج نصفى الأعلى لخارج السور وأنحنيت رغمًا عنى، أتانى القيء سريعًا، أسمع الناس فى الداخل يطلقون (هيييييه) كبيرة وتنطفئ الأنوار عن المركب كلها، الحمد لله انتهيت من قيئى والتقطت أنفاسى، وقبل أن أعتدل تمايلت المركب العملاقة إثر موجة من مركب زميلة لها فى الاتجاه المقابل، ثم.... هويت عن السور مندفعًا بفعل الجاذبية إلى أعماق نهر النيل بلا أى مبالغة.....

.....

ـ حضرتك بتقولى إنه أعلن كفره بالله وبيعبد الشيطان؟

ـ أيوه للأسف، وأصبح سلوكه غريب جدًّا، لدرجة إننا اضطرينا نحبسه للعزبه عشان محدش يشوف المهازل اللى بيعملها، عمر اتجنن خلاص يا ابنى.

ثم دمعت عيناها برقي وغطرسة، فمسحت عينيها بمندين مثلث واستعادت صلابتها الدائمة.

ـ ...... ممكن أشوفه؟

اقتادنى نسيبه الضابط إلى أعلى البيت أو القصر الريفى، على سطح المنزل الكبير ثمة شقة صغيرة ترى حقول الذرة، وأعوادها وشواشيها على مرمى البصر، لاحظت أن بيتهم يوجد بين المزارع ولا بيوت قريبة منه، معنى هذا أن كل المساحات المحيطة بهم تخصهم هم، ياللك من أحمق ثرى يا صديقى المعذب! كنت أعرف جوانب كثيرة من شخصيته باعتبارنا كنا متقاربين لفترة ما.

ـ عمر ياريت تخف من حكاية النسوان دى شويه وكفايه عليك صديقه واحده.

ـ .....

ـ عمر وأنا طالعلك النهارده سمعت الجيران بيتكلموا عليك بطريقة مش كويسة

ـ .....

ـ عمر بلاش حكاية الأعمال السفليه اللى إنت طالع فيها اليومين دول دى آخرتها منيله بنيله.

ـ ....

هكذا كان عمر يرد على كلامى معه فى أى توجه أو نصيحة، كان يلتزم صمتًا مريبًا وتلوح فى وجهه ابتسامة ساخرة ربما أو مستهنية، لا أعرف تحديدًا، ولكن الذى أعرفه تمامًا أن الطريق اقترب من مفرقه، وأن كلا منا سيذهب فى اتجاه.

اقتربت من باب الشقة التى تحتل المساحة الخلفية لسطوح قصرهم





الريفى العتيد، وجدت رجلين يلبسان الجلباب الصعيدى الفضفاض، كانا باديى الشراسة والقوة، من الواضح أن الأم عينت حراسة على ابنها الوحيد لتمنعه من... من ماذا؟، أسرع أحدهما وعالج الرتاج للباب الحديدى المفضى للداخل، ثمة رائحة خافتة هبت على خياشيمي، انها كريهة خافتة مثيرة للدوار، تذكرك ب.... لا أعرف تحديدًا، شيء ما يتميع بصدرى، ثمة مجرور مفتوح على تلك الشقة ليقلب رائحتها بتلك الطريقة، تلقائيًا وجدتنى أرفع كفى لأسد به فتحات تنفسي، أشار (مختار) لى أن ادخل يمينًا حيث الغرف، ثلاث غرف متباعدة، وحمام يقع إلى يسار الداخل، من الواضح أن الشقة غير مستعملة من الأساس، الأتربة المتناثرة والإهمال تراه بوضوح، إلى أن وقفنا أمام باب غرفة بعينها، شعرت أنها مدفنه الخاص... هنا يرقد عمر، ولكن ليس بسلام أبدًا، الرائحة تزداد قوة وتركيزا ومختلطة بالمطهرات لتصنع مزيجًا تعف النفس عن استنشاقه، كما لاحظت بعض أعواد البخور غليظة الساق تنفث باستمرار رائحة أخرى تزيد من الأمر سوءًا، كأن أهل البيت يتبرزون ويتبولون هاهنا فى أرجاء الشقة ومن ثم يرشه الخدم بالمطهرات، أخرج مختار مفتاحًا آخر وعالج رتاج الباب ودفعه بهدوء للداخل وسبقنى، لم تستجب قدماى للدخول وراءه مباشرة، أعرف أن ما أنا مقبل عليه لن تتحمله أعصابى أبدًا، خصوصًا أنه صديقي، نحن نجزع حين يصاب أصدقاؤنا بسوء، ليس محبة فيهم فقط، ولكن لأن الصديق مرآة روحك وأنت ترى نفسك من خلاله، خصوصًا لو كان فى مثل عمرك، عندما تراه بسوء تحزن وتتوتر، ليس لأنك تحبه فقط، بل شفقة على نفسك التى تشبهه وروحك التى صُكت من نفس معدنه، ومن الجائز أن تتعرض لما يتعرض هو له، بكل سهولة، شيئا ما يجعلني على وشك البكاء.

ـ أستاذ تامر.... إتفضل.

نادانى الرجل ليحثنى على الولوج لنفق أعلم تمامًا أنه مظلم كئيب، دخلت للغرفة، رمادية كانت تنبعث أشعة شمس الغروب من خلال خصاصها المغلقة لتصنع خيوطًا من تجهم وترسم لوحة من فناء موشك على الحضور، كانت الغرفة خالية تماما مفروشة بسجاد يظهر عليه بقع ما واسعة عالية السقف كما نرى فى مبانينا القديمة، أما الرائحة فكانت فى عنفوانها وقد اختلطت برائحة المطهرات القوية التى تثير الغثيان، ثمة فراش موضوع بجانب الحائط، وعليه تتكوم جثة متحوصلة على نفسها بوضعية الجنين، ثمة غطاء خفيف يغلف الجسد المسجى. يا إلهى !إنه لبادى النحول. هل هذا جسد عمر! لشد ما تغيرت يا صديقى! ماذا فعلت بنفسك؟! لم أجرؤ على الاقتراب وكأنها جثة مقتول اكتشفها المارة تحت الجسر، فحثّنى الرجل على الاقتراب، ثم هز الجسد النائم.

ـ عمر... يا عمر... تامر هنا يا عمر.

انتفض الجسد أسفل الملاءة وأزاح عمر الغطاء عن وجهه بنفسه.

لاااااااا، سامحك الله يا عمر، إن رؤيتك بهذا الشكل لكفيلة بقتلى بالذبحة القلبية.

.....

هويت برأسى لأسقط كزلطة منبعجة إلى الماء، الحقيقة أننى لا أجيد العوم بالشكل الذى قد ينقذ حياتى، فأنا لا أتقن العوم، ولكنى أعرف أساسيات الطفو، خبطنى الذعر العاتى فى نفس توقيت صدمة الماء، أولا لأننى شعرت أننى غصت أكثر من اللازم، ثانيًا لأن طيات الماء تحمل برودة عارمة لم أتصورها، ثالثًا وهو الأهم، أشعر أن الماء ثقيل جدًّا، لابد



أن كثافته ضعف الماء العادى، الناس فى الأفلام الأجنبية يلقون بأنفسهم من ارتفاعات شاهقة ويختفون فجأة ثم يظهرون وهم يلوحون للكاميرا بسعادة فهل أنا مثلهم أم أن المنطق يلعب دورًا آخرًا ها هنا، لابد أن هذا ما سيحدث معى، ولكن ما بال الماء هنا كالطين! ثقيل صامت يكاد يتمثل فى طيات كثيفة، شعرت أننى وقعت فى طبق عملاق من المرقة المثلجة، جيللى يحيط بى إحاطة الغشاء بالجنين فى بطن أمه، أيقنت أننى سأموت حتمًا، الغريب أن أفكارى ظلت منتظمة، فقط الشعور بالخوف الشديد هو من يطل بين أفكارى مزعجًا طافحًا بالبرودة العاتية، وكأنى شخصان، واحد ينذعر بقسوة، وواحد يستكشف الخطر، حاولت الارتفاع، ولكن المشكلة أننى لا أرى السطح، لا أضواء ولا ضوضاء، تذكرت أن المركب أطفأت أضواءها ومحركها احتفالا. أنا فى عمق مظلم رطب كثيف...

ثم اشتعلت أضواء المركب، وسمعت عبر الماء هدير المحرك الضخم، رفعت رأسى لأجد هكيل السفينة يمخر عباب الماء ويتحرك بعيدًا عني، انتفضت وحركت ذراعى وساقى لأطفو، ولكن حركتى زادت من تكاثف الضغط، ووجدتنى أنزل أهبط أسقط... إلى القاع.

الماء ثقيل ثقيل، وذراعاي لا يقويان على البطش بالماء أكثر من هذا.

عزيمتى تخور ورئتاي تبكيان من الضغط المفاجيء، الماء عكر لدرجة لا تصدق، أو وعيى يتسرب كالرمل من ثقب الجوال، يالها من ميته شاعرية تنتظر، ثم شعرت بأن ضيق التنفس صار كهلام بلا ملامح، فلا أنا أتنفس ولا أنا أختنق، شعورا آخرا للغيبوبة أقرب، ولكنها غيبوبة واعية تستشعر لزوجة الموائع وكبسها لحياتك، تمدد عجيب فى الزمن وكأن الثوانى صارت دقائق بطيئة، عيناي مفتوحة على اتساع الهلوسة ترمق العكارة والعوالق



الزاخرة للنهر العجوز، أمن تلك العكارة نشرب ونغسل همومنا، أفوق تلك العكارة تنعكس خضرة النيل الجاذبة للرومانسية والسمر؟ أيكون هكذا قبيحًا من داخله كما نحن، ثمة شعور ضاغ بأن النهر حي نعم كائن حي يموج ببقايا الطعام كما أمعائنا الغليظة، شعرت بدوائر متوارية تنتظم حولي، أدركت أن الماء يدور فى دوامة مركزها أنا، لابد أننى فى بلعومه الآن، وأنه يزدردني لجوفه لينعم بهضم حتمي للحمي، أنا أنجذب للقاع بفعل الشفط أو الجذب المركزى لحيث لا أدري!

الدقائق الأولى من السنة تعلن عن نهاية درامية لشاب أعتقد أنه يملك الحياة، هل سيخلدون تلك اللحظة ويضعون صورتى على شجرة الكريسماس العام القادم؟ هل سيجدون بقايا عظامى بعدما تلفظني أمعاء النهر؟ أم ستأكلنى الأسماك أو يفترس جسدى تمساح النيل؟ إننا على مقربة من بحيرة ناصر، ويجوز فرار بعض التماسيح إلى هنا، كل تلك الأفكار دارت مع الدوامة التى تشفطنى لأسفل بلا هوادة.

عملية الشفط مستمرة للقاع وجسدى يتحرك مع الدوامة العمودية المعكرة بالطين المفككة أوصاله إلى عوالق، أجواء خضراء مزرقة تلوح عن ضوء لم أتبين مصدره، ولكننى أرى الموجودات فعلا. أيكون النيل بتلك القذارة فعلًا؟! ثمة قطع من اللحم تعوم، وجثث أسماك مقضومة من أكثر من موضع، الماء عكر وغبر كأنك تشهد العالم من ماسورة عادم سيارة.

بعينى الموشكة على الانفجار أبصر انقشاعًا للعكارة، وأستشعر دفئًا غير خافٍ، أين تردد أنفاسي من هذا كله؟ أذهبت وحل محلها خياشيم السمك، أم أننى ميت ولا أدري؟ وفى هبوطى الإجبارى ألمح دائرة.

نعم هى دائرة، لابد أنها دائرة.



دائرة من الرؤوس، بل هى دائرة من أجساد لها رؤوس، رؤوس صلعاء تلمع فى العكارة، أين ذهب الاختناق؟ لم أعد أشعر بالانضغاط الجدير بهذا العمق، بل انتبهت حواسى كلها متجمدة على هذا الكادر غير المتوقع.

كانوا يقفون على القاع وظهرهم لمركز الدائرة، دائرة واسعة متمركز فى مركزها ما يشبه العرش، مقعدًا مزدان بالأصفاد، والسلاسل، ثمة كيان يجلس مغلولا بتلك الأصفاد، يعتمر تاجًا فرعونيًا ذكرنى بتاج مينا موحد القطرين، أما الكيان فكان بشعا بشعا لزجا، من الجلي أن الأصفاد تقيد عظامه فقط أما لحمه فكان شبه ذائبا يتموج مع تيار الماء، كانوا ينظرون إلى حيث كنت معلقا قريبا من رؤوسهم، بدوا لى وكأنهم حراس يتولون منع هذا الكائن الخرافة من الانفلات، نظر لى الكائن فوجدت وجها بلا عيون ولا أنف فقط صفوف من الأسنان والأنياب الخبيثة، شعرت أن روحى قلقة تريد الفرار من جسدى لمجرد رؤيته، يا ربى ما هذا الذى أرى، إننى أقترب أقترب أقترب، رأس الكيان تنظر للأعلى وتستعد بفتح فمها المشقوق طوليا ويخرج لسانها متشعبا كأفاع تريد النهش والتسميم، تريد الالتفاف حول قدماي التى اقتربت كثيرا من مجالها، أما الحراس فبدوا وكأنهم زواحف لها أجسادا آدمية. أكاد أميز سريان الدم فى عروقهم تحت جلودهم المبرقشة.

اقترب قدماى من مجال رأس الكيان، إنه أكبر مما أتصور، ألمح بين أسنانه بقايا من رؤوس آدمية، إن هياجه الآن فى مرحلة الفوران، لابد أنه يتحفز لقضمى ريثما أصل إليه، ثم التفتت تلك المخلوقات مستديرة بجذعها لتنظر إلى مركز الدائرة الذى يستوى فيه ذلك العرش ومدوا أيديهم ليثبتوا الكرسى جيدا كى لا ينخلع من حماس وهياج الكائن،لا لا لا،



لم يكونوا وحدهم من يستعمر القاع بل كان هناك شعب من أقزام يروحون ويجيئون على أرضية القاع الزلقة، يا إلهى أكل هذا فى قاع النيل ونحن لا ندرى، هل هذا هو الحاكم، أو أنه شيطان رجيم، مكبل ينتظر الطفو حيث السطح؛ وحيث نحن لم يحملوا ضراوة الوحوش وتعطشهم للافتراس.

بل حملوا انقباضًا وتجهمًا كما هى الأشباح، كما هى الشياطين، قاسية لا ترحم ولا تمهد، خصوصًا وأنا الذى اقتحمت عليهم دنياهم المائعة.

كان الحراس،عددهم ثمانية على الأرجح يستمسكون بالعرش كيلا ويؤكدون على الأصفاد والسلاسل التى تربط ذلك الشيطان إلى المقعد الراسخ، لم يستوعب عقلى الحسابات الأرضية، بل شعرت بأن قنواتى الروحية هى من تتعامل، لكن اقترابي أكثر وأكثر أثار ذعرى وذكرنى بأننى هالك لا محالة.

عاااااااااا صرخت.. نعم صرخت بقوة وتركيز، فخرجت فقاعة كبيرة من حنجرتى تتسارع هاربة لأعلى. «يا بختها»!

مازالت الدوامة العمودية فوقى تدور لاقترب من هذا الجشع المجسم بالأسنان، ثم أبصرته يدور نازلًا. إنه (عتيا) يحوم حول الدوامة متخبطًا وكأنه يبحث عني، مرت الفقاعة بجانبه ولمست أذنه، فتوجه فورًا إلى مصدرها وحلق بعيدًا فوق رأسى، الدائرة تنغلق وتنغلق، رفست الماء فى محاولة أخيرة يائسة وقفزت بنفسى لأعلى، فارتفعت قليلا قليلا، كنت على قاب قوسين أو أدنى من الهلاك المؤكد، أبصرت قدم عتيا تقترب بحرص، أمسكت بكاحل عتيا المدبب.

تنظر له المخلوقات بكمد وغيظ، ويفغرون أفواههم هم أيضا عن أسنان

غير منتظمة مدببة حقيرة شاهدت ثلاث أذرع من الشيطان تقتنص ثلثاة من الحراس وتلقيها بدلا مني فى مجال الفم البشع، سمعت عبر الماء صرخات الموت تنبعث من حلوقهم المغرغرة، لحسن حظ عتيا أنه لا يرى وإلا لمات ذعرًا، رباه! ما هذه المخلوقات شديدة القسوة، ولماذا هم موجودون بقاع النيل؟! إن لهم بعدًا روحيًّا عجيبًا، يدمر أى مقاومة نهائيًّا، وصلت للسطح شاهقًا بعنف مركز، هاااااااااااااااا.

اختفى عتيا، شكرًا لك يا عزيزى الطاعن فى السن، لقد أنقذت حياتى فعليًّا، البلل يحول ملابسى إلى جيللى مثلج والرجفة لا تتوقف، إننى أبكى بلا شك، عمت للشاطئ الصامت المحفوف بالأشجار والطين، لقد فقدت هاتفى وبعض متعلقاتى فى الماء، حاولت الركض متوازيًا مع المركب، ولكنه ابتعد كثيرًا، سينتبهون لغيابى خلال ساعات، لكن ماهذا الذى رأيته؟ أنا أعرف أن الإنسان الموشك على الموت تعمل خلاياه وغدده على إفراز هرمون الأندروفين، بحيث تهون عليه الصدمة وسكرات الموت، وأنا فعليًّا كنت أموت غرقًا، وبدلا من رؤيتى للضوء فى آخر النفق أو أن أذهب إليه طائرًا، صدمت بشياطين تنتظر فى قاع النهر، ثم كيف لنا أن نتصور أن هذا النهر السعيد يحتوى على تلك الكائنات المذهلة! سرح خيالى المرتجف وأنا أتصور هجوم جحافل من هذه الكائنات وخروجها من كورنيش النيل فى القاهرة لتهاجم المارة ومرتادى الكورنيش الرومانسيين الحالمين، مشيت مرتعدا إن البلل يقتل جلدى بالبرودة، ولكن حركتى تبعث فىَّ قليلًا من الدفء، من الواضح أننى فقدت الاتجاه الغريزى، لقد تهت فى غياهب الحقول الموازية لشاطئ النيل، أين أنا؟! ظلام ووحدة وشعور طاغٍ بالبرد والضياع. شكرًا يا رأس السنة شكرًا.

....



لم تعد بهيجة من هناك حرفيًّا، بل عادت كشبح يستعد لحياه الخرائب، اهتزت نفسيتها أكثر وباتت على وشك الفناء، أحلت رشدى من ارتباطه بها فرجاها أن يبقى، ماذا حدث لعقله ذلك المأفون أنه يتمسك بها بكل ما أوتي من قوة، لم تجد بدا من إبقائه، هل أدمن سحرها؟ أو أن شيئًا عميقًا تغير فى ذاته، بات لصيقًا بها يعتنى بها أيما اعتناء، ربما كنتِ على حق يا بهيجة فى التقاطه، فهو الآن جدار عازل يحميك، حتى من نفسك المشوهة، أصيبت بهيجة بجلطة دماغية فى إحدى نوبات صرعها، ارتمت على الأرض مقوسة الجسد ملتوية الشفاه، ولكن رشدى لم يتركها، بل عادها وعاش معها كممرض بلا أجر، وفى زيارة لهما فى شقة بهيجة، لاحظت أن رشدى، ذلك الجوكولوه الذائع الصيت ومربى الأجيال، تغيرت ملامحه نفسها، فبعد النظرة القارحة الوقحة أو الغاوية التى كانت تطل من عينيه، بدت نظرته متوازنة، حزينة، مملوءة بالدموع والاهتزاز، لعله سحر العشرة القصيرة المطعومة بالتعاويذ القديمة، بلا شك أنها حررته من طلاسمها، وبعد الأناقة الفجة والعطر الباذخ بدا رجلًا خمسينيًّا وقورًا نظيفًا يثير الإعجاب المنطقى، فى الحقيقة أننى فى بادئ الأمر توجست شرًّا منه، وتصورته يمثل المسرحية لآخرها، وخصوصًا أن بهيجة على وشك الفناء، ولكنى لاحظت إخلاصًا شديدًا وتعاملًا عفيفًا رفيقًا بحالتها فعلا، كان يقوم لها بكل شىء تفعله المربية، والخادمة، والممرضة، شددت على يد بهيجة وهى طريحة الفراش لا تتكلم، ابتسمت حين رأتنى ورحبت بملامحها الجديدة، لقد تغيرت هي الأخرى أو بالأحرى تبدل حالها وانقلب لسابق عهدها، جلب لى رشدى كوبًا من الليمون المثلج، وأمضيت الوقت أثرثر معه وأضاحكه، فى حين لم تفارق الابتسامة وجهها طوال الزيارة، إلى أن نامت فجأة وعلا شخيرها تاركة لنا المجال لنتحدث سويًّا رجلًا لرجل، قادنى للشرفة الواسعة فى



شقته. كانت شقة بهيجة تفوق شقتى حجمًا بمقدار أربعة أضعاف على أقل تقدير، رياشها عتيقة مدملجة، يظهر ثراؤها الغابر فى الرياش الجديرة بشقة عريقة بوسط البلد، نظرت لرشدى نظرة قديمة وغمزت له بعينى أن (الله يسهلك يا عم)....

.....

- بهيجة بتزورها الأرواح كل يوم، وطول الوقت تقول أنا جيالكم، أنا رايحالكم. أنا بموت من الرعب كل يوم يا تامر، أنا بقيت مش طبيعى أنا كمان، حاسس إن أجلى قرب أنا كمان.

- ياشيخ متقولش كده، ده إنت لسه مُزّ، الموضوع كله إن مرض بهيجة مأثر عليك حبتين.

- يمكن يا تامر يمكن. بس فيه حاجة جوايا راحت أو انكسرت، أنا حاسس أنى كبرت أوى.

قالها ونظر للشارع العامر بالبشر والسيارت والمحال التجارية العريقة.

لم تكذِّب بهيجة خبرًا، فقد وجدها رشدى شاخصة البصر، على فمها ابتسامة. لقد فارقت العالم بعدما كفَّرت عن ذنوبها التى لم تقترفها حتى، لقد دفع جنونها حق ذنوبها الواهية وانتقلت إلى حيث كانت تريد الى جوار ابنتها، أما رشدى، فقد ورث عنها بعضًا من المال والشقة الواسعة، وبقى هناك إلى وقتنا هذا، تزوج عانسا فى منتصف الثلاثينات كانت تعمل نادلة فى بار الاسترلينى بشارع فؤاد، وتحولت لمثال الزوجة المحبة المخلصة له، بل وجاء منها بولدين فى منتهى الشقاوة والعفرتة، يلعبان دومًا على سلم العمارة وأراه يذهب بهما إلى صلاة الجمعة، يبدو كجد لهما، كلما رآنى كان



يرمى لى بتحية حارة ويشير للولدين قائلًا:

ـ ربنا أنعم عليا بولدين يا تامر عاوز ألحق أدربهم صح.

ضحكت من قلبى وأنا أرمقهما بإعجاب، وأرد له الدعابة الأصيلة قائلًا:

ـ ربنا يكرمك وتكمل رسالتك فى الحياه.

.....

أواخر ديسمبر عام.. الإسكندرية ١٩٩٩

نورهان وش الحمار

الطريق الصحراوى ملبد بالغيوم الكثيفة، ثمة عاصفة قادمة من الشمال، حبات المطر تدق بعنف زجاج سيارتى «الميتسوبيشى» بينما أنا مسافر للإسكندرية، قررت فجأة أن أتمرد على تراكم العمل عندى وأن أقضى رأس السنة فى الإسكندرية، لن أقول إننى أعشق الإسكندرية ولا شتاء الإسكندرية، ولا كل هذه القوالب الملتصقة دومًا بتلك المدينة، ولكن هى تمثل لى معنى آخر تمامًا، هى جنة الهاربين بلا منازع، هى من تفرك نفسيتك بالماء والملح لتعود جديدًا بشمع المصنع، هى من تضع لك حبة الدواء فى كأس النبيذ وتصلى لك من أجل الشفاء، هى من ترتدى عباءة الوقار ومن تحتها بدلة الرقص البراقة العارية، هى من تغمز لك بعينها ثم تنهال بشبشبها على يافوخك لأنك تجرأت ولمست ردفيها الملبدين بالغيوم، لى معها حكايات وأيام وليالٍ، لها عندى هيبة ومعزة متبادلة واحترام عميق، لتلك الغانية التائبة والراهبة الخليعة، وأنا هناك أشعر باليُتم الحقيقي، فالجو

المنذر ببكاء السماء الشتوية، والشوارع المغسولة لتوها من ذنوبها تجعلنى يتيمًا مشردًا أبحث عن بعض الدفء الهرمونى وأبحث عن بعض الحنان فى صدر واحدة من إياهم، لا تكرهونى، فأنا فى الإسكندرية يتيم بلا عائلة ولا نسب، أحب اللكنة السكندرية وأتكلمها بطلاقة، أعرف ثنايا وتفاصيل عُلبها السرية ومخابئ الحب والكيف فيها، لا أمل أبدًا من النظر لمبانيها ذات الدم البارد، وأتخيلها زواحف عملاقة تحجرت لتصنع بيوتًا للبشر، المبانى هناك نظيفة مملحة، محفوظة كعجوز متصابٍ يحافظ على بقايا جماله بالتوبة والتحسر على الذى كان، نُسبت للإسكندر الكبير، ذلك القائد المثلىّ مرهف الحس، والذى دحر نصف العالم ولم يبلغ الثلاثين بعد فقط، ليثبت لأمه أنه رجل يصنع ما يعجز عنه كل الفحول الطبيعيين، لذلك تأخذ الإسكندرية شكله دومًا، شباب دائم وخنوثة حازمة، جهاز الكاسيت يشدو بحسن الأسمر، أحب هذا المطرب وأجده زميلًا شهمًا محبوسًا معى فى نفس الزنزانة، يسيلنى بمواويله ويبكى معى على أحزانى التى لا أعرف من أين تأتينى وأنا أسمعه:

كتاب حياتى يا عين... ما شفت زيه كتاب

الفرح فيه سطرين... والباقى كله عذاااااب

عذاااااب... عذاااااب... عذاااااااااااااب

ومع ذلك الجو المكفهر المطير ورنة صوته الملتاع، وجدت نفسى أبكى وأنا أغنى معه، وأخذتنى الجلالة وشعرت أننى أصور فيديو وأننى المطرب نفسه، لشد ما تكون الأمور هكذا مع بعضنا، وإنها لمتعة غيبية لا أعرف مصدرها، يقال إن التمثيل يشفى الجنون، ويجعل المجنون يتعامل بتمثيل عاقل مع الحياة، ربما كان تمثيل الأغانى له نفس التأثير، لم أكن أعانى من



أى منغصات، بل على العكس، حياتى مكتظة بالعمل والمشاريع والمكسب، ولا يؤرقنى إلا أن تُسلب منى تلك الراحة والرضا عن النفس.

كشف الحكيم أصبح عاده... ومن عياده لعياده

وكل واحد اروحله يقول... قطعت قلبى بزياده بزياده

وصلت للمدينة بعد حوالى أربع ساعات من مقاومة الغيوم والمطر والبرق الذى كنت أراه يضرب تعساء الحظ فى ضلوعهم ليصرعهم ويجعل جثثهم تتفحم، بينما أنا آمن فى سيارتى متوجه لحيث أكبر مخزون من المزاج والمصارحة الحقيقية للنفس الآمارة بالسوء، لأكبر مخزون للسمر والانشراح فى الإسكندرية عروس البحر المتوسط غير العذراء.

وصلت على الساعة التاسعة، وعرَّجت على بورصة مصر فى محطة الرمل لأشد أنفاسًا من المعسل مع فنجان من القهوة على سبيل الترحيب بنفسى وسط كل هذا الاكفهرار، رواد المقهى قليلون جدًا بسبب هذا الجو العاصف، ركنت سيارتى بأمان لصق موقف حافلات (السوبر جيت) بجانب فندق سيسيل (لا تنسوأننا فى العام ٩٩). ذهبت لفندق «الأكروبول» مباشرة ودخلت العمارة الفخيمة، ولكننى وجدت المصعد معطلا، الفندق يقع فى الدور الثامن، لا لا، أنا أريد مكانًا أخرج وأدخل فيه بسهولة، ذهبت لفندق آخر، ولكنى لم أرتح للغرفة وجدتها عطنة الرائحة وكانها متودعا للغسيل الوسخ، كما أن نظرات المدير لم ترق لى، إننى سأقيم عدة أيام وأريد شيئًا على مزاجى أنا. لم تكن ميزانيتى التى وضعتها لنفسى لتسمح بفنادق فخيمة أو من الدرجة الأولى، كذلك أنا أفضل البساطة وجو البانسيونات على الفنادق الكبيرة. وقفت على الكورنيش أتبادل التحية مع البحر بكل شوق وحب، الموج عالٍ، والنوة البحرية تزأر، لكنى لم أعبأ، يكفينى أن



أجرى من ضرباته بينما قلبى يضحك بل يقهقه من عجزه عن اصطيادى. تخيلت أن البحر كائن أسطورى مسلسلا بالحديد، بينما أنا أقف قاب قوسين أو أدنى من مخالبه المسمومة. إنها متعة الاقتراب من الخطر والتى توازى فى لذتها أعتى المتع وأقواها، الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا، البرد يأخذ منحنى ضيقًا ليبرز متاعبه فى أنفى الذى بدأ يسيل منه المخاط. من الواضح أننى فى طريقى لنوبة برد لا أحتاجها أبدًا، سأعود لسيارتى وأتوجه لشارع خالد بن الوليد والذى يعج بشقق المصطافين، اووف لا أحب الشقق فهى إما مسكونة بالعفاريت أو مُصدرة للشعور بالوحدة والقلق، أنا أريد أنفاسا وناسا وتفاعلا، كما أننى أريد بعض الحشيش السكندرى الفخيم الرخيص، أجريت اتصالا طارئا بصديقتى (نورهان) والتى تؤمن لى ما أشتهيه من أصابع مدملجة ومقطوعة من ذلك الكيان بني اللون عظيم البهجة، انتظرتها بسيارتى فى منعطف ظليل بعيد عن الأمتار فى إحدى شوارع محطة الرمل الجانبية، إلى أن أقبلت علي بوجهها الهائل وجسدها الجدير بشاويش النقطة فهي صديقتى العتيدة ومصدر الأنس والبهجة والليالى الملاح (نورهان وش الحمار) نعم هذا هو اسمها التى اشتهرت به، بل هي تعتز به جدا وتعتبره علامة تجارية مضمونة الجودة، حتى أن عملائها حاولوا تغيير اسمها لما له من إهانة لاصقة بأن يجعلوه وش الحصان أو وش الحانطور ولكنها رفضت بكل أريحية قائلة:

ـ احييه منقدروش نغيرو الاسم بتاعى ده ريس مالى مصدر رزقى، ثم تنظر لعملائهال الرجال نظرة ذات معنى وهى تقول مشيرة بذراعها بطريقة فاحشة مؤلمة للمشاعر:

ـ ده حتى الحمار ارجل من ارجلها راجل هيهيهيهي.

أخيرا هلت وجه الحمار بطلعتها البهيمية علي، تخرت كثيرا يا صديقتي.

ـ متآخذنيش يا وله وكان عندى اوردر كده.

نظرت لها ممتنا من حضورها فى هذا الجو العاصف قائلا:

ـ كنتى فين يا وش الحمار.

ضحكت حتى بانت نواجذها الفضية وقالت:

ـ هيهييي كنت مع اللافلوف يا قلب وش الحما. ر

غمزت لها بعينى قائلا:

ـ حب جديد يا نورهان؟

ـ مش جديد اوى ده ابن واحده صاحبتى لاقيته يا حبة عينى قاعد بيلم الجزم فى محطة مصر، بس عجبنى الواد ايه تقولش جمل ابن الهرمة.

ضحكت من قلبى لأننى أعرف أن نورهان قاربت على الخمسين ولكن قلبها الدافئ يجعلها مؤهلة للتناسل بلا أولاد طوال الوقت، كانت كبالوعة المطر تحتوى فيضان الشباب والمراهقين بلا أى تحفظ، ثم أبرزت لى ورقة ألومنيوم طويلة.

ـ جبتلك ربع وقية يا وله، بس ايه صنف يخليك طالوقة.

ثم مدت كفها العملاق تتحسسنى فى نهم الجوعي، أزحت كفها عن أفخاذى بتوتر متذكرا ليلتى السوداء معها، وتصنعت الضحك قائلا:

ـ ايدك يا ولية عنى، مش بتقولى كنتى مع اللافلوف.

ضحكت كتمساح قائلة وأشارت للكورنيش قائلة:





ـ نسوان اسكندرية يحبو بتوع مصر يا وله والبحر يحب الزيادة.

ثم استعادت جديتها قائلة:

ـ هات خمسة واربعين وخمسة مواصلات يبقو خمسين جني.

نفحتها المبلغ شاكرا، والحقيقة أننى كنت أنوى الاستعانة بها لتجد لى مأوى، ولكني خشيت من تحرشها الدائم بجسدى فهى لا تعرف الخجل أو المداراة وتأخذك على حين غرة لتجد نفسك عاريا مع وجهها وشفتيها المفجعتين، وقبل أن تغادر سيارتى نفحتنى قطعة إضافية على سبيل التحية ووعدتنى بسهرة خرافية فى ورش السفن بالأنفوشى عند الحاجة رز (نعم اسمها رز) وتركتنى راحلة لتبحث عن مراهق آخر من المغتربين المشردين فى حنايا ميدان الشهداء، استعدت روعى وجلست فى سيارتى أتأمل المطر والضياع العام المغلف لديسمبر.

وجدت رجلًا يقترب منى وهو يضع بطانية على رأسه، نقر على الزجاج ففتحت له جزئيًّا، وسمعت اللهجة السكندرية المليئة بالتضجين والاقتحام.

ـ يا افندى يا افندى.. مش عاوز فندق؟

كيف عرف؟! ربما رآنى وأنا أتجول باحثًا.

ـ أيوه عاوز.. عندك فندق كويس؟

لانت أسارير الرجل وهو يقول:

ـ عندى بنسيون لوز اللوز بنسيون سونيا.

ـ فين ده؟



ـ على إمة بورصة النوبه على البحر طوالى.

أشرت إليه بأن يركب إلى جوارى، وأدرت الموتور البارد لنذهب لأقرب مكان ونركن السيارة فيه، الجو لا يسمح بالتجول، المطر يهطل، وكأن مذايب السماء فتحت كلها فى نفس الوقت. تعجبت أن المطر فى القاهرة بالمقارنة بهذا المطر عبارة عن مجرد إحم إحم مجرد «طرطره» بسيطة على الحائط، أما هنا، فالمطر عنيف قوى الشخصية كاسح كنورهان نفسها، ترجلت من السيارة فى شارع جانبى من الكورنيش، ومشيت خلف الرجل العجوز ذى البطانية، صعدنا لعمارة قديمة، ترى أثر الهباب والأتربة عالقًا، كأننا فى مخزن لتدميس الفول وقلى الطعمية،أما المصعد فهو صندوق نفايات قديم تراكمت فيه شتى أنواع القمامة الجافة، وبئر السلم عريض يشى بمدى اتساع الشقق، ولكنه مظلم كئيب، تراجعت متوترا، فشعر بى الرجل والتفت إلىَّ قائلًا:

ـ البنسيون الدور التانى، مش هتحتاج لا مؤاخذه أسانسير، والدنيا فوق رايقه والبنسيون هادى ولو معجبكش ننزل.

ثم تراجع حيث أنا واقف متردد، وأخذ منى الحقيبة الثقيلة وترك لى الأخرى. رفضت؛ حيث إنه رجل كبير، لكنه أصر ورفع الحقيبة على كتفه؛ إمعانا فى الخدمة. صعدت وراءه وأنا أنظر لبهو العمارة الفسيح القاتم. كيف يترك أصحاب تلك العمارة أملاكهم بهذا الإهمال؟! إنها تبدو مهجورة فعلا ببابها الضخم المغلق على قذارتها المتجمدة، تابعت الصعود على السلم العريض، تركنا أول دور مكتوبًا عليه فندق الـ (...) من الداخل. الفندق يبدو على أحسن حال، فما بال ذلك المدخل القميء؟! لماذا يتركونه هكذا؟! وجدت بعض الناس تتحرك داخل الفندق، وأضواؤه المبهرة



تعكس التناقض الفظيع، ثم فى الطابق الثانى وجدت لافتة قديمة تحمل موضة لافتات المحال القديمة فى التصميم والرسم، لوحة زجاجية متكوبة بخط خليع (بنسيون سونيا).

مد الرجل يده وطرق على الباب بتلك المطرقة التى تتكون من يد قابضة على كرة حديد. «طق طق طق». أسمع رنين الضربات له صدى صوت داخل البنسيون، كأنه خاوٍ من البشر أو الأثاث. «طق طق طق» أنا واقف على الدرج الواصل للشقة، بينما الرجل أعلى منى يقف أمام الباب العملاق ذى الضلفتين، سمعت صوت أقدام تضرب بالكعب العالى، سمعت انفتاح عدة رتاجات قبل أن ينفتح الباب مصدرًا صريرًا خافتًا «زيييييئ». وجدت الرجل يتحدث مع عما أظنه امرأة:

ـ معايا زبون محترم يا آنسه سونيا.

لم أسمع صوتها، ولكنى وجدت الرجل يدخل بالحقيبة ليضعها بالداخل، ثم يخرج لى قائلًا:

ـ إتفضل يا افندى واقف عندك ليه.. إتفضل.

صعدت وأنا أتوجس خيفة من صدى الصوت وقذارة المدخل، وقلت فى نفسى: حتى لو لم يعجبنى سأقضى فيه سواد الليل وغدًا أغادر.

دلفت للداخل، الأجواء خافتة كما لو كان نزلاء البنسيون من النيام الدائمين، كأنه مقبرة صُممت لتكون فندقًا، بهو عريض تتناثر عليه مقاعد وثيرة شديدة القدم، وأبواب الحجرات من نفس ضخامة باب الشقة نفسها، وعليها أرقام كُتبت بنفس طريقة كتابة اللافتة، الأبواب كلها مغلقة، على اليمين يقع الكاونتر أو الرسيبشن لهذا المكان، يبدو لى أن الشقة تحتل مساحة



الطابق بأكمله، الاتساع ظاهر، هناك ممر طويل خافت الإضاءة، لابد أن يؤدى للمطبخ والحمامات، الرجل يقف منتظرًا ظهور الآنسة التى كانت منحنية تحت المكتب، فيما يبدو تبحث عن شىء، استقرت رقبتى فوق كتفى بعد أن جالت عينى المكان بحرية، ربما تعمّدت أن تتركنى أجول ببصرى فى المكان، لِمَ شعرت بهذا؟ لا أعلم! ثم اعتدلت تلك السونيا واقفة أمامنا، لتسطع الشمس فجأة، وتهز الطيور مناقيرها وتصدح، وليبتسم لك المولود بمجرد أن تحمله. كانت أجمل مما قد أتصور فى حياتى، بعينين نجلاوين سوداوين كالنبع العميق، وشعر أسود كثيف ينافس الرخاء فى عنفوانه، وبشرة أجنبية شاحبة، ولكنها بقيت رائعة. من أنتِ يا عروس البحر؟ تحركت كل مشاعرى، ونسيت قذارة العمارة وعتمة الفندق. بدت لى فى مثل عمرى أو أكبر قليلًا. سأبيت هنا، لا سأقيم هنا، لالالا، سأعيش هنا للأبد.

ـ أأأ اهل أهلًا وسسسسهلا ن ن ن.

ياللكارثة الكبرى! إنها تتلعثم بشكل مفرط، لا تستطيع التحكم بكلمة واحدة تخرج من شفتيها الطازجتين، حقيقى الحلو لا يكتمل، أى عين أصابت جمالك فى مقتل يا عشيقة الآلهة؟! لماذا لم تنكسف جيناتك الرائعة على دمها لتلقى لك بهذا العيب الداكن وسط كل خصالك المضيئة؟ لم أستطع إبعاد ناظرى عن تفاصيلها الثرية، وإن كنت قد صدمت، لكن جمالها أبهرنى حد الغثيان!

ـ الليله بـ ٤٠ جِنِى يا افندى تحب تشوف الأوضة؟

كان هذا هو الرجل العجوز ذو البطانية والذى قد نسيته تمامًا.



هززت رأسى بأن نعم أريد، فاقتادنى لغرفة واسعة تطل مباشرة على البحر الهائج، صحيح أن الإضاءة فيها ضعيفة تشعرك بالعمى الليلى، إلا أن تلك الغادة كفيلة بأن تترك لك قبسًا من نورها ليضيء لك بصرك لا الغرفة وحدها. عدت معه إلى حيث (سونيا)، وأبرزت بطاقتى، ودفعت ثمانين جنيهًا نظير ليلتين، تناولت منى البطاقة بيد رقيقة شاحبة وسجلت اسمى فى دفتر مترب عملاق فوق الرخامة، لمحت تاريخًا قديمًا مدوّنًا على الدفتر ١٩٦٠ بينما تكفل الرجل العجوز بإدخال متاعى للغرفة، وانتظر واقفًا، فنقدته خمسة جنيهات كاملة إكرامًا له، فذهب من توه لا يلوي على شيء، وسمعت باب البنسيون يُغلق وأنا فى غرفتى أمارس تفريغ المحتويات بشرود ولا أفكر إلا بشيء واحد فقط، كيف أفتح كلامًا مع عروس البحر تلك؟ كيف... كيف أصل إليك يا سونيا؟

.....

لم أجد عمر الذى أعرفه أو الذى أتوقعه أبدًا، بل وجدت بقايا إنسان بكل ما فى الكلمة من معانٍ، ماذا فعلت بنفسك أيها الأحمق؟! كان الهزال يطال كل تفاصيله. عمر الذى كان كالكريستال أصبح صفيحًا صدئًا، عينين غائرتين تكاد من غورهما أن تستديرا، تبدل شعره الكثيف الناعم بشعر أشعث ملبد، كان عاريًا تمامًا إلا من حافضة ملفوفة وكاسية لمؤخرته، وأعلى فخذيه بدت ضلوعه بارزة تغريك بعدها والتربيت عليها لتشعر ببروزها وتعاريجها، كتفاه هزيلتان ويتدلى ساعداه إلى جانب فخذيه الخاويتين من اللحم تقريبًا، أجهشت فجأة بالبكاء عليه، ارتميت عليه وأخذته فى حضنى، مابالك يا أحمق؟أى طريق سلكته لتصبح على تلك الصورة؟ آه يا صديقى إنك والله لشققت قلبى بساطور، ماذا دهاك يا أحمق؟ كان





نسيبه يراقب ما يحدث بمنتهى التأثر، ولمحت الوالدة الصارمة تقف على باب الحجرة تتأمل الموقف بتركيز كبير، بينما يبدو عمر كخرقة بالية، كان ينظر لى فقط ولا يحيد بنظره عنى، أعيد احتضانه وأنا أربت على جسده الهزيل، كان بكائى يسبقنى رغمًا عنى، كنت أفضل أن أراه فى نعش عن تلك الحالة التى لا أعرف كيف وصل إليها، لقد تباعدنا لسبع شهور بدت وهو على هذه الهيئة كسبعة أعوام من الجوع والبلاء، يا صديقى لقد نسيت قسوتك وإهمالك، ولم يبقَ فى قلبى لك إلا شفقة عارمة، ماذا دهاك يا صاحب المزاج والضحكة الرائقة والنكات المتتالية؟ ماذا حل بك يا رفيق المزاج؟ كما قلت لكم قبلا، إن الهلع ليصيبك أكثر عندما يمرض الصديق أو يحل به خراب أو نكبة، لأنها تنعكس عليك أنت، لأنه يمثلك وأنت لست ببعيد عما يجرى له.

ـ تامر... تامر.

كان هذا صوت عمر الواهن، انطبع على وجه (مختار) امتقاع ودهشة واقترب منا، كنت أجلس على حافة الفراش أحتضنه وأبكى.

ـ دى أول مره نسمع فيها صوته من شهرين يا أستاذ تامر.

ثم نظر لحماته بتقدير:

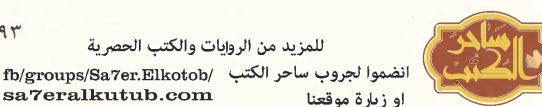
ـ واضح أن كلامك كان صح يا طانط، صاحبه هو اللى يفهم لغته.

تجولت بنظرى فى الحجرة، فوجدت زجاجات فارغة وأخرى مملوءة بسائل أصفر بجوار الحائط، كما وجدت آثار براز تم مسحها على عجل، ماهذا؟ ماهذا؟

عدا ذلك كانت الحجرة خاوية إلا من فراشه، والنافذة محاطة بقضبان



حديدية، من الواضح أنها مصنوعة حديثًا، باختصار كانت زنزانة فى قلب البيت، لن أتركك يا صديقى على هذه الحال أبدًا، لن أتركك، هكذا كنت أهمس فى أذنه: «عمر أنا هنا يا عمر، سلامتك يا حبيبى سلامتك أنا هنا، معاك ومش هسيبك، أنا هقعد معاك هنا وهنام جنبك كمان، سلامتك يا حبيبى ألف سلامة». كانت تلك الكلمات أرددها فى أذنه لأسمعها أنا أيضًا، الحقيقة أن حالته أورثتنى تهورًا وعنترية، ولم أكن أعرف أن المشهد التالى سينتزع قلبى ويرميه أرضًا، لقد انتفض عمر واقفًا، تحولت عيناه للأسود بلا بياض تقريبا او هكذا بدا لى، قفز من على الفراش، أخذ يتقافز بعنف لدرجة أننى توقعت سماع صوت تكسير عظامه، وقف أمامه نسيبه الضابط، وظهر الرجلان يدوران حوله، بينما التصقت أنا بالحائط قرب الأم لا أعرف البروتوكول بالضبط، (عمر) يجول ببصره فيهم بكل حذر كما لو كانوا قطيعًا من الأسود حول ثعبان، سواد عينيه يضفى لمحة شيطانية حقيقية، ثم خلع الحفاضة عن وسطه وأمسك قض.. وبدأ يتبول وهو يدور فى كل الاتجاهات وكأنه جندى يدافع عن حياته بإمطار الرصاصات من المدفع الرشاش، ماذا دهاك يا أخرق؟! من الواضح أن نوبة الهياج عنيفة هذه المرة، ربما أنا هو السبب لا أدرى! سمعت صوت الأم الملتاع توجههم للترفق به وإمساكه مرة أخرى، جرى هو للنافذة واعتلى حرفها وهو يحاول اختراق حديد قضبانها القاسى، يريد أن يهرب، التصق بحديد النافذة كخفاش فى مصيدة، ولوح بذراعيه تجاه خواء المزارع وصرخ، نعم صرخ، ولكنها صرخة مقلوبة، مشروخة مؤذية، اقترب منه الحارسان، إنهما على قدر غير عادى من الغلاظة والتمكن، إنهما يحاولان انتزاعه بينما يتشبث هو، اندفعت بينهما أمنعهما من ايذائه أكثر، فتوقفا ينظران لى باستهانة، اقتربت منه، ورفعت جسدى إلى حيث يجلس هو على قاعدة النافذة، أسمعه يتلو



أشياء بسرعة كبيرة، شفتاه لا تكف عن الترديد والهسيس لألفاظ ولغة لا أعرفها، ولكنه هدأ نسبيًّا بمجرد جلوسى لجانبه، مددت يدى لأخلع يده القابضة على الحديد، ناولنى نسيبه منشفة فوضعتها عليه لأستر عورته، ثم نزلت فنزل معى باستجابة، فلففت خصره الناحل بالمنشفة، وسرت معه للفراش، فصعد وصعدت ونمت إلى جواره فهدأ تمامًا، واصلت التربيت على كتفيه وجسده إلى أن همدت حركته النافرة تمامًا وراح فى سبات عميق والكل واقف متأففًا من رشهم بالبول، ورائحة المكان صارت نشادرية كالحة، خرجت من الغرفة لأجد الأم والأخت فى حالة من اليأس المطبق، لم يفلح مع عمر أى علاج، نصحهم الأطباء بإرساله لمصحة عقلية، لكنهم رفضوا خشية الفضيحة وترفقًا بحالته، الزوجة غاضبة فى بيت أبيها فى القاهرة، لا تعرف عن الموضوع شيئًا وتحسبه أهملها للأبد، والأب مكلوم، فى قلبه حسرة على ولده الوحيد وعميد العائلة القادم، والأم تحاول أن تتماسك قدر جهدها وكبريائها، أما أنا.... أنا... أنا لا أعلم ماهى علته، أعرف أنه كان مهووسًا بالروحانيات وكاد يودى بحياتى أنا نظير هذا الهوس، ربما فعل شيئًا بمفرده، لقد قال لى سابقًا إنه قام بعدة محاولات للتحضير، ربما أفلحت محاولة منها، واستحضر من يصر على جنونه ونهايته، إن التحضير لهو أخطر من أخطر مغامرة تقوم بها، لأن أقسى نتائج المخاطرة هى حياتك نفسها، أما فى الروحانيات، فإن مصيرك ومصير من معك ومصير عقلك وشكلك يذهبون أدراج الرياح.

ـ عمر ممسوس بحاجه قويه جدًّا.

نطقتها أخيرًا وأنا أضع فنجان القهوة فى طبقه، فاقشعرت ملامح الأم رفضًا، بينما نظر لى نسيبه بتركيز:



- بصراحه إحنا جبنا شيخ واتنين وتلاته، كلهم قالوا نفس كلامك، لكن معملوش حاجه.

- لإنكم مش محتاجين شيوخ، إنتم محتاجين لساحر من بتوع السفلى.

نظرت الأم لى فى استهجان حقيقى من الواضح أنها ترفض الفكرة من أساسها، إنها لا تعترف بالروحانيات ووضعها الاجتماعى الرفيع يجعلها لا تنحدر لمثل تلك المعتقدات، فهى متعلمة راقية تنحدر من أصول عريقة فى العلم والثقافة.

- أكيد عمر حضّر تانى لإنه كان بيقوللى إنه بيحاول ينفذ فى المنيا.

نظرت لى الأم وارتفع أحد حاجبها، وقالت فى اتهام:

- يعنى إنت كنت عارف؟

أكره أن يضعنى أحد فى موضع اتهام، وأعترض بشدة على طريقتها.

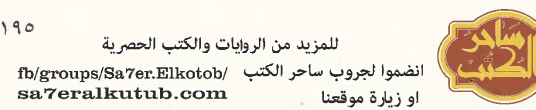
- آه كنت عارف ونصحته كتير يسيب المواضيع دى؛ لأنها مؤذية أنا شخصيا كنت هموت بسببها.

- ازاى..؟

- هو أقنعنى فى مرة إننا نحضّر، وأنا سمعت كلامه ولحد دلوقت بعانى من الموضوع ده.

وقبل أن يتفوه أحد قلت لهم بتسرع:

- عموما انا هقعد هنا معاه لحد ما نشوف حل، انا مش ممكن اسيبه فى الحال ده ابدا.



نظروا لى باستغراب! لابد أنهم توقعوا أن أهرب بعدما رأيت ذلك الهول الذى أصابه، ولكنى لم أكن من ذلك النوع، إنه صديقى ولو قدر له الموت سأكون بجانبه مهما كان الثمن.

أشعر بشيء ما يقول لى ألا أتركه وحيدا، ألا أغادره لمصيره، إنه صديقى ولن أتركه. انصرف الجميع، فقد أخذ مختار حماته وزوجته ورحلوا عائدين للمنيا على أن يأتوا غدا، وتركونى مع الحارسين وحارس البيت بعدما أوصوا الحراس بحمايتى أنا الآخر وطاعة أوامرى.

الآن أنا أجلس فى الغرفة المجاورة لغرفة عمر، أحاول النوم، ولكن المطلب عسير، كل أعصابى يقظة وأشعر بتعب فى نفس الوقت، لابد أن أهدأ حتى أعيد ترتيب أوراقى، لابد أن أساعدك يا عمر لابد لابد، ولكن كيف.... كيف؟

.....

يا إلهى! إننى مبلل وأشعر بالبرد ينخر فى نخاع عظامى، لا بد أن النخاع أيضًا بات مثلجًا، الرعشة تضرب أطرافى كل دقائق، بينما أمشى فى الحقول المظلمة كشبح تعيس يبحث عن إنسان ليبث فيه رجفة ترضيه، ما تلك الكائنات القابعة فى قاع النيل؟! إن لها شكلًا رماديًّا شفافًا، هل يتبعون الكائنات الرمادية التى تسكن جوف الأرض وتحدث عنها العلماء من قبل؟ هل يترصدون البشر أم أن لهم أهدافًا أخرى لم تحن بعد؟! إنهم كالشياطين، ولكن أيضًا لهم جبلة حيوية أو تكوين أشبه ما يكون بالبشر، أتجول وسط حقول الخضر، ثمة حركة وصلت لأذنى فتوقفت، أشعر بشىء يتربص



بى، كأنه يراقبنى، ياللمصيبة! قد يكون ذئبًا أو «السلعوة» التى يتكلمون عنها، أسمع خشخشة الخطوات بين الزرع، الرؤية متعذرة بسبب ظلام المكان الدامس، اللهم إلا من بعض الإضاءات الخافتة التى ترسلها النجوم، لا قمر هذه الليلة لحسن الحظ، لمحت بعينى طيفًا أبيض يهيم على مرمى البصر، طيفًا يرتفع لعنان السماء ثم يهبط سابحًا على مبعدة من الأرض، أعرف أن الحقول تعج بالكائنات الظلامية، النداهة، والمزييرة، وعروس البحر، وإناث الجن، لطالما سمعت من جدتى تنهينى عن المشى إلى جوار الماء والحقول ليلًا، وأنا حاليًا وبالفعل أمشى وسط الحقول ويحدنى النيل من بعيد، لا بد أننى فى مستعمرة للأهوال الشيطانية! توقفت مكانى كى لا ألفت نظر هذا الطيف، ثم تراجعت بظهرى وعيناى مثبتتان عليه، إنه فعلًا طيف شبحى يهيم على وجهه فى الحقول، مثلى أنا تمامًا، ثم رأيت وعلى ضوء النجوم ديناصورات تمشى على بعد قليل منى، الأرض ترتج تحت خطواتها، لا إنهم يتجهون ناحيتى أنا، ضخام كالجبال، لا، أقل قليلًا، إنهم كالتلال، قطيع منهم يتوجه ناحيتى أنا، لا لا، سأجرى، ولكن لأى اتجاه أجرى؟! بالطبع سأتقهقر للخلف، لكن هذا الطيف المرعب ورائى تمامًا، إن الكائنات الضخمة تقترب تقترب، أسمع صوت تنفسها الحارق، لا بد أننى سأتحول لوجبة تلوكها أنيابهم المسمومة، أنا واقف أرتجف، لكن هل يوجد فى أسوان ديناصورات؟! هه؟! لا لا إنها.. إنها.. إنها مجرد قطيع من الجمال.

ـ أوجَف عَنديك ياللى هنااااك أوجف لحسن أطخ فى المليان.

لهجة صعيدية محلية تليق بالأجواء، توقفت مكانى حتى برز جملان وفوقهما رجلان، آه! هكذا تتضح الرؤى، تبًّا للخيال الذى يورد بصاحبه



موارد التهلكة! لا بد أنهما صاحبا تلك الأرض أو من حراسها، الحمد لله بشر، رفعت يدى لأعلى رأسى كى يعرفا أننى مستسلم لا محالة لهما، بل أدعوهما ليأخذانى، ينيخ الجملان مثيرين أكبر قدر من الأتربة ونزل عنها شبحان أسودان، انقشع الظلام عن شخصين ملثمين يلبسان الجلباب الثقيل ويضعان طيات العباءة على كتفيهما، رجلين صعيديين، الحمد لله يارب، اقترب منى أحدهما وهو يحمل مصابح الكيروسين ليستكشف أى نوع من الكائنات أنا، ثم اقترب الآخر حاملًا بندقية عتيقة كالساقية ثقيلة كالشادوف، وبعد محادثة سريعة فهما قصتى، وقادانى إلى المخفر القريب، عرفت أننى فى حيازة مركز (دراو)، وبالتحديد فى زمام قرية الجعافرة العريقة. إذن وجود الجمال أمر طبيعى؛ لأن هذا المركز مشهور بتربية الجمال، وبه أكبر سوق للجمال فى الجنوب، بالرغم من غلاظة التعامل مع الصعايدة، إلا أنهم بالفعل هم رجال مصر الأوفياء الصامدون، لقد وضعوا على كتفى عباءة ثقيلة بعدما اكتشفو أننى مبلل، وجاءوا بطعام ساخن قوامه شوربة العدس الدسمة والتى طببت أمعائى وبعثت فىَّ الدفء من جديد، بل إن أحدهم أهدانى بصقة صغيرة من الأفيون اتقاءً للبرد الذى نخر فى عظامى، وتطوع أحدهم بأن يقلنى بسيارته نصف النقل لأسوان والتى تبعد عن المركز بحوالى ثلاثين كيلومترًا. شكرًا من قلبى أيها الرجال، لا بد أن الرحلة النيلية فسدت على الكل بغيابى الغامض، لا بد أنهم يقلبون الدنيا رأسًا على عقب فى سبيل الوصول حتى لجثتى، بعد حوالى أربع ساعات من سقوطى عن المركب، كنت فى أسوان، الوقت بات صباحًا والساعة تخطت السادسة.

هدية برخص التراب:

الشمس تلوح فى الأفق معلنة قدوم اليوم الأول من السنة الجديدة السعيدة، بحثت عن مرسى المركب، فوجدتها قريبة من مبنى المحافظة، اسم المركب كان الشمندورة، وجدتها راسية بزينتها المطفأة، بينما بعض الركاب جالسون على الشاطئ يحتسون الشاى ويثرثرون، ومن بينهم كان الحاج محمود وزوجته الأريبة، اقتربت منهما عسى أن أرى دموع الفرح فى عينيهما، ولكنهما نظرا لى فى غضب.

ـ كنت فين ياسى تامر؟ آدى آخرة الصرمحه ورا النسوان الأجانب، طبعًا شربت وسكرت ونسيتنا خالص.

كانت هذه هى الحاجة، تثير الغبار فى وجهى بكلامها، اصمتى أرجوكِ كى لا أنفجر. نظرت إليها بغل ولم أعلق، فسمعت الحاج يقول بنبرته الرصينة:

ـ رحتلك الكابينه وخبطت عليك وموبايلك خارج الخدمه، كنت قاعد مع السياح عشان تشرب براحتك زى ما الحاجه قالت. مش كده؟

من الواضح أن غيابى لم يلتفت له أحد من الأساس، لقد خمن الحاج محمود أننى تواريت عنهما لأشرب على راحتى وسط الأجانب، لأنهما فعلًا يرفضان الخمر تمامًا بحكم خلفيتهما الريفية المتحفظة، نظرت لهما بغيظ شديد واحتقن وجهى ورفعت عنى العباءة لأعطيها شاكرًا للرجل وأعود لهما مغتاظًا وقد قررت ألا أخبرهما بتعرضى للموت غرقًا وبأننى كنت فى جوف النيل نفسه أتحاور مع.. مع.. لا أستطيع التصنيف حقيقة، كم هو مخزٍ أن ترى غيابك لم يلتفت له أقرب الناس معك، بل إنهما ظنا أننى أريد بعض «الخلبصة» والخمر بعيدًا عنهما، تركتهما وصعدت للمركب الراسية،



أريد دشًّا دافئا وملابس جافة، سأكتفى بهذا القدر من الإحباط، وأكتم فى نفسى ما قد حصل. كان موعد إبحار السفينة ليلًا حتى نصل للأقصر مجددًا على منتصف النهار، أى أن يومًا كاملًا بحوزتى فى أسوان التى أراها لأول مرة، لن أفسد خططى. رجعت للمرسى وصعدت للشارع وذهبت لشركة المحمول فى طلب شريحة جديدة، ثم عدت حيث الحاج والحاجة المستفزين ووجدتهما جالسين على أرضية المركب يتناولان شطائر الدجاج المتبل، اختطفت واحدة وأعلنت أننى أريد زيارة معبد (فيلة) القابع وسط الماء، كذلك رتبت أمورى لكى أزور السد العالى، معجزة البناء فى القرن العشرين. تناولت طعامى وتجددت همتى، بل ورحب الحاج والحاجة بمقترحاتى، واستأجرنا سيارة لتنقلاتنا. ذهبنا للمتحف النوبى العظيم، وتعرفت هناك على حضارة (كوش)، وهى حضارة موازية للفرعونية وإن كانت أكثر وثنية وبدائية، ثم هبطنا لشاطئ النيل وأقلنا مركب صغير لنرسو على مرسى معبد فيلة العظيم والذى لم أرَ فى جماله معبدًا آخر، ثمة سمت من الحب والرومانسية فى أجواء هذا المعبد، وذهلت عندما عرفت أن هذا المعبد الضخم العاتى قد تم نقله من مكانه إلى هذا المكان كجزيرة فى وسط النيل عقب بناء السد العالى. على كل لقد خلب لبى وتمنيت الموت هناك. إن (فيلة) معناها «الحبيب» فى اللغة الهيروغليفية، وفى القبطية هى «بيلاك»، أى النهاية أو الحد الفاصل، وفى العربية ينسب المعبد للأميرة أنس الوجود، لذلك كانت النزعة الرومانسية طاغية وبكثافة على المعبد، لن تتخيلوا كلامى إلا عندما تطأ أقدامكم المكان الساحر هذا، ثم انتقلنا جنوبًا لرؤية السد العالى، هذا البناء العاتى فى جبروته، لم أكن أتصور أن الإنسان قادر على تشييد تلك الصروح العملاقة، وتذكرت مقولة لنابليون عندما قالوا له: إن الجبال تقف عائقًا أما الجيوش، فقال لهم: يجب أن نزيل



تلك الجبال إذن. فعلًا إن الإنسان هو جبار عاتٍ وقتما يريد، وحيثما يريد. كنت أطمع فى إكمال جولتى لأرى معابد (أبى سمبل) المرسومة على الجنيه المصرى، ولكن الوقت لم يسعفنا، وخصوصًا مع طول المسافة التى تقدر بثلاثمائة كيلومتر، عدنا أدراجنا لأسوان. تجولنا فى أسواقها الغنية بالعطارة والبلح والكركديه والملبوسات اليدوية، لاحظت أنها بلد نظيف، يعترى شعبها نزعة كبرياء ونظافة، لا تجد فى البلد متسولا أو شحاذًا، أو شخصًا يعتدى على محظورات البلدية، كل شيء هادئ وفى مكانه، وبأسعار قليلة نسبيًّا بالنسبة للقاهرة المُعفرة بالتراب. اقترب المساء، تناولنا الطعام عند أحد معارف الحاج محمود، طعامًا رائعًا فى الحقيقة، قوامه اللحم المحمر والبط والحمام والأرز المعمر، شربنا الشاى الأحمر وتمازحنا وتسامرنا، على اختلاف مشاربنا وخلفياتنا الثقافية، انفصلت عنهم لأتمم جولتى فى المدينة الجميلة، وقبل موعد انطلاق المركب العائدة للأقصر، وبجانب محطة القطار، كنت أجلس أدخن النارجيلة كوداع أخير للمدينة، بجانب المقهى كان هناك حانوت لبيع العاديات والتذكاريات، محل متواضع بكم غير عادى من التماثيل والإكسسوارات وكل ما له صلة بجو خان الخليلى هنا فى مصر، كانت بضائعه شبه راكدة يعلوها طبقة من التراب يجعلها رمادية اللون، حتى المحل نفسه، يظهر عليه أمارات الكساد القاسى. وضعت لِيّ الشيشة جانبًا وأمسكت بكوب الشاى واقتربت من الحانوت، كان صاحبه رجلًا أسمر نحيلًا طويل القامة، يلبس كما القاهريين، ويلف نفسه بشال ذهبت ألوانه.

- سلام عليكم.

- سلام.

مال هذا الرجل لا يجتهد حتى فى الترحيب بى؟ إينعم أننى فى آخر الليل، وهو الحانوت الوحيد المفتوح، لكن المقابلة أيضًا لها تأثيرها، تجاهلت طريقته غير اللائقة، ووقفت إلى جانب الحانوت أتأمل البضاعة المتراكمة فوق بعضها البعض فى سلال من الخوص، أساور، تماثيل فرعونية، ميداليات.. مددت يدى أعبث فى السلال علنى أجد شيئًا يستحق الانتباه، ولكننى ضجرت سريعًا. إن كثافة المعروض وحالته تؤثر حتمًا فى رغبة الشراء، حانت منى نظرة لصاحب الحانوت، فوجدته واقفًا ينظر لى بتنمر، من الواضح أنه سيصفعنى لو لم آخذ شيئًا منه، واصلت التقليب من سلة لأخرى، نفس الشىء لا شىء، وجدت الرجل يقترب منى أكثر وهو ينظر لى بتركيز كبير أزعجنى داخليًا جدًّا، تشاغلت عنه بجدية البحث عن أى شىء أشتريه، وبدلًا من أن أذهب بعيدًا عنه، وجدت نفسى فى عمق الحانوت أمارس العبث والتقليب، إلى أن عثرت على شىء استرعى انتباهى، كان راقدًا فى قعر رف إلى يسار المحل.

.....

رأيت تمثالًا غريبًا جدا لا يمت لأى حضارة أعرفها بصلة، أنا قادر على التمييز المبدئى بين تماثيل الحضارات المختلفة، طبعًا الفرعونية والإغريقية والفينيقية والفارسية، لكن هذا التمثال عجيب جدًّا، رفعته واستوت وقفتى، ووضعت كوب الشاى جانبًا وأنا أقلب فيه، لم يكن كبيرًا، كان بارتفاع عشرين سنتيمترًا تقريبًا ولكنه ثقيل جدًّا نسبة لارتفاعه، عبارة عن قمع قاعدته لأسفل، وفى الأعلى رأس صغيرة بحجم قبضة اليد، رأس بشرية كاملة التفاصيل، بينما الجسم القمعى ملفوف بالكامل بشرائط من الجلد القاسى جدًّا، طيات وطيات تلف هذا القمع، أما الرأس فتخرج من مؤخرتها

قرن ماعز أسود حقيقى ملتف لأسفل طويل، حتى إنه يبلغ القاعدة مع أنه منحنٍ، كان التمثال مثالًا للتماسك بوزنه وشكله وموضوعه، حانت منى التفاتة للرجل فوجدته ينظر إلىَّ بشغف وقد غادرته تلك العدائية الأولى، كان التمثال يعلوه التراب مثل باقى البضاعة، فجعلت أنظفه بيدى وأنا أنظر للرجل.

ـ تمثال ايه ده يا عم؟

ـ ما أعرف والله، واحد باعه ليا من سنتين، يظهر إنه من الجنوب تحت أبو سيمبل.

قلبت التمثال، إنه حقيقى جدًّا وتحفة فعلًا، ولا يليق به أن يقذفه صاحب الحانوت تحت طيات البضائع الصينية والأتربة.

ـ لو عاجبك أعملك خصم كبير.

تجاهلت عرضه المغرى وسألته عن الأحوال، فأجابنى بشىء من الضيق:

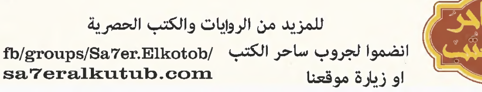
ـ الأحوال زفت بقاله ييجى سنتين والله يا أستاذ، مع إن المحل فى وسط البلد زى منتا شايف، كان كله تمام والحال عال، لكن ما أعرف إيه اللى حصل.

ـ أنا أعرف تجار كتير من القاهرة ممكن ينزلولك بضاعه.

ـ ما عايز بضاعه، أنا عندى كتير لكن.. الحمد لله كله نايم كله قاعد على قلبى.

أعدت التقليب فى التمثال. إن لى رغبة خفية فى شرائه، لكن لن أظهر له ذلك حتى لا يبالغ فى السعر، أنا أعرف أن كل العاملين فى مجال السياحة





يبالغون جدًا. أعدت التمثال لمكانه، فنظر إلَىَّ بغضب مفتعل:

ـ إنتى ما قلت تاخدى التمثال يا أستاذ؟

ـ أصل شكله مترب وقديم.

انحنى الرجل وأمسك التمثال بيده، فتوقعت أن يضربنى به على أم رأسى، ولكنه هزه فى عصبية قائلًا:

ـ إنت ما سألت عن سعره.

ـ بكام؟

ـ أعطيهولك بهمستاشر جنيه.

نعم؟؟!! إن هذا التمثال لا يقل بأى حال من الأحوال عن الألف جنيه، يكفيه صناعته اليدوية المتقنة ووزنه، كما أنه تحفة فعلًا وبكل المقاييس.

ـ ماشى كلامك، إتفضل.

وأعطيته ذلك الثمن الزهيد، فدخل لحانوته وعاد بكيس قماشى على شكل حقيبة ومطبوع عليها رسوم فرعونية واسم المحل ورقم الهاتف، ثم وضع التمثال فيه وناولنى إياه. لا أصدق تلك الصفقة الرخيصة!

ـ بتعمل إيه عندك؟

كان هذا الحاج محمود ومعه الحاجة، كانا يتجولان أيضًا.

ـ كنت بشترى حاجه... ثم وجهت كلامى للحاجة: المحل ده حاجته رخيصه جدًّا يا حاجه.

دخلت الحاجة المحل ومارست التقليب فى البضائع، وبالفعل اشترت





الحاجة كما لا بأس به من المفارش والبُسط ومنفضات السجائر. باختصار اشترت بما يوازى ستمائة جنيه. أراقب فرحة الرجل بالصفقة، وأبصرت ابتسامته من الأذن للأذن، ووجدته يقترب منى ويعطينى بساطًا يدويًا جميلًا وقال لى:

- إنتى وشك حلو أليا.. إبقى تآلى كل يوم خدى دى هديه من المهل.

طبعًا يقصد أن وجهى كان خيرًا عليه؛ إذ إننى كنت السبب فى شراء كمية كبيرة وبسعر مُرضٍ له، شكرته وتقبلت هديته، وقبل أن أغادر وجدت فوجًا من السائحين زملائنا يدلفون عنده ويقلبون وهو سعيد كطفل يلتهم الحلوى، ابتسمت له وغادرته رجوعًا للمقهى المجاور ومعى الحاج الذى طلب قهوة، والحاجة التى طلبت سحلب فواكه. سبحان مغير الأحوال، منذ أقل من ساعة كان يشكو كسادًا طويل الأمد، وفى خلال ساعة بدا أنه سيبيع كل ما عنده من بضائع! أما أنا، فكنت سعيدًا بالتمثال وبالكليم الصوفى المجانى، وبت أفكر أين سأضعه عند عودتى للقاهرة.

.....

اللعنة بفلوس:

لم تكن السيدة (هدى) مجرد زوجة لقاضٍ تحضر له الحساء الساخن عقب عودته، بل هى شخصية مؤثرة فى كل من حولها، امتدت علاقتها للقاهرة، وجعلت من جميع معارفها خاتمًا فى إصبعها، كانت حفيدة لرائدة من رواد تحرير المرأة، فاستغلت اسم زوجها اللامع فى القضاء مع اسم عائلتها لتصنع صرحًا قويًّا، فى كثير من الأحايين كانت السيدة قاسية،



تصدر أحكامًا على أسرتها بلا رجوع ولا استئناف، هى من زوَّجت ابنتها لابن عمها حتى لا يمتد ميراث العائلة للغرباء، وهى من أجبرت (عمر) ليتزوج من ابنة صديقتها والتى هى أيضًا ابنة سياسى وأخو سياسى كبير فى الديوان الرئاسى، حتى مع رفض عمر التام للموضوع أتمته هى بتسلطها التام، بل وأجبرت (عمر) على مغادرة كلية الفنون الجميلة التى يحلم بها وأجبرته على كلية الحقوق بعدما وصل للصف الثانى فى كلية الفنون، لتجعل منه قاضيًا وقورًا مثل أبيه، لم يكن الأب بذلك الحضور، وإنما كان مشغولًا بشكل دائم فى صولاته وجولاته فى دنيا القانون، وعندما انتدبته دولة عربية لسنوات يعمل فيها قاضيًا هناك، اتسع نفوذه وزادت ثروته أضعافًا مضاعفة، إلى أن أصيب بالسرطان، فى فكه السفلي فأخفت الأم إصابته عن أبنائه، وتمت كل مشاريعها رغمًا عن كل الظروف، وعندما اختل ميزان (عمر) وفاجأها بالاستقالة والإلحاد، شنت عليه حربًا شعواء، خالعة ثوب الأمومة الدامع، بل عرفت من الحارس الثرثار أنها قامت بضربه وسحله، وكسرت اللابتوب خاصته، وكذلك هواتفه الثلاثة التى كان لا يمشى بدونها، ولكن الأمر بدا أكبر منها عندما اختل توازن ابنها تمامًا وبات كالمجنون يتصرف بطريقة غاية فى الجنون المطبق، تفاهمت مع نسيبها، أبى زوجة ابنها على إبعاد الزوجة عنه تمامًا، واقترحت عليه اقتراحًا يشبه الأمر، بأن يأخذ ابنته عنده لأيام ريثما تفلتر الجو من جديد، وسحبت ابنها للعزبة كى تصفى حسابها معه بلا رقابة ولا فضائح، ولكن حالة عمر تطورت أكثر، وبات يهوى للحضيض؛ فخسر الكثير من وزنه ووسامته، يقضى الليل متكومًا حول نفسه فى الظلام يئن، أو يكلم أناسًا ليس لهم وجود، ومن ضمن هؤلاء الناس الوهميين كان اسم (تامر) يتردد فى جمل كثيرة، ثم تطورت حالته أكثر، وبدأت أعراض الصرع أو المس تظهر عليه،



بالطبع كان هناك أطباء على أعلى مستوى قالوا إنها بدايات فصام عنيف، وبالطبع كانت هناك أدوية معظمها يعمل على تهدئة عمر تمامًا أو تجعله ينام لفترات طويلة، لكن الأمر تطور إلى أن فترات صحوه باتت مليئة بالقاذورات، فهو يتبول فى غرفته، بل ويتبرز فيها أيضًا. همست الأخت لها بأنه ممسوس يا أمى، ولكن الأم لم تقتنع، كان شىء ما يقول لها إنه يفعل كل ذلك بسبب تمرده على تسلطها، فقد حرمته من دراسته التى يحبها، بل وزوّجته رغمًا عنه فتاة لا يحبها، بل وأجبرته على الالتزام فى سلك القضاء الذى يكرهه، لماذا لا يكون عمر يدعى كل هذا؟ ما حكاية العفاريت فى حياته؟ لم تعرف أن موضوع عمر وصل للقاهرة، وفى مكالمة بينها وبين نسيبها قال لها بشكل مفاجئ:

ـ اللى بيحصل لعمر ده ممكن يكون سحر يا هانم، وأنا عندى واحد مناسب للمهمة دى.

ـ إنت متأكد منه يا سيادة اللوا؟ إحنا جبنا تلاته معملوش حاجه.

ـ بقولك يا هانم ده الرجل المناسب فى الوقت المناسب.

ثم همس لها عبر الهاتف قائلًا لها:

ـ كل ديوان الرياسه هنا بيستعين بيه، وكلهم واثقين جدًّا فيه.

ـ ساحر فى ديوان رئاسة الجمهوريه؟! معقول!

ـ طبعًا معقول، وهى دى بلد ينفع تتحكم إلا بالسحر يا هانم؟

ـ خلاص يا سيادة اللوا، إبعتهولى على وجه السرعه، عمر تعبان جدًّا.

ـ أنا بعتبر عمر زى إبنى بالظبط، مش جوز بنت أخويا، ومتأكد إن مستقبله السياسى هيكون رائع؟



ـ للأسف يا سيادة اللوا هو طايش وقدم استقالته من شهرين.

ـ وماله... نرجعه تانى.. كل الولاد كده بيكونوا متهورين، تعالى شوفى إبنى، كل يوم بلمه من كباريه شكل ومشاكل وقرف، لكن مع الوقت هيتظبط، ولادنا دول يا هانم هما اللى هيحكموا مصر من بعدنا، بس هما بيدلعوا شويه.

ـ أنا متشكره ليك جدًّا وهنتظر منك تليفون تبلغنى فيه بموعد الرجل الساحر.. هو إسمه إيه؟

ـ .... إسمه لبيب يا هانم.

.....

سونيا لادوس:

الساعة الثانية عشرة والنصف، أقف فى بلكونة الغرفة، بينما المطر يهطل مدرارًا من السماء، أتدثر ببطانية البنسيون، وأقف مرتجفًا أرمق كل هذا الغضب المبتل، لا يتسنى لنا نحن القاهريين رؤية البحر والمطر فى لوحة واحدة، فنحن عندنا المطر والمرور، أو المطر وبرك الطين وبحيرات الأسفلت، لكن المطر مع البحر، فهذا شىء لا نراه كل يوم، منظر البحر وهو يضرب براحتيه المائية الغاضبة صدر الصخور المتراكمة على طول الكورنيش هو مفزع وحالم فى نفس الوقت، كأنك ترى عاشقين اختلفا وظلا يتناحران بضراوة فوق الفراش، الصخر يشق حنايا الماء بينما الماء يضرب الصخر ويزلزله ناثرًا لافا بركانية ثائرة، المطر كرجل الإطفاء يمارس رش حريق هذا الغرام الملتهب بلا فائدة، كانت شرفات الفندق تتراص على واجهة العمارة



فى صف واحد، كنت أقف لصق الشيش الخشبى المفتوح اتقاءً للبلل وأنا أرمق كل ذلك الجنون، الهواء أيضًا منتصب الهمة، عاتى السرعة، يأخذ نصيبه من المجزرة الطبيعية، لكم تثيرنى تلك الأجواء، وتجعل شياطينى تمرح تحت قشرتى الرمادية! لماذا لا ننزل؟ ها، إن للماء القوى الروحية العظمى بلا جدال، عندى رغبة عارمة فى النزول حالًا والرقص فى هذه الأجواء، ولكن طبيعتى القاهرية المعتادة على الجفاف حالت دون تحقيق رغبتى، فاكتفيت بمراقبة هذا السيرك الكونى من بلكونة الغرفة، أخرجت لفافة محشوة بالحشيش وأشعلتها؛ شاعرًا بالامتنان لصديقتى (نورهان) على إسعافها لى بالمزاج العالى، أوووف.. الجو يحتاج حتمًا لكوب رائع من الشاى، كوب ساخن مضبوط السكر بملعقتين وعائم على وجهه ورقة نعناع واحدة، ويكون أحمر كالنبيذ. اشتعلت الرغبة أكثر فى احتساء الشاى، لا بد أن هذا البنسيون الخرب فيه مطبخ وموقد وشاى وسكر، توجهت باستهتار الحشيش إلى حيث الباب، فتحته فى هدوء، قابلنى ظلام الصالة الغارق فى الخفوت والصمت، ضربت رجفة ما صدرى، خطوت للخارج مسترشدًا بضوء غرفتى الذى صنع مستطيلًا ذهبيًّا فى ظلمة الصالة، أمام غرفتى يقع الممر الطويل المفضى حتمًا للحمامات والمطبخ، مشيت بتوءدة داخل المستطيل إلى أن وصلت فعلًا لمكان المطبخ، تركت مستطيل الضوء الواهن ودخلت لعمق الظلمة أستعين بشاشة الموبايل لأبدد ذلك السواد، كيف لهم أن يتركوا الظلام هكذا فى البنسيون! لعلهم يوفرون الاستهلاك مثلًا؟ المطبخ إلى اليمين، عرفته عن طريق الإضاءة الصفراء الواهنة الخارجة منه، أسمع صوتًا عجيبًا «تشومب تشومب تشومب». وصلت للمطبخ، الإضاءة الصفراء الواهنة الخارجة منه، أسمع صوتًا عجيبًا «تشومب تشومب تشومب». وصلت للمطبخ، الإضاءة ضعيفة مشبرة صفراء،



تكاد تخطف بصرى من ضعفها، فوجئت بامرأة هائلة الحجم تلتف أمواج لحمها مقسمة ظهرها لثنيات عظيمة الدسم، تهتز كما فقاعات عملاقة فوق بعضها، تقف أمام رخام المطبخ الملاصق لحوض الغسيل، تمسك فى يدها سكينًا عملاقًا وتمارس تقطيع شيء ما. «تشومب تشومب تشومب». كانت هائلة كفرس النهر عملاقة كقنديل بحر عظيم، تلبس شالًا أزرق حال لونه إلى السماوى، شافعًا فى مقاسه كأنه غطاء سيارة. بالفعل المرأة هائلة الحجم، كما لاحظت أنها تقف حافية القدمين، لها قدم هائلة، ولها أظفار عجيبة مدببة، تنحنحت كى تشعر بوجودى، فتوقفت عما تفعله للحظة ثم استأنفت التقطيع دون أن تلتفت الى، «تشومب تشومب تشومب». وجدت أمامى الموقد قديم الطراز تعلوه طبقة زيتية مقيتة، كأنهم يشوون السمك على عيونه الأربع، الشاى، ملأته بالماء ووضعته بعدما أشعلت الموقد، كان ظهرى لظهر السيدة التى تمارس تقطيع شيء ما بالسكين، اقتربت منها قليلًا لأبحث عن كوب زجاجي والشاى والسكر. كانت تمسك السكين وتقطع حزمة هائلة من الخس، صوت السكين «تشومب تشومب تشومب» لم تلتفت لى نهائيًا، بل بدا أنها منهمكة تمامًا فى التقطيع الدقيق «تشومب تشومب تشومب» حانت منى نظرة لوجهها، كان شعرها المجعد يرتمى شائكًا وحاجبًا جزءًا كبيرًا من وجهها، قمته خصلة بيضاء وحيدة تنسدل على وجهها كشعلة انطفأت. «تشومب تشومب تشومب» لن أنسى ذلك الصوت ما حييت. «تشومب تشومب تشومب» وجدت الكوب والشاى والسكر. هاااااااااااااااااااااااا صرخة عاتية ارتجت لها جدران قلبى قبل جدران المطبخ، لا بد أن مصدرها أنثى الديناصور تلك، شاهدتها من ظهرها تمسك يدها وتصرخ، جريت حيث تقف ونظرت، ياللهول! لقد جرحت كفها الأيسر بجرح غائر عميق، رأيته فى الضوء



الخافت، رفعت لى وجهها وهى تبكى بحرقة، كانت كعمياء لا تنظر فى اتجاهى، أما وجهها، فيا ألله! لن أنساه، لقد كان نصف وجهها بنصف رقبتها بنصف صدرها مستعمرًا بأثر حرق مهول، بل إنه يمتد لفروة رأسها آكلًا مساحة الثلث من الشعر، كان وجهها كبيرًا أحسب أننى أراه من خلال عدسة محدبة، كانت تبكى بقهر كبير وهى ترفع كفها المجروح، وقد اتقدت عيونها بشررٍ هائل ولمعت بالغضب، وهى تنظر لى وكأننى أنا من طعنها فى يدها، تراجعت بخوف وهى تتقدم نحوى، تبًا! إنها لهائلة الحجم كما لو كانت خزانة ملابس عملاقة، كانت تتقدم نحوى بافتراس بينما أنا أرجع بظهرى إلى حيث غرفتى.

ـ مالك بس يا مدام، هو أنا عملتك حاجة.

قلتها وأنا أتراجع بهلع من غضبتها العاتية القادمة.

ـ آ.. آن.. آنس.. آنسسسسة ممم.. ممن.. من ففف فضلك.

بدت لى هذه اللكنة، وتلك الثأثأة مألوفة لحد كبير... إن الصوت أيضًا أعرفه..

ـ أنا آسف يا آنسة... آسف يا.... هو اسم حضرتك ايه؟

نظرت لى، والدم يغلى فوارًا فى عروقها وقالت:

ـ سس.. سسو.. سسسسسونييا.. سونيا..

.....

توقفت مذهولًا، لقد ذاب عقلى أأنتِ هو هيا، لم أستوعب، غلبنى الهلع من أنثى الخرتيت فتراجعت كاملًا لغرفتى، وأغلقت الباب بينما





عرقى البارد يغمر جسدى من الانفعال، كيف لسونيا أن تكون سونيا، لابد أنه الحشيش اللعين، نعم نعم لابد، وإلا فما هو التحليل المناسب؟!

.....

وضعته أعلى التلفاز فى عوامتي، كم أنتِ مقبضة أيتها القطعة الفنية، وكم هو شرير النفس من صنعك بذلك الإحكام! لقد استوى فوق التلفاز ناشرًا شيئًا من الغموض والانقباض، لقد نظفته جيدًا، واكتشفت أنه متماسك لدرجة عجيبة، فشرائط الجلد تكسو قاعدته القمعية بقوة وكأنه نسيج واحد، أما الرأس فهى دقيقة جدًّا، إنك تكاد ترى مسام الجلد وشعيرات الوجه. اكتشفت أيضًا أن القرن الخارج من مؤخرة الرأس ملتصق تمامًا مع الرأس حتى بديا وكأنهما قطعة واحدة، الحقيقة أن ثمة شيء يخص هذا التمثال يثير رعبى الداخلى، شيء له هيبة وتمكن من النفس ومن العين التى ترمقه، ومع الوقت نسيته، فأنا أصلًا لا أهتم بالتلفاز، وكل اهتمامى منصب على الحاسوب والإنترنت، لذا كان ركن التلفاز دائمًا وأبدًا ركنًا مهملًا لا أقربه إلا لمامًا، عدت لحياتى اليومية أمارس عملى كمصمم جرافيك يصحو من نومه على أذان الظهر، أجواء يناير توحى بحب النوم تحت الأغطية الدافئة، كل التجار ينعتون هذا الشهر بـ (يا نايم) لأنه شهر تكسد فيه التجارة وتقل حركة البيع والشراء، كما أنهم ينعتون فبراير بـ (فأراير) لما يحدثه كساد يناير من تقدم فى حالة الفقر لدى البعض، والحقيقة أننى لم أجرب أن يكون الشهر نائمًا ولا فقيرًا إلا هذه السنة غير العادية!

ـ إسمع كلامى يا تامر دى لقمه طريه وكلها مكسب.

ـ معقول يا جمال؟



- بقولك صفقه لوز اللوز، هتخد الفرخ بـ ٣٢ قرش بس.

- ده تقريبًا نص سعره يا جمال.

- تقدر تقول الراجل بيحرق عشان ياخد سيوله يسافر بيها.

- وهو عاوز كم؟

- عاوز حد يشيل الليله كلها بحوالى ٥٢ ألف جنيه.

اندفعت بتهور قائلًا:

بس أنا كل اللى معايا فى البنك ٤٠ ألف بس.

- ولا يهمك، هاتهم ويحلها ربنا فى الباقى، الشغلانه دى مكسبها مش أقل من سبعين ألف جنيه زياده لو شغلت الورق لحسابك.

هرعت للبنك بحس التاجر الشاطر وسحبت كامل رصيدى، وتوجهت لعمارات العبور بصلاح سالم لأقابل ذلك «العبيط» وأتمم الصفقة كما أوعز لى (جمال)، وهو رجل أربعينى يسكن بحدائق القبة، ولى معه سابقة عمل مربحة، سلمت نقودى للرجل، فأعطانى إيصالًا لأستلم به البضاعة من مخزنه فى منطقة الحرفيين المتخمة لمدينة السلام، استاجرت سيارة نقل كبيرة لأنقل البضاعة والتى هى عبارة عن رسالة ورق للطباعة، إنها صفقة رائعة ستغطى عملى لمدة عام، وبينما أنا غارق فى حساباتى، صُدمت بأن العنوان وهمى، وبأنه لا مخزن ولا بضائع ولا شركة هنالك على الإطلاق، عملية نصب مرتبة نظيفة، هرعت لحيث المكتب لأجده أيضًا وهميًّا، هرعت لـ(جمال) الذى اختفى هو الآخر عن الأنظار. يا خراب بيتى! لقد وقعت فى فخ محكم وراحت فلوسك يا تامر. جو يناير يزيد من ثقل الموضوع



على كاهلى. انزويت فى شقتى أجتر الهزيمة النكراء، لقد لهف الرجل تحويشة العمر وذاب، اهتز عملى تمامًا، وخصوصًا على نفسيتى القابعة فى الحضيض. انقضى يناير وآثار الصدمة لم تذهب بعد، وبحلول شهر فبراير اهتز كيانى أكثر عندما لم أجد سيارتى العزيزة، لقد سُرقت من أسفل العمارة، لالالالالا، إن هذا لكثير جدًّا، سيارتى ورصيدى. عدت للمنزل بعدما أنهيت محضر السرقة فى قسم قصر النيل، وأثناء عودتى شردت قليلًا وأنا أعبر شارع قصر العينى، فصدمتنى سيارة ألقتنى مخلوع الكتف على الرصيف، مستشفى، أربطة ضاغطة، ألم فظيع. عدت لمنزلى مجددًا، ما لها الدنيا تنقلب بهذا الشكل؟! لقد أورثنى الموضوع مرارًا لزجًا يلتصق بسقف حلقى، انزويت أكثر ولم أعد أطيق الخروج، تناقصت مواردى بتسارع هندسى وبت على شفا الجوع، أهملت شكلى وملبسى ولم أعد أقابل أحدًا، بأى وجه أقابلهم وأنا فى هذه الحالة الشنيعة من الحزن والإحباط والفقر المدقع؟! بل إننى سمعت بأن جمال هذا ظهر، فهرعت إليه أسأله، لقد كان وقحًا جدًّا معى، وأخبرنى بأن لا ذنب له، إنه ضحية هو الآخر، لقد هالنى تبجحه ولم أعرف للرد سبيلًا، بل وجدت أنه يؤسس مكتبًا للدعاية ويراود عملائى عن أنفسهم، ازدادت حالتى سوءًا فوق سوء، (خالد) صديقى يلاحقنى بالمساعدات، ولكننى لا أقبلها، كبريائى لا يسمح أبدًا، بات دفع إيجار بيتى جبلًا لا أستطيع زحزحته، خف وزنى وبهت مظهرى بما يليق بمن يعانى الإفلاس والجوع، طفرت عينى بدموع اليأس والقنوط، أشعر أننى على شفا الانتحار، إننى أفتقد سيارتى بشدة، أحلامى صارت كوابيس مضغوطة متراصة فوق أرفف عقلى الذاهل، جرس الباب أصبح مصدر قلق، غرقت فى الخسارة والديون، فقدت معظم عملائى الدائمين الذين هرعوا لـ (جمال). اليوم هو التاسع والعشرون من فبراير، جاء لزيارتى



رغمًا عنى صديقى خالد وهاله حالتى النفسية المتدنية.

ـ إيه يابنى خلاص ناوى تموت ولَّا إيه؟

ـ مش قادر أستوعب كل اللى حصل ده يا خالد أنا هتجنن!

ـ جمال نازل فيك شماته، بيقول للناس إنه هو اللى جابك الأرض.

ـ فعلًا الله يسامحه دمرنى.

ـ طول عمرى مابحبوش وشايفه ابن وسخه.

ـ أعمل إيه يا خالد؟ من ساعة ما رجعت من رحلة الاقصر وأسوان وأنا بشوف بلاوى وبخسر كل يوم حاجه.

كان خالد يجول فى شقتى وهو يكلمنى، نظر للتلفاز واقشعر وجهه.

ـ إيه ده؟

ـ ده تمثال اشتريته من أسوان.

ـ شكله نحس.

نظرت مثله للتمثال، فوجدته متجهمًا عابسًا كما لو كان عدوًّا يتربص بك.

هكذا خرج من عندى صديقى العزيز بعدما استوثق منى أن أعود لعملى وأن أنسى خسارتى الفادحة، وبعدما رتب معى قرضًا أعود به للعمل مرة أخرى، جلست أرتب أفكارى. إن الضربات لموجعة فعلًا، ولكن لماذا، لماذا؟! وفجأة أنارت مصابيح عقلى. معقول! أيكون هذا التمثال هو السبب؟!

.....



ربما كان المس أو الاستحواذ له فعل الفيروس، إنه يصيبك أنت دون الآخرين، وبما أن الفيروس هو الحد الفاصل بين الكائنات الحية والجماد، فهو أيضًا عالى التخصص، إذ إنه يضرب منطقة معينة فى الخلية، يدُكّ حصونها ويستحوذ عليها ويجبرها على الانقسام، وفى المس يحدث ذلك تمامًا، فالشيطان أو الجن يستحوذ عليك بشكل عالى التخصص أيضًا، فيجب أن تكون مهيأً له، فيهم من يضربك فى العقيدة ويحولك لمسخ دميم تتلفظ بالغائط من الكلام فى حضرة العقيدة، ومنهم من يضربك فى علاقاتك؛ فتنزوى على نفسك رافضًا الحب والاهتمام من الآخرين، وفيهم من يضربك فى الجنس فيجعلك تتناكح مع نفسك أو مع من لا وجود لهم وتفسد علاقتك بشريكتك.. وهكذا، وفى حالة عمر كان الوضع يختلف قليلًا.

غادرتنى أسرة عمر عائدين لبيتهم فى المنيا، بينما كنت أعتصر ذهنى، ما الذى أفضى بعمر لتلك الهاوية، وما هذا الضمور العام فى جسده؟! لقد كان مثالًا للهيئة الرياضية الجذابة، فماذا حدث؟ هل للطقوس علاقة؟!

اقتربت من بابه مرة أخرى ووضعت أذنى على الباب، تلك الحبكة السينمائية الموحدة للمتصنتين، صمتًا صمتًا، اصمتوا قليلًا أيها القراء، كفوا عن اللغط والنقد بلا فائدة، لا أستطيع التركيز، ششششششششش، نعم نعم أسمع شيئًا، هه آآآآه، آآآآآآه ممممم آآآآآه مممم، كان هذا هو صوت عمر، أسمعه ينازع كما لو كان يتألم آهات مصحوبة بزفير متتالٍ... آآآآآآآآهه مممم. ما الذى يحدث هنا بالضبط؟! خرجت للحارسين وطلبت فتح باب عمر، فقام واحد منهم وسار معى، صوت عمر بات واضحًا أكثر، أشرت للحارس صامتًا أن افتح فورًا الباب، فابتسم بلزوجة وتحفظ ولم يفعل، نظرت له شزرًا، افتح الباب أيها الخرتيت، فاقترب منى مبتسمًا بنفس



اللزوجة قائلًا بهمس وبلهجته الصعيدية القارحة:

- مينفعش تدخل عليه يا باشا دلوقيت.

- ليه مينفعش؟

- أصله يعنى لا مؤاخذه يعنى.. مينفعش ياباشا قلتلك.

نظرت لوجهه وفهمت ما أرعبنى، هل توجد امرأة مع عمر الآن؟ كيف دخلت ومتى؟ الحقيقة أن الصوت يعبر عن فعل جنسى واضح فعلًا، ولكننى استبعدت الفكرة من الأساس خصوصًا مع حالة عمر الواهية.

- مين اللى معاه جوه؟ انطقوا.

نظر الرجل لى بغباء وقال:

- محدش معاه ياباشا... هو لامؤاخذه مع نفسه.

- ها...؟!

....

- عاوز نص مليون جنيه؟ عشان تقوللى حاجه تاخد نص مليون جنيه؟

- ....

- واضح إنك دجال ونصاب.

وانتفضت الفنانة واقفة نتظر شزرًا للبيب، بانت لها ضآلته وحجمه الطفولى وقدرت أنه مثير للنكتة، كيف لطفل مثلك أن يلعب بى أنا نجمة الملايين يا أحمق؟ وظهر على وجهها احتقار، هل جُن الرجل؟ يطلب منها نصف مليون جنيه لأجل مشورة؟! صكت وجهه بنظرة استهزاء أخيرة

واتجهت لباب الغرفة الواسعة، كانت تشعر كما لو أنها أمام كاميرا السينما المهيبة تؤدى مشهدًا تمثيليًّا. كانت تعشق دور المرأة القوية المثيرة التى يتهافت عليها الرجال، تؤديه بإتقان وتمكن، دومًا يزورها هذا الشعور ويجعلها تتقمص التمثيل فى دنيا الحقيقة، تشعر أنها داخل الكادر باستمرار، لذلك تكون بعض ردود أفعالها مسرحية بما لا يقاس، وقد كانت هدفًا للبرامج الساخرة لفترة طويلة، فى طريقها للباب توقفت رغمًا عنها، ثمة مرآة ضخمة بجانبها معلقة، محددة الإطار بالذهبى العميق، لونها المفضل.. اتجهت تلقائيًّا لها وكأنها دبوس صدئ ومغناطيس، إنها تعشق المرآة، بل تعشق ذاتها معكوسة على السطح اللامع، لثانية وقفت تتأكد من هندامها قبل أن تمسك بمقبض الباب، ولكن هذه الثانية الوحيدة كان لها فعل الصاعقة، بل كانت كفيلة بتوقف سريان الدماء فى جسدها، ثانية واحدة جعلتها تتوقف مبهوتة أمام المرآة، كان وجهها مسنًّا مسنًّا كما لو كانت فى التسعين أو ربما المائة، تجاعيد غائرة، وجفن منتفخ، وشعر أبيض كالح متراجع لمنتصف رأسها، بل إن فمها صار كالأطفال بلا أسنان يسيل منه اللعاب ومحفوف بأخاديد عميقة من حوله، أخرجت منديلها لتمسح اللعاب المنداح على ثيابها الفاخرة، نظرت ليديها فوجدتهما معروقتين بشدة جافتين، تنتشر النقاط الغامقة على سطحها بكثافة، أما جلدها.. جلدها معروق رقيق على وشك الذوبان. باختصار كانت ترى عجوزًا قبيحة تلبس ثيابها، أشاحت عن المرآة ونظرت لنفسها، فلاحظت أن كل ما رأته حقيقى تمامًا، بل إنها شعرت بالعجز يدب فى أطرافها؛ فلم تعد ساقاها قادرة على حملها، دارت حول نفسها ببطء العجائز لتنظر إلى حيث لبيب، لكنها لم تجده... أين ذهب هذا القزم القبيح؟! إننى أضفت ما يزيد عن أربعين عامًا إضافيًّا بزيارة واحدة. أدارت مقبض الباب بصعوبة، تشعر أن عظامها على وشك التهشم، قبل



أن ينفتح الباب نفسه بعنف متجليًا عن وجه مندورة القاسى، ثم شىء مقيت يجعلك غير قادر على التحديق بوجهها، تراجعت الفنانة خطوة، لم يحتمل كاحلها المسن أى حركة مفاجئة، فانكسر محدثًا صوت كرااااش، وانطرحت على ظهرها متهاوية متألمة يضربها كسر ساقها فى مقتل العذاب. خرج صوتها واهنًا مسنًّا:

- .... أنا آسفه... أأأأننا آسسسسفه.

بينما اللعاب يسيل من زاوية فمها اليابس الخالى من الأسنان.

......

- ((الأحوال زفت بقاله ييجى سنتين والله يا أستاذ، مع أن المحل فى وسط البلد زى منتا شايف، كان كله تمام والحال عال، لكن ما أعرف إيه اللى حصل))

كان هذا كلام صاحب الحانوت، بل إنه قال إنه اقتناه منذ عامين مضوا، أيكون هذا هو سبب النحس كما ألمح صديقى؟؟!

.... أخذت أحدِّق فيه بعمق، ما لهذا الوجه يكرهنى بشدة! لقد تجمدت التعابير على رأس التمثال بشكل كاره طارد، ما قصتك أيها التمثال الرخيص؟ أمسكته فى يدى، إن وزنه كبير جدًّا يكاد يصل لخمسة كيلوجرامات على الأقل، القرن الملتوى الخارج من الرأس يزيده شراسة وعنفوانًا، متماسك كأنه ذرة عنصر ثقيل، هززته، فسمعت تدحرجًا ثقيلًا بالداخل، قررت أن أكسره، أنا الآن أكرهه جدًّا، سأكسره كما نفعل مع الفازات الرخيصة حتى نفرغ غضبنا، رفعته بيدى وضربت به البلاط.

متوقعًا صوت الكسر، لكنى وجدته سليمًا كالكمان لم ينقص منه شىء،



غريب أمر تلك المتانة التى يحملها هذا التمثال، رفعته مرة أخرى وقذفت به بقوة أكبر فارتطم بالأرض وقفز إلى حيث شاشة التلفاز ليطيح بها فى انفجار وشرار، فقد كان التلفاز مفتوحًا يذيع نشرة الأخبار وقتها، ثم سمعت فرقعة عالية فى كهرباء الشقة كلها قبل أن يسود الظلام الدامس، أصابنى ذهول عارم، اجتاحتنى رجفة عالية، ليس بسبب الانفجار أو الظلام، لكن بسبب الصيحة، لقد سمعت صيحة عالية تخرج من التمثال كأنها صيحة حرب أو هجوم، ساد هدوء بعدها، بينما أنا واقف وسط الظلام أرتعد، لقد تحطم التلفاز ولا مجال فى شراء واحد بدلًا منه هذه الأيام أبدًا، ولكننى أصررت على التخلص من التمثال بأى طريقة، جريت للمطبخ وأخرجت مصباح الكيروسين، أشعلته فبدد ظلمة البيت، الفوضى عارمة وشظايا الزجاج فى كل مكان، أمسكت بالمصباح وتجولت حول مسرح الانفجار. أين أنت أيها الشيطان؟ لقد صدق خالد عندما قال لى إنك نحس، سأتخلص منك نهائيًا... آه، إنك هنا. وجدته تحت المكتب، نزلت بحرص على ركبتىَّ ومددت يدى الحرة لأنزعه من مخبئه، أخيرًا أمسكته، رفعته فجأة، شعرت بتنميل قاسٍ يتملك ذراعى اليسرى حيث أحمل المصباح الكيروسينى. أوف ما هذا! إننى لا أشعر بذراعى، استقمت واقفًا وأنا ما زلت ممسكًا بالتمثال الشؤم، وقبل أن أتحرك انزلق المصباح من يدى ليهوى أرضًا، لالالالالا كيروسين ونار وظلام! انتشرت النيران فى دائرة قطرها متر، نار رخوة لم تجد ما تأكله، حيث كنت على البلاط العاري، فقد طالت الستارة فاشتعلت، كل هذا وأنا أراقب فى الظلام انتشار الجذوة، وشىء ما يمنعنى من المقاومة. اشتعلت الستارة بالكامل، شكلها مهيب وسط الظلام، أرى بعينى النار تتواصل مع مكتبى العزيز. ما هذا الذى أرى؟! إننى أنظر لبيتى يحترق وتمتد فيه النيران بينما أنا واقف أتأمل فى الظلام،



ثمة أشباح ترقص حولى؛ وكأننى طوطم من لحم ودم.

.....

أخذت مندورة تنظر للفنانة بشيء من التعالى وهى تراها تتأوه بعجز وهرم وخفوت، اقتربت منها ومدت يدها لتستعدلها، وأخرجت مرآة صغيرة من صدرها ووجهتها لوجه الفنانة، فنظرت الفنانة تلقائيًّا له وبكت بحرقة، كان منظرها مثالًا للبؤس وكأن عليها أن ترحل الآن قبل أن يكتب المخرج كلمة النهاية.

ـ محدش يقدر يشتم سيدنا لبيب يا فاجره انتى.

كان هذا صوت مندورة الحازم.

ـ آسفه آسفه أنا آسفه، أرجوكى يا ست مندوره أنا آسفه، خليه يعفى عنى ااااسفه، أنا آسفه، آسفه.

خرج صوتها مرتعشًا جديرًا بالعجائز فى نهايات الشيخوخة.

قامت عنها مندورة وتوجهت بمشيتها المتصلبة للباب الآخر حيث خرج لبيب، بينما تتابعها الفنانة ببصرها وكلها أمل أن يسامحها لبيب، أمسكت بالمرآة ونظرت، إنها عجوز طاعنة واهنة لا تصلح إلا لشفقة الناس. أين سنواتى الستون التى تمردت عليها؟ أنا أذوب كشمعة فى فرن، عادت مندورة وقالت بقسوتها الصحراوية:

ـ سيدنا مش هيسامحك إلا بمليون.

ـ موافقه أرجوكى موافقه والله العظيم.. موا....

ـ إسكتى.



التزمت شفتيها اليابستين الصمت رغمًا عنها، إنها لم ترَ على مدار حياتها موقفًا بهذا الإذلال من قبل، وهى نجمة الشباك والملكة على عرش قلوب الملايين، كانت منطرحة أرضًا ككلب داسته سيارة، تستجدى رحمة ممن لا قلب لهم من الأساس، ألا تعرفين لبيب يا عاشقة الشهرة؟ إنه قادر على من يخدمه من الشياطين، أقامتها مندورة ورفعتها على الكرسى الذى كانت تجلس عليه أولًا، إن الألم يمزق كاحلها الذى التوى أو تكسر لا تعرف، تشعر بهوان وضعف شديدين، بل إن ركبتيها وكفيها لا ينفكان يرتعشان بإصرار ليثبتا لها مدى العجز، فدخل لبيب مرة أخرى بقامته المراهقة، ووجهه المثلث وجلس إلى مقعده، فهزت الفنانة التى صارت خرقة بالية رأسها بالموافقة الضمنية على كل ما سيقوله الساحر العاتى.

إنها فقط لا تريد سوى العودة لما كانت عليه، مجرد امرأة فى الستين لا أكثر ولا أقل، بينما الساحر يتلو عليها ما ستفعله بالضبط حتى تعود لها نجوميتها وأضواؤها وكأن شيئًا لم يحدث، شيئًا فشيئًا تعود ملامحها لسابق عهدها، اليدان تعودان لشكلهما الطبيعى والوجه كذلك، شعرت بأنها تُشحن كالهاتف المحمول، وبأن الدماء عادت تسرى فى شرايينها، فقط كاحلها يؤلمها جدًا، أخرجت من حقيبتها دفتر الشيكات ووقعت على أربعة، كل واحد بربع مليون جنيه، ناولتها للبيب، فابتسم لأول مرة، أخرج من جيبه شيئًا مبرومًا، بدا وكأنه حلوى أطفال، مع فارق أنه أقل سمكًا، جاءت مندورة بكوب ماء ووضعته بتوءدة أمامها، فأخذه لبيب وقرأ عليه بسرعة وحزم بعضًا من آيات شياطينة، ثم وضع ذلك الشىء المبروم فى الماء، ولكن لم يتركه من يده، فقط كان يغمس طرف ذلك القضيب المبروم فى الماء والذى بدأ فى الغليان والفوران بعد ثانيتين، فأخرجه من الكوب ونظر لها آمرًا إياها بالشرب، ترددت الفنانة وبان القلق على محياها،



ولكن مندورة والتى دخلت مجددًا واضعة مجمرة أنيقة على المنضدة ناولتها الكوب، ومن ثم جرعت الفنانة الكوب عن آخره، وشاهدت لبيب وهو يضع ما يشبه الختم على نار المجمرة، لم تلاحظ أى دخان، فقط وجه لبيب التيسى ينظر لها بعمق وتأمل، ساعدتها مندورة على القيام من مكانها، وقبل أن تغادر سمعت لبيب يقول:

ـ أدامك ٣ سنين هتشتغلى فيهم تليفزيون وتعملى مسلسلات ويرجع إسمك يرن من تانى، لكن هما ٣ سنين.... بس.

ثم أمسك بمقبض الختم ونفخ فيه، لم تتوقع أبدًا أنه سيختمها به، ولكنه فعل بكل بساطة، لقد رفعه وغرسه فى باطن كوعها فى وسط الساعد بالضبط، فصرخت من الاحتراق وهى تشاهد أبخرة الالتهاب تتصاعد من جلدها، ولكن قبل أن تتم صرختها رفع لبيب يده بالختم عنها ووجدت مندورة تقتادها للخارج، وقبل أن تصل للباب حانت منها التفاتة للمرآة الكبيرة جوار الباب، لقد عادت من جديد وبدت أصغر سنًّا نوعًا ما، ربما الشحوب والألم هو ما يمنعها من رؤية جمالها العائد من قبره، فبدت كأنها فى نهاية الأربعينيات.

.....

نعم، لقد نجح لبيب أيما نجاح فى الأوساط السياسية والفنية والاقتصادية، كان مستشارًا للكثير، يجنى الأموال التى أصبحت عنده بلا أى قيمة، الملايين يجنيها من عمله كساحر يستعين بجيش من الجن والشياطين، كل بوظيفته واسمه، كوَّن وحده مملكة خاصة به يعمل فيها المئات، كان يغذيهم ويستعبدهم، وينتقل من مكان إلى مكان بلا أى قيود، وإن كان مستقره الحقيقى فى شارع عائشة التيمورية بجاردن سيتى، اتخذ من ذلك القصر





والذى أنعم به عليه أحد أقطاب السياسة فى ذلك الحين ليضمن فقط أن يجده وقتما يريد، كانت أهميته تتبلور يومًا عن يوم ويقوم بما يشبه المعجزات بلا أدنى مبالغة، بل عُرف عنه أنه سبب كبير فى استقرار الحكم فى البلاد لهذه الفترة الكبيرة فيما بعد بتأثير سحره الكبير، سمعت من رجل مهيب أنه كان يأتى بأى شىء يريده وهو جالس إلى مكانه، بل كان يستطيع أن يذهب إلى أى مكان يريده فقط لو أراد ذلك، لم يستغنِ عن مندورة والتى كانت بينهما علاقة معقدة، فهى صديقة الراحلة أمه، وهى من تحبه وترعاه وتستقى أيضًا من علمه المحرم، كانت مستودع أسراره ومنظمة أعماله، وعن طريقه جنت هى الأخرى أرباحًا بلا حساب، واشترت الأراضى والعقارات لها ولأبنائها وأحفادها، ولكن هذا لم يجعل عزيمتها تخبو تجاه السحر وأسراره، تلقت اليوم مكالمة رجاء واستعطاف من رجل يعمل فى الديوان الرئاسى، يخبرها فيها بحكاية (عمر)، ويرجوها أن تحدد موعدًا للزيارة هناك فى المنيا حيث يقبع الشاب حبيس غرفته وبوله وبرازه، سألته عن اسم الشاب واسم أمه كإجراء روتينى وتاريخ ميلاده فأخبرها، عرضت المسألة على لبيب الذى قبل بنوعٍ من الملل، وقرر أن يذهب يوم ١٤ من الشهر العربى، أى بعد ثلاثة أيام، فعادت وأخبرت الرجل المهم والذى بدوره أخبر الهانم بموعد قدومه لأرض المنيا.

.....

استيقظت من نومى حائرًا وأنا أتلقى دفقة من الهواء البارد عبر شرفتى المفتوحة على البحر، هل ما رأيته كان حقيقة؟، أم أن الأمر لا يعدو هلاوس عقلى المخلوطة بدخان وجه الحمار؟! نظرت لباب غرفتى المغلق والذى يفصلنى عن «الهول» المقيم فى هذا الفندق، لن أنسى شكل تلك المرأة التى



تقطع الخس بسكينها. «تشومب تشومب تشومب». قمت من فراشى وتظاهرت بأننى طبيعى، بل إننى قررت المغادرة فى ضوء النهار، فأعصابى لن تعد تتحمل تجربة ثانية فى مطبخ أو حمام ذلك الفندق، شرعت فى ارتداء ملابسى على عجل، ولملمت حقيبتى آملًا ألا أكون نسيت شيئًا كعادتي، فتحت الباب المفضى لصالة البنسيون، وقبل أن أخطو خطوة واحدة صعقت تمامًا، وأنا ارى تلك المرأة العملاقة تفترش الأرض نائمة وقد سدت علي المخرج، كانت تغط فى نومها كما لو كانت ثورًا مذبوحًا على قارعة الطريق، تضع يدها تحت رأسها وتنام بعرض باب الغرفة فى مشهد لن أنساه ما حييت.

.....

كان الحارس يرمقنى باستمتاع بعدما صرح لى بالحقيقة المفزعة، إن عمر يمارس العادة الس.. باستمرار مخيف، فهو لا ينفك ينتهى إلا ليبدأ من جديد، وكانت تلك الأدوية هى التى تجبره على النوم حتى يكف ولو مؤقتًا عن فعل شديد ومؤذٍ له. إن الأطباء لم يجزموا بضرر العادة السرية أبدًا، منهم من قال إنها تفريغ، ومنهم من قال إنها مستهلكة للحيوية أو أبعد قليلًا، لكن مع عمر كان الأمر يختلف، لقد صُعقت من الحقيقة الأغرب من الخيال، ولكن الذى يفعله عمر لهو جنون مطبق. إنه هوس عارم سيودى بحياته، من الواضح أن الحارسين يعرفان هذه التفصيلة العارية، بل ومن الواضح أيضًا أن أسرته قد أصابها الإحراج من إعلان تلك الحقيقة المؤلمة، آه يا صديقى العزيز.. ماذا فعلت بنفسك لتصل لتك الحال المزرية؟! أى شيطان قاسٍ يجبرك على فعل هذا بنفسك؟! ارتبكت أمام الحارس الذى كان ينظر لى بتمعن، وتلذذ واضح، واستشعرت إحراجًا ما، كأننى أنا من



يفعلها، ثم تماسكت أمامه مرة أخرى وتركته لغرفتى، أعيد ترتيب أفكارى، لو كان الموضوع بهذا الشكل؛ إذن فالجن أو الشيطان الحاضر هو (أنثى) أنثى من بنات الشياطين، إناث الشياطين شبقات بطبعهن، وينقضضن على الممسوس ليعتصرنه عصرًا، إنهن شبقات لدرجة التفرغ إلى أن تنهى الواحدة منهن مستقبله الجنسى تمامًا وبلا رجعة، من الواضح أنه قام بتحضيرهن قبلًا فى الحمام؛ لإن إناث الجن لا يأخذن العهد إلا فى الحمام، ولا بد من معاشرة مبدئية حتى يتفعل العهد، أرى بعين خيالى عمر وهو يقوم باستحضار أنثى الشياطين فى مكان قذر، تُرى هل سر هزال عمر الشديد له علاقة بهذا المسّ اللعين؟ بالتأكيد له علاقة، إنه يمارس رياضة عنيفة حارقة لكل طاقته طوال الوقت بلا توقف، إنه فى نهاية مرحلة الامتصاص، يجب أولًا أن يتوقف تمامًا، سيموت الغبى من.... لالا لن أسمح، حسب معلوماتى أن إناث الجن أخبث وأشد شراسة من ذكورها، عرفت منهن واحدة فى شقة الهرم، أتذكر أن الشيخ رأفت قال اسمها، (نائلة) نعم كان هذا اسمها (نائلة)، ما زلت أذكر رائحتها المائلة للعطن والبخور وهى تتقلب فوقى أثناء نومى، أما فى حالة عمر، فربما أن الأمر... تحركت مرة أخرى للباب أتحسس أى صوت، ما زال عمر يكوى رجولته بالاحتكاك الممض، لا بد أنهم حضروا الآن، لو حضرت العشيقة الآن، تُرى هل تشعر بتلصصى أم أنها مشغولة فى اعتصار صديقى حتى الثمالة؟ نزلت على ركبتىَّ علنى أستطلع شيئًا من ثقب المفتاح، أسمع عمر يتأوه بخفوت وضعف شديد، ثم سمعت صوتًا ممزوجًا مع صوت عمر، صوتًا مفترسًا يلهب حماسه بكلام جنسى فاحش، تتعالى تأوهات صديقى وأنا فى حالة غريبة من الترقب والشفقة، وفيما كنت أتابع مأساة صديقى، إذ أشعر بمن يحط على كتفى، إنه (عتيا)، لقد جئت فى الوقت المناسب، شعرت به يطوقنى بساقيه النحيلتين، أشعر



به يسترق السمع ويقرب أذنه من خشب الباب، إنه يسمع الآن، إنه يهذى بكلمات لا أفهم لها معنى، أشعر به مثارًا. تبًّا لك يا عتيا! هزته ومددت يدى لما وراء عنقى لأضايقه، ثم همست بحزم:

ـ أخبرنى يا عتيا القديم من بالداخل؟

أسمع جمجمة ممزوجة بالعناد، فكررت سؤالى بحزم أكبر:

ـ من بالداخل يا قديم؟ أخبرنى بحق أسلافك وبحق ابادياج ابادياج.

أعرف أنكم مندهشون، لقد قمت بالاطلاع على بعض كتب العم (لمعى)، خصوصًا كتاب (إغاثة المظلوم فى علم فى كشف أسرار العلوم) وعرفت أن ابادياج هو ملك ملوك القرناء، وأن شعب القرناء يبجله، وأصلًا (عتيا) يتعامل مع القرناء وليس مع البشر.

اسمه هسيس، صوته يهمس فى أذنى ويفح:

ـ ل ل ل ل ل لبيييييييب لبببببيب لبيب.

ـ لبيب؟

من هو هذا اللبيب؟؟؟؟؟

.....

الوقت قارب على العاشرة مساءً ولم أرَ عمر بعد، إن بابه مغلق على تعاسته المذهلة وممارسته اللا معقولة فى نفسه، أشعر بألم ووحدة غير عادية لماذا لم يأتِ أهله حتى هذه الساعة؟ سمعت جلبة صادرة من أسفل، فقمت من مجلسى واقتربت من نافذة غرفتى، لقد توقفت سيارتان ونزل منها الأم والأخت وزوجها الضابط، أما السيارة الثانية فلم ينزل منها أحد، تقدم





(مختار) الضابط منها وفتح الباب لتنزل منها سيدة مسنة متصلبة تلبس السواد من المقعد الأمامى، ثم خرج من المقعد الخلفى فيما يبدو شاب أو مراهق يلبس الأسود تمامًا، طويل الشعر، قصير القامة نوعًا، كنت أتابعهم من وراء خصاص الشيش كالجواسيس، ولكنى لمحت الشاب ينظر حيث أقف ويطيل النظر، أشعر بدبيب وجمجة غير مريحة من (عتيا) ثم انتفضت تمامًا وقد صرخ (عتيا) بحشرجة وتوسل وكأنه قد تم القبض عليه، أشعر به مقيدًا تمامًا مربوطًا بالسلاسل وأنا معه ككتلة واحدة، ثم رأيت الجميع يتحركون مشيًا وراء الرجل العجيب، إنه يقودهم بلا شك، إنهم صاعدون لهاهنا، ماذا جرى لى؟ إننى أشعر بأننى مكبل تمامًا، كان ساعداى مضمومين الى جانبى وكأن شخصًا ما لفنى بشريط لاصق، حتى حركتى لم تكن حرة تمامًا، بل أشعر أننى محبط داخل تابوت ضيق، ألهذا الحد أنت خطر يا... يا.. يا لبيب؟! شيء ما يخبرنى أننى بصدد لقاء شيطان.

.....

مابال هذه الجاموسة ترقد قاطعة باب الخروج، كانت تعطيني ظهرها الشبيه بكابود السيارة، تلبس ثوبا مزركشا بالورود الصغير يغطى جثتها الهائلة الحجم، هل من الطبيعى أن تنامى هكذا ككلاب الحراسة على أبواب غرف النزلاء أيتها الهضبة؟ هل من السهل إيقاظك وأنت من أفزعنى لدرجة الموت ليلة أمس، إننى لن أنسى هياجك حين جرحت نفسك، مازال صوت التقطيع عالقًا فى وجدانى، تشومب تشومب تشومب، عدت لداخل الغرفة لا أعرف للخروج سبيلا، هرعت للشرفة المطلة على البحر، فتحت الشرفة، إن الجو ينذر بويل جديد والنوة تقدم لعنفوانها، الساعة قاربت على الرابعة، ألهذا الحد كنت مستغرقا فى النوم، نظرت للشارع من

المفروض أننى فى الدور الثانى أو الثالث على أعلى تقدير ولكن الشارع بعيد جدا كما لو كنت فى ناطحة سحاب وماذا جرى لك يا اسكندرية؟ لماذا تتجهمين فى وجهى هكذا؟ جلست أحاول جمع شتات فكرى وأنظر بين الحين والآخر إلى الباب ثم أشعلت لفافة محشوة مرة أخرى، أوووووف فمثانتى تحرقنى أريد التبول حالا، حالا حالا، إن الجو البارد يمارس حقه الأزلى فى تعظيم رغبتى فى التبول، لا لن أفتح الباب فقد تفترسنى تلك الجاموسة ذات الحروق، أوووف لابد أن.. حالا، درت فى مكانى فلم أجد ما أفرغ فيه مثانتى، توجهت للشرفة مرة أخرى، إن سور الشرفة ملائم ولكن أخشى من أن يرانى الناس، أو أحد من جيران الفندق، ثم بروووووم، سمعت صوت الرعد ايذانًا بأن تهطل الأمطار الساحلية العفية، لا بأس أبدًا، تظارهرت بأننى أقف لأستمتع بالمطر ثم حللت سروالى و..... ياااااه ياله من شعور مريييح أخيرا أمارس التفريغ المريح، كانت شرفتى تجاور شرفات الغرف المجاورة لى، وجدتها تلك الغادة التى استقبلتنى تقف وتنظر لى شزرا، لقد هالنى الإحراج فهممت بأن ألملم نفسى، لقد رأتنى أتبول على الشارع والناس من شرفة فندقها..... لكن إن كانت هذه هى سونيا فمن التى تقبع على باب حجرتى ككومة الروث، إن عقلى متخبط لدرجة لا أعلم مداها، جريت للباب وفتحته، لم أجد أحدًا، اين ذهبت سجانتى العملاقة، فى أى كهف من شقوق الجحيم ترقد الآن، بل وجدت تلك الغادة تخرج من الغرفة المجاورة لى وتنظر لى بامتعاض وقرف، حاولت أن أشرح لها ولكنها تركتنى وذهبت إلى عملها، ثمة بعض النزلاء فى ردهة الفندق يشربون الشاي فى صمت مريب، وجدتها تدلف للمطبخ، اقتربت منه عساي أشرح لها ما حدث، اقتربت بتوءدة وتناهى إلى سمعى صوت أعرفه جيدا، إنه تشومب تشومب تشومب، إنها تمارس

التقطيع لأوراق الخس، اقتربت من المطبخ فوجدت... فوجدت.. فوجدت تلك الضخمة تعطينى ظهرها كما الأمس، ثم جرحت نفسها مرة أخرى وثارت أعصابها فخرجت ووجدتنى أقف فى طريقها، اشتعلت غضبا وهى تشير إلى سحاب بنطالى المفتوح، ثمة دماء تنزف من أصابعها، مع ذات النظرة المجنونة، تراجعت كما السابق إلى غرفتى، تراجعت بظهرى إلى أن وصلت للباب، دلفت وأغلقته خلفى، عدت أدراجى أحتمى بجدران غرفتى من غضبتها العارمة، أين سونيا الرقيقة أين أين؟... مازلت على هذا الحال إلى أن غفوت وأنا مكانى قابعًا على الفراش، غلبنى النعاس لا أدرى كم استغرقت فى النعاس، لكننى صحوت مرة أخرى والليل قد انتصف تقريبا، الجوع يمزقنى، فأنا لم أتناول الطعام منذ ساعات طويلة وأنا فى محبسى الجهنمى، خرجت للشرفة أرمق الناس والمطر والبحر الهائج وكأننى عالق بذات النقطة الزمنية، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ لمحت شخصا يتحرك بزاوية عينى فى الشرفة الأخرى، إنها سونيا الجميلة، تنظر للبحر وتشير لنقطة بعيدة، من الواضح أنها لا ترانى لأنها مشغولة تشير لأحد ما، دققت النظر فى اتجاه إشارتها، الليل والمطر يمنعان الرؤية الجلية، ولكننى أرمق من بعيد رجلًا عجوزًا طاعنًا يلتحف ببطانية لما فوق رأسه يشير لها هو الآخر، بدا وكأنه خارج من عمق البحر، أراه يجتاز الشارع بهدوء ولا يبالى بالسيارات، بل كان ينظر لها هي، السيارات تعدو مسرعة ولا محالة من الاصطدام ولكنه أبدا لا يبالى، أين رأيت ذلك الرجل أين أين أين؟ إن عقلى خاو تماما من أى منطق، إننى جائع جدا أريد أن أتناول أى شيء حتى لو كومة من الخس....

.....



الحمد لله رب العالمين، لقد أطفئت النيران فى الوقت المناسب وقبل أن تلتهم البيت بما فيه، هذا التمثال لعنة حقيقية لمن يملكه، ماذا أفعل؟ هل أتخلص منه بالرمى فى أى مكان؟ قد يكون العلاج من جنس التمثال نفسه وقد تستمر اللعنة، كنت أضعه على المنضدة، وبت أراه يرمقنى بالفعل، وفى تلك الليلة بالذات شاهدت طيفًا يشبه التمثال، لم يرعبنى وجوده قدر ما أرعبنى ذلك القرن الطويل الخارج من مؤخرة رأسه، وجدته واقفًا أمام فراشى ينظر إلىَّ فى غل، لا بد أن يعدنى بسوء السبيل، لا بد أنه يدبر لتدميرى نهائيًّا، قمت على الهاتف المحمول يرن بإلحاح، من عساه يكلمنى الآن؟ لا بد أنه خالد، لا إنه الحقير ابن الكلاب (جمال) والذى بدأت من عنده كل مصائبى.

- إيه يا تمور.. مساء الفل أنا عازمك على الافتتاح النهارده.

تمالكت نفسى قائلًا:

- مبروك يا (جمال).

فبادرنى قائلًا:

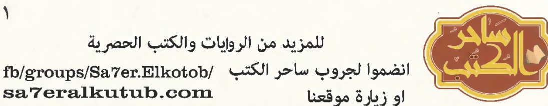
- هستناك النهارده، وعلى فكره كل صحابنا موجودين، الحاج فلان والأستاذ علان و... و...

الحقير.. إنه يتعمد إذلالى وينبئنى بوجود معظم عملائى فى حفل افتتاحه!

- إوعى متجيش لحسن الناس تفتكر إنك زعلان من نجاحى.

- خاااااالص يا جمال، وهزعل من إيه دى أرزاق يا حبيبى.

فاستمر بحرقى حيًّا وهو يقول:



ـ بالظبط أرزاق وتفتيح مخ، إوعى تيجى بإيدك فاضية، أنا عارف ان كلك ذوق.

أغلقت الخط بغل وقد بلغ منى القهر مبلغًا خطيرًا، إننى الآن على استعداد لارتكاب جريمة، إننى واقع تحت ضغط عصبى لا نهاية له، وقفت أمام مرآتى أمشط شعرى وأهندم ملبسى، كل جملة قالها لى فيها رسالة عداوة، وهو من تسبب فى إفلاسى الحقير، قال لى خالد إنه يفاخر بذللتى، وانهيارى على يديه، ويعتبر نفسه شاطرًا وبارعًا فى أنه تسبب لى فى كل هذا الخراب، أي نوع من البشر أنت، كانت كل جملة قالها لي تدوي فى أعماق مخي (متجيش بإيدك فاضية)، هذا الوغد يطلب أيضًا هدية! اصطدمت عيناى بتمثال الشؤم القابع على مائدتى ينظر لى بكراهية وتحدٍّ. نعمممممم، إنت الهدية بلا شك أيها الشؤم، لتشرب يا جمال من نفس البئر!

غادرت البيت وتوجهت لمحل الهدايا بشارع شريف، لم أكن أملك إلا بضعة جنيهات قليلة، اثنا عشر جنيهًا على وجه التحديد، دخلت للبائع وأخرجت التمثال الذى نظر له بتمعن، ماذا تريد؟ أريد لفة هدية. بكم؟ بخمسة عشر. لا يوجد معى إلا عشرة جنيهات فقط، أرجوك اعتبر الخمسة الباقية دينًا علىَّ سأرده، وكل ما أريده هو أن تغلف تلك الهدية بشكل فاخر. وافق على مضض، وأخرج لفافة من الخيش وشرع يغلف التمثال بحرفية، فبدا كهدية قيمة فعلًا، توجهت لمحطة مترو السادات ونزلت متوجهًا لحدائق القبة من أجل الافتتاح غير المبارك إن شاء الله.

ـ خالد الحقنى يا خالد؟

ـ انت فين ياض مختفى بقالك كام يوم؟

ـ يا خالد بقولك الحقنى أنا فى اسكندرية

ـ كده تسافر من غير ما تقوللى يا طوط؟

ـ بقولك أنا فى ورطة غريبة يا خالد أنا محبوس

ـ محبوس فين فى القسم!

ـ لا أنا محبوس عند سونيا.

ـ سونيا هههههههه.

ـ صدقنى محبوس فى فندق، وفيه واحده مش عارف هيا إنس ولا جن حبسانى.

ـ واغتصبتك ولا لسة؟

ـ صدقنى يا خالد أنا محبوس فى فندق مهجور عند سونيا.

ـ هههههه وسونيا دي حابساك فى إيه؟

ـ انت هتجننّى بقوللك محبوس محبووووس فى الأوضة.

ـ أوضة النوم طبعا، ههههه طيب سونيا دى مزة ولا ضاربها السلك؟

توجد أوقات بعينها لا تستطيع توصيل المعلومة صحيحة أبدا، خالد صديقى يتصور أننى أقوم بتدبير مقلب أو شرك أداعبه به كما هى عادتى دوما، وخصوصا أن الإسكندرية مرتبطة دوما بالمتعة والسهر والانشراح، فلم يدرِ بخلده أبدًا بأننى فى موقف دقيق، لابد أن أغير الاستراتيجية؛ حتى يتفاعل معي بشكل لائق.

ـ سونيا دى ولا نبيلة عبيد يا خالودة؟

ـ قول كده بقى، طب مش كنت تاخدنى معاك يا رخم.

ـ منا بتصل بيك أهو، يالا أنا مستنيك عشان هيا عاوزة تشوفك.

اشتعل حماس صديقى أخيرًا؛ فقال لى:

ـ فين مكانك ياض؟

ـ فى محطة الرمل اقف على الكورنيش ادام محل (...)، وأنا هشوفك من بلكونة الفندق.

ـ طب هجيلك بكرة.

ـ لالالالا تعالى دلوقتى عشان فيه مفاجأة حلوة أوى بمناسبة رأس السنة.

ـ وأنت بيجى منك مفاجآت يا بتاع العفاريت أنت.

ـ هتعجبك مووت وسونيا دى عسل عسل.

ـ بس أنا مبحبش الأجانب يا طوط لحمهم زفر ومش متطّاهرين.

ـ دى مصرية جدا بس تعالى شوف بنفسك يالا بقى.

ـ تلات ساعات، وأبقى أدامك أنا هاخد السوبر جيت ونرجع سوا بالعربية.

وبالفعل كان خالد يقف عند كورنيش محطة الرمل بعد حوالى أربع ساعات من الانتظار الممض، نهشنى فيها الجوع والخوف والترقب، أخيرا رأيته، أخيرا شعرت ببعض الاطمئنان، كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً عندما وجدته واقفًا يرتجف من البرد، أعرف أنه لا يفضل الشتاء عكسى أنا،



حاولت أن انادى عليه لكنه لم يلتفت لى أبدًا، وفى فورة محاولاتى وجدت سونيا الجميلة تنظر لى من الشرفة المجاورة ثم تنظر لصديقى، تراجعت لغرفتى ولكن قد فات الأوان، ومن طرف خفى وجدتها تشير للرجل ذى البطانية بأن ياخذ صديقى إلى حيث أنا، مرت دقائق سمعت بعدها صديقى يقف فى مكان الاستقبال، خرجت مسرعًا من الغرفة؛ لأجد سونيا آية فى الجمال والإغراء تحادث صديقى الذى سأل عنى فوجدنى أهرع خارجًا من الغرفة وحاملًا حقيبتى ومستعدًا للنزول معه.

نظرت لى طويلًا بينما خالد تجاهل عزمى على الهروب، لقد كان مفتتنا بها لآخر درجات الافتتان.

- على فين يا ابنى أنا لسه واصل.

كانت سونيا تراقب الموقف بينما يطل نهداها من فستان مكشوف الصدر مطعم بالفرو الأسود كنهرين من حليب طازج فبدت كممثلات الإغراء العالميين، شاهدتها وقد أرجعت البطاقة الشخصية له وعلى وجهها ابتسامة عذبة.

- أنا عاوز أنزل مصر دلوقتى يا خالد.

- انت اتجننت يابنى، جايبنى على ملا وشى وتقولى لازم أسافر.

ثم نظر لها يكاد أن يمضغ جمالها بين أسنانه قائلا:

- ده احنا هنقضى أحلى أطعم رأس سنه، مش كده ولا إيه يا مدام سونيا.

- آآآن آنسة لو سمحت.

نظر لى مندهشًا، ثم هرش رأسه فى إحراج وهو يستدرك:



ـ لامؤاخذة يا مذماذيل العيب على صاحبى اللى موضحش الوضع بالظبط.

فقادتنا سونيا لغرفتى مجددًا، وقد لاحظت أنها تتجنب النظر إلي أنا.

وبمجرد ما أغلقت باب الغرفة صار أربد وجهى صارخًا فى وجه صديقى:

ـ أنت يا بغل، مش بقوللك أنا عاوز أسافر.

لم يفهم صديقى مغزى كلامى، وأظن أنه لن يفهم أبدًا.

ـ مالك ياطوط مش على بعضك، ده البت زى لهطة الأيسكريم ده انت غريب يا جدع، طب سيبنى أعمل بساعتين السفر.

ـ انت مش فاهم حاجة خالص.

ـ طب نورنى يا عبقرى، انت جايبنى من مصر عشان أسوقلك العربية مثلا؟

ـ طيب انا جعان جدا يا خالد يالا ننزل نتعشى.

ـ طب استنى لما نلفلنا سيجارتين عشان نعرف نظبط الكلام وناكل بنفس.

جلست على فراشى أراقب صديقى يمارس نشاطه العتيد وأنا فى حيرة من أمرى، كل شيء يبدو طبيعيًا جدًا لابد أننى من يهلوس، إن جمال سونيا الآخاذ يخلب لب أى عاقل، أشعل خالد سيجارته وخرج للشرفة يرمق جمال الإسكندرية.

ـ الدخنه دى جايبها منين؟



ـ من وش الحمار؟

علت خالد نظرة اشمئزاز عميقة.

ـ هى الولية دى لسة عايشة الله يخرب بيتها أوعى تكون عملتها معاك ياض؟ كفاية المرة اللى فاتت سحبت من تحتها بالعافية.

نفثت دخان سيجارتى أنا الآخر، وعلت ضحكتى بشدة وأنا أرد:

ـ ياريت مكانش ده بقى حالى يابن العبيطة، أنا عندى نورهان دى بميت سونيا.

لم يفهمنى صديقى لقد كان عقله شاردًا فى سونيا.

ـ اسفخص على ذوقك الحميري، بقوللك هيا سونيا دى آنسة بجد ولا تايوانى؟

أجبته وقد لعب الحشيش باستهتار فى ثنايا عقل:ى

ـ لا مش تايوانى دى عفاريتى من اللى قلبك يحبه.

ضحك صديقى فى جزل وهممنا بالنزول، وما إن فتحنا باب غرفتنا حتى وجدنا سونيا العملاقة تنظر لنا وهى تحمل صينية عليها بعض الخس، كانت مظهرها مريعا بالحرق الذى يحتل نصف وجهها وضخامتها المتورمة وقدمها العملاقة الحافية، نظر لها صديقى بذهول عارم وتراجع خطوتين للخلف بامتعاض من هول منظرها العجيب بل أغلق الباب بعنف فى وجهها، بينما ضربتنى موجة من القهقهة العالية وأنا أقول له:

ـ مش بقوللك عفاريتى، وأنت مش مصدقنى يا لولو.

......



أسمع فجأة من وراء الباب عُمر يتأوه بعنف شديد كمن تنتزع أحشاؤه، لا ليس كأم تظنون أنه بالفعل يتألم بشكل عنيف ويدق الباب من الجهة الأخرى، هرع الحارس فوجدنى أقف أمام الباب ولا أملك من الأمر فى شيء، أخرج مفاتيحه وفتح الباب فاندفع عمر بحركة مباغته والتصق بى يهتز فى عنف كطفل مذعور، بل وجذبنى للداخل، كانت ملامح الذعر والألم تلوح من وجهه الهزيل، ماذا حل بك يا أحمق؟ شعرت أن قيودى الوهمية تسقط عنى فأحطّه بذراعى وسحبته لفراشه، تركنا الحارس حينما سمع بصوت صعود أسياده على السلم الداخلى للقصر، فجأة انغلق الباب على كلينا بعنف عجيب، نظرت لعمر فوجدته ينظر من تحت إبطى للباب بخوف وجذع لم أجد له من يبرره، هناك شيء ما أغلق الباب بعنف فى وجه القادمين، تشبث بى فاحتضنته تلقائيا أربت على ظهره العارى، أسمع خطوات واثقة تدلف إلى حيث نحن قابعين فى غرفته، أشعر الآن بأن شخصا ما يقف خلف ذلك الباب الذى أغلق من تلقاء ذاته، شعرت بعمر يتوتر يتوتر يتوتر، إنه بصدد حالة من الهياج العنيف، أشعر بمقدماتها إذ أشعر بأن جسده يتصلب كما القط فى مواجهة كلب مسعور، مالك يا صديقى، نظرت لوجهه لأجد أعتى وأشد آيات الذعر تكسو ملامحه الهزيلة وتزيده بؤسًا وشقاءً، مالك يا أحمق، نظرت للباب المغلق فوجدت أن ثمة حافرين ضئيلين للماعز يظهران من تحت عقب الباب، انتفضت شعيراتى الدموية أنا الآخر، ماهذا، أيكون قد حضر شيطان بالفعل، إن عمر آخذ منحنى عميق فى الهياج والذعر، أنا أيضا شعرت أن عتيا يطير من فوق كتفي وكأن شاحنة عملاقة دهسته وألقته جانبا، من الواضح أن ثمة حضور خطير يتحقق الآن، ماهذا....؟ ماهذا..؟ إن الجدران تهتز تهتز تهتز، أشعر بأن السقف على وشك السقوط فوق رؤوسنا، ألمح بعض التشققات فى الحوائط،



أشعر بموجة تخلخل وانضغاط متتابعين فى هواء المكان، ثم... ثم.. ثم.. انفجر الباب كاشفا عن ذلك الضئيل الذى نزل لتوه من السيارة، كان يقف بتمكن عجيب وبثقة مهولة فى فراغ الباب، لم يكن ينظر لنا بل كان ينظر أمامه مباشرة، لالالالا إن هذا الصبى أو الرجل أو القزم ينساب فى الهواء ولا يمشى مثلنا أبدا، لقد دلف للغرفة مرفوعة بقدر بوصات عن الأرض، أما عمر فشعرت بأنه على وشك الاحتضار، جسده ينتفض بقوة، وقد انتقل لما وراء ظهرى تاركا إياي فى مواجهة هذا الرجل، اشعر بدبيب ضربات قلب صديقى تصم اذنى، إن قلبه على وشك الانفجار، بينما الرجل يقف منسابا فى الهواء صامتا، ساد الصمت تماما، لحظات حسبتها دهرا لن ينتهى، ثم رفع الرجل ذراعه اليسرى، فشعرت بمن يختطف عمر من ورائى ويلقيه تحت اقدام هذا الرجل العجيب، بل وجدت نفسى خارج الغرفة لا اعرف كيف ولا متى خرجت، لا وقت للاندهاش وقفت اتابع بسكون ما يحدث، كان عمر يتمرغ ارضا وبدا أنه يعانى من سكرات الموت، الفزع يكبلنى فلم أقابل تلك القوى السحرية من قبل، لمحت بطرف عينى تلك المرأة الشمطاء تنظر للمشهد فى إجلال، مازال عمر يتلوي بألم عاتٍ تحت أقدام الرجل، جمعت شتات أعصابي وهرعت لأنقذه، ولكن ما ان نويت الدخول مرة أخرى لانقذ عمر حتى وجدت تلك المرأة تقف حائلا بينى وبينه وهى تنظر لى نظرة ثعبانية جمدت الدماء فى عروقى، إن لها عيونا مفزعة مستديرة صفراء الظل حمراء التأثير، التزمت مكانى وقد عرفت انها تحذرنى من التدخل، ثم ثم ثم ابصرت الرجل يهبط رويدا رويدا؛ ليقف بحذائه على صدر عمر البارزة أضلاعه، سكن جسد عمر تماما، بدا كأنه مات وشبع من الموت، مرت لحظات لا أسمع فيها الا صوت الرياح إذ تجرى خارج المكان وعزيف حشرات الليل تصفر لحنا شيطانيا،



بينما أمه وأسرته يقفون كلهم خارج الشقة كلها يتابعون بقلق ما يحدث فى نجل العائلة وعميدها المرتقب، ثم حرك ذراعه مرة أخرى بشكل دائرى وسمعت صوتا طفوليا يتمتم بلغة لم أسمع بها من قبل، قوامها حروف لامعة ووسوسة من جنس السين والصاد والذال سصسصسصسسص، صوتا مؤلما لطبلة أذني حتما، ثم بدا الصراخ، سمعت صوتا أنثويا رفيعا يخرج من فم عمر نفسه، كان هناك من يقتل امرأة بدم بارد، أبصرت ازرقاق عام يشمل جسده يتحول للسواد المعتم، جسد عمر ينتفض كأنه موصلا بأقطاب عالية الفولت، لا لالالا إنه على وشك التفحم، ثم انتفض نفضة عارمة قبل أن يهمد تماما..... ثم وجدت لبيب يلتفت إلي أنا، ويشير لى بأن أعاود الدخول حيث يقف هو.

.....

وصلت لمكان الافتتاح، ثمة سماعات عملاقة تصرخ أسماء الله الحسنى للمطرب هشام عباس، بينما يتحرك هو منتفخًا كالديك الرومى بين المعازيم، لمحنى وأنا آتٍ من المنعطف، تغافل عن استقبالى وكأنه لم يرنى، بعض الناس تملك هذا العيب، يعرفون كيف يغضون البصر عنك مع أنهم يركزون جدًّا فى حضورك، فسر علماء النفس بنه حيلة دفاعية تنتاب الشخص حتى لا تنفلت مشاعره الحقيقية فور حضور أعدائه، تابعت سيرى وأنا أحمل هديتى، وانتظرت على مضض حتى تحين الفرصة وتقابل عينى عينه، إنه يتحشانى لأنه يعرف اننى ضحيته وقتيله، ابن الكلب الحقير، كان معظم عملائي يباركون، لقد بنى نفسه على أنقاضى أنا، تصنعت ابتسامة دبلوماسية وتقدمت منه أكثر ليرانى رغمًا عن «بوز أمه» غير النظيفة، اعذرونى فأنا أتكلم عن من أفسد حياتى بالكامل وحولها لكومة ركام، إلى أن تلاقينا،



فهش لى بابتسامة مقيتة، فدفعت له بالهدية وأنا أبتسم:

ـ ألف مبروك يا جمال يا حبيبى، فاتحة خير إن شاء الله.

ـ حبيبي يا تمور، أشكرك إتفضل يا حبيبى.

ثم تناول منى الهدية قائلا:

ـ كلك ذوق يا تامر والله.

فابتسمت بدورى قائلًا:

ـ انت ابن حلال وتستاهل.

وبمجرد ما استقررت فى مكانى كان قد اختفى عن ناظرى آخذًا هديتى الثقيلة معه، هل ستصدقونى؟ أشعر الآن بأنى تحررت وسقطت قيودى أرضًا، ربما كان إحساسًا نفسيًّا، لكنى فجأة شعرت بمياه الحياة تدب فى جذورى، شعرت بأننى أرتوى، بل وجدت نفسى أبتسم وأستعيد روح دعابتى، وجلست بين عملائى السابقين أتبارى معهم فى القافية وحسن البيان، الغريب أننى وجدتهم يلتفون حولى بحميمية، الحاج محمود، والأستاذ قطب وغيرهم، بل إنهم يدعون افتقادى، وأن ذوقى فى العمل لا يعلى عليه، هل هذه مصادفة؟ إذن اسمعوا التالى، لقد غادرت المكان ومعى طلبيات عمل منهم تكفينى شهورًا من العمل المتواصل، بل إن السهرة انتهت بشرارة ماس كهربى أدت لاشتعال حريق بسيط فى مدخل البناية حيث مكتبه الجديد، وتولد من الحريق هباب أسود غلف المدخل، وأكل اسمه من على اللافتة الكبيرة التى وضعها، أيتها السماء صبى غضبك على الأغبياء. يا مسهل يا كريم، لقد بدأت السماء تمطر رذاذًا، ذهبت لعدوى وفى جيبى جنيه واحد، آخر جنيه أملكه، بل وهاديته هدية لن ينساها

أبدًا، عدت لبيتى بوسط البلد بمشاعر جديدة أو بمشاعر سابقة عادت لى، نمت قرير العين فى ذلك اليوم، استعدت نشاطى فى العمل والإبداع رويدًا رويدًا، كنت كل يوم أسمع خبرًا مقلقًا عن جمال، لقد طلق زوجته، تزوج براقصة، صفى مكتب الدعاية، حريق كبير فى شقته، باع سيارته، ديون وخراب، فى الوقت الذى اتصل بى مكتب السيارات ليخبرونى بأنهم وجدوا السيارة بالقرب من حدائق القبة فى شارع جانبى مركونة، عادت لى حبيبتى، وتنامى دخلى مرة أخرى، عوضت خسارتى بغضون شهرين، بل إن الرجل النصاب قد قُبض عليه واعترف بأن له علاقة بجمال، وهو من كان يقترح عليه أسماء الضحايا، جمال مسجون بسبب شيكات بغير رصيد، بل إننى استعدت ثلاثة أرباع نقودى بعد انتهاء القضية، ولهذا الوقت لا أعرف، هل كان التمثال هو السبب أم أنها المشيئة الإلهية فى كل ما حدث! أعتقد أن العدالة مهما غابت شمسها لا بد أن تعود مرة أخرى من خلف ركام السحاب، ربما، وربما كان التمثال كان مجرد أداة من أدوات العدالة، أو ربما كان هراوة يضرب بها القدر على رأس من يشاء من العباد، حقيقة لا أعرف تفسيرًا، ولكن تروقنى قصص الوعظ والتى توضح بجلاء أن الجزاء لا بد أن يكون حتمًا من جنس العمل.

.....

كانت المقابر على طرف البلد الجنوبى، أقف أنا ومندورة فى وسطها نبحث عن حجر أبيض نظيف، الجو خانق فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، ثمة قبر مفتوح يجلس فيه لبيب، بينما ينطرح جسد عمر أرضًا، أمرنا لبيب بالبحث عن حجر بحجم صندوق من الخشب والفضة كان يضعه أمامه، صندوق بحجم درج مكتبك وتنتشر عليه علامات وأرقام، كنت أقلب



الأحجار بحثًا عن واحد يصلح لأن يوضع فى الصندوق، أخيرًا وجدت واحدًا، فأشرت لمندورة به، إننى أهاب تلك المرأة وأشعر أنها أشد خطرًا من لبيب، لها نظرة متصلبة لا تشعر معها بأى راحة، كلامها قليل يكاد يكون معدومًا.. لم يظهر عليها أى تعبير عندما سمعت لبيب يضمنى له، بل على العكس لقد غيرت تعاملها معى من عدو إلى زميل، إنها تتمتع بثقة لا حدود لها، رفعت الحجر الأبيض على كتفى وذهبنا للمقبرة المفتوحة، كانت الأم والنسيب والأخت يجلسون فى سيارتهم بالقرب من حوش المقبرة، بينما كان الحارسان يقومان بكل ما يطلب منهما، فقد نبشا القبر الذى أشار له لبيب ونزلا بجسد عمر الواهن لجوفه، ثم استوى لبيب على أرض المقبرة، وشرع فى تلاوة تعاويذه، نزلت له بالحجر فانفتح الصندوق من تلقاء نفسه، وضعت الحجر بداخله، وقامت مندورة بذبح ديك عظيم فوق الحجر، إنهما بصدد استدعاء جبرى، شعرت بمن يهبط على كتفىَّ، لقد حضر عتيا، سمعته يهمس برجع وصدى فى أذنى، مددت يدى لأسد أذنىَّ، رآنى لبيب أفعل تلك الحركة وأنا جالس قبالته.

انتبهت تمامًا إليه ورفعت يدىَّ من على أذنى وتركت الهمس يأخذ مجراه فى تلافيف عقلى.

ـ عائنة... عائنة.

جاوبته وأنا فى حالة من التركيز الشديد:

ـ أنا سامع اسم عائنة عائنة.



لمعت عينى لبيب ومد يده فأغلق الصندوق، وبدأ بتلاوة تعاويذه السفلية بصوت خافت وهسيس مقبض، الخواء الداخلى للقبر مع تلك الإضاءة الصادرة من المصباح الكيروسينى لكفيلة بألف ألف خيال وألف ألف شبح، لكن من ذا الذى يهاب الأشباح وهو يجلس إلى جوار شيطان مريد! إنه لبيب على سن ورمح، يستحضر إبليس على سبيل التسلية لو شاء، كان لبيب مستمرًّا فى تمتمته الخافتة وهو ينظر للصندوق فى تركيز كبير، هل تسمعون معى ذلك الصوت؟ ثمة ضربات وشىء يتحرك داخل الصندوق، ثم سمعت صوت البكاء، بكاء حاد من طفل صغير، إنه صادر من الصندوق نفسه، مد لبيب يده وفتح الصندوق، لالالالا، وجدتنى أنظر لطفل عارٍ لا يتعدى عمره عامًا يتقلب بتوتر فى الصندوق ويصدر صراخًا متواصلًا، طفل شاحب، كبير الرأس بلا عيون، فقط منخار دقيق وفم واسع بسنتين رفيعتين مدببتين، وضع لبيب يده على رأس الطفل فصمت عن الصراخ وأغلق فمه لتخترق أسنانه المدببة شفتيه العليا وكأن لهم ثقبين ثابتين، رفعه لبيب بالإشارة، فوجدنا جسد الطفل يرفع خارجًا من الصندوق وكأن يدًا خفية ترفعه، فأشار لى لبيب بأن آخذه، مددت ساعدى فى توتر وتلقفت الرضيع، أوووووف إن ملمسه.. ملمسه... كأنك تمسك مجموعة ثقوب مندمجة مع بعضها البعض، كان جلده مجوفًا أو محببًا لا أدرى بالضبط، ولكننى استشعرت تجاويف دقيقة وكثيرة منتشرة على عموم جلده المخملى، ثقوب ونخاريب، كانها أعشاش لأشياء لا أريد أن أعرفها، من الواضح أنه طفل من (الزعارير)، ثم بدأ العمل على جسد عمر المسجى أمامه بلا حراك تقريبًا، كما أمر لبيب، فقد نقل الحارسان عمر ملفوفًا بملاءة كأنه مكفن، وأن يكون عاريًا تمامًا، بدأ لبيب فى إلقاء تعازيمه السحرية على جسد عمر الذى بدا يتلوى بعنف مثير، كما هائلًا



من الغبار، تمسكت بالرضيع الذى بدأ فى الاهتياج هو الآخر، بل بدأ فى الصراخ مجددًا، رأيت بأم عينى جسد عمر يهتاج أكثر وأكثر، بل إنه بدا وكأنه مهتاج جنسيًّا، التراب يعمى عيوننا، إلى أن نفخ لبيب فى موضع رجولة عمر نفخًا طويلًا، ليتجسد كائن شفاف شفاف، ثم أخذ فى التكاثف أكثر وأكثر، يا ربى ما هذا!

تجسدًا لامرأة صلعاء إلا من بعض الشعر أعلى أذنيها، جدعاء الأنف، ترى فتحات أنفها واضحة، تنغلق وتنفتح تلقائيًّا، وفم رفيع جدًّا كأنه مشقوق بالموسى وعيون غائرة جدًّا، كانت عارية تمامًا، يهتز نهداها العجيبان، إذ إن كل نهد يصل للفخذين، والمصيبة كانت فى الفخذين، فقد كانت تملك فخذين سمينين جدا ينتشر الشعر والمصيبة كانت فى الفخذين، فقد كانت تملك فخذين سمينتين جدًّا ينتشر الشعر الكثيف الأسود على طول ساقيها، شعر طويل كثيف، كانت تمتطى عمر وتجلس فوق ساقيه الممدوتين بوضع جنسى واضح، كانت تلهث وكأنها فى عز عز انتشائها، بينما لبيب يخرج دبوسين رفيعين طويلين ليغرس فى كل ثدى من ثدييها المتدليين للأرض دبوسًا، ثم صرخة مع شهقة عاتية تخرج منها، لترتفع عن الأرض مسافة شبر أو أكثر وآخذة معها عمر الذى بدا ملتصقًا بها، قام لبيب جالسًا على ركبتيه وهو يمسك رأس الدبوسين اللذين انغرسا بالكامل فى صدر عائنة، رباه إن لها تكوينًا مرعبًا جدًّا، فجأة صرخ الطفل بين يدى، لتلتفت له عائنة وتتغير ملامحها للصدمة وهى ترى طفلها القبيح بين يدى، أفلتت جسد عمر ليسقط عنها فتسحبه مندورة عنوة لخارج الحيز الذى نجلس فيه، ومن ثم يتلقاه الحارسان اللذان لحسن الحظ لم يشاهدا ما رأيته أنا، تقترب منى الشيطانة فى توءدة وهى تنظر لى وللرضيع، لالالالا، إن للرعب حدودًا، تصرف حالًا يا لبيب أرجوك، إننى على وشك الانهيار العصبى

من اقتراب تلك الشيطانة منى، مدت يدها لتأخذ رضيعها منى، صورة مقززة للأمومة فى أبشع حالاتها، ولكن تبقى أمومة على أيه حال، شيطانة وطفلها، تركته من يدى لتتلقفه فى حنان وهى تهدهده وتعود لتجلس مكانها فوق عمر، ولكن أين عمر؟ ثمة هيجان يعربد قادمًا من بعيد، إن لبيب مستمر فى الهمهمة وهو يركز ناظريه على الشيطانة، بينما أشعر بمن يجلس على كتفىَّ بوزنه.

ـ عوائن.. انصراف.. زعارير.. انصراف.

وفعلًا وجدت كثافته تخفت رويدًا رويدًا، رويدًا إلى أن تحولا لخيال من لهيب متناقص ثم انزوى فى زوايا القبر ثم لا شىء...

بينما تتجسد أمامى صورة دينا صديقتنا المشتركة، ما الذى أتى بك يا (دينا) إلى هنا؟

.....

وقفت أتامل نفسى فى المرآة. ما بال هذه البذلة منتفخة هكذا؟ أوف إننى متضرر من رابطة العنق هذه، هى لا تتلاءم مع وجهى المستدير ولغدى الصغير الذى احتل ذقنى، الحقيقة أن وزنى زاد لدرجة لن أسكت عليها أبدًا، العزيزة أمى وعلى ثغرها بسمة النصر، أنا اليوم عريس، واليوم يوم فرحى، لقد انتصرت أمى، وأنقذتنى من لقب (عرة) الذى كانت تطاردنى به، لا لم أشعر بالغضب كما تتصورون، فلكل مقال مجال، لا بد وحتمًا أن أهجر كل نشاطى السابق وأستعد تمامًا لأن أكون... زوج وأب.

تمت.

من مذكرات تامر عطوة
القاهرة ٢٠٠٤
وسط البلد



غادرت أخيرًا (شقة الهرم) ميممًا شطرى نحو المركز، نحو وسط البلد، كم أحب تلك الأبنية العامرة بالنقوش والنتوءات والنخاريب! أراها أعشاشا لأرواح من عشقوا وغادروا، مثلما سأفعل حتمًا يومًا ما.

شىء ما يجعلنى مدمنًا للتجوال فى شوارعها المغموسة فى الذكريات والصمت الصاخب، شىء ما حولنى من قضبان إلى قطار، لم أعد سليمًا تمامًا كما كنت، لم أعد بريئًا دامعًا مذعورًا كما السابق، شىء ما احتلنى وحولنى من فريسة إلى صياد، وكما تُنتزع المسرة من أشخاص وتمنح نفسها لآخرين، منحت نفسى وعن طيب خاطر لهذا النداء الخافت، استجبت للغريزة الروحية بلا مماطلة، عشقت الظلام والوحدة.

هناك فى وسط البلد ستسمع حتمًا أصواتًا تستغيث وتتمنى لو عاد الزمن دقيقة واحدة للوراء، سأحكى لكم عن أشخاص وكيانات وحوادث فيها الضحك مقرون بالدموع، وفيها الأمان متزاوج مع الهلع، ولكن باختصار وتخبط، فليس لدىَّ وقت لأضيعه فى التنسيق والترتيب، خذوا منى الخيوط وأنسجوها ملبسًا على مقاسكم، فكل الأحداث تتلاحم مع كل التواريخ بلا فواصل ولا هوامش، فقط أنا وشقتى وهلاوسى وسلطتى التى لم أعرف أبدًا كيف أضبط مقاسها على كتفى.

بالفعل كانت لى حكايات مريعة فى ...... وسط البلد.

تامر عطوة

تصميم الغلاف : عبير محمد


9 789776 578104

